



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة الثقافة القومية (٢٠)

المقاومة الفلسطينية

بين غزو لبنان والانتفاضة

محمد خالد الأزعر



المقاومة الفلسطينية
بين غزو لبنان والانتفاضة



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة الثقافة القومية (٢٠)

المقاومة الفلسطينية

بين غزو لبنان والانتفاضة

محمد خالد الأزعر

والآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية،

مركز دراسات الوحدة العربية

ساية «سادات تاور» - شارع ليون - ص ب. ٦٠٠١ - ١١٣ بيروت - لبنان
تلفون. ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧ - ٨٦٩١٦٤ - مرقباً: «مرعبي»،
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز
الطبعة الأولى

بيروت. كانون الثاني/يناير ١٩٩١

المحتويات

٧	مقدمة
	الاطار الداخلي للمقاومة :	الفصل الأول
١٥	اطلالة عامة .. .	
	أولاً : سياسات الاحتلال والواقع	
١٥	الاجتماعي - الاقتصادي ..	
٢٦	ثانياً : التطورات السياسية ..	
٣٤	ثالثاً : أزمة المقاومة في الأرض المحتلة	
٤٩	بين المقاومة المدنية والمقاومة المسلحة ..	الفصل الثاني
٤٩	أولاً : المقاومة المدنية ..	
٧٠	ثانياً : المقاومة المسلحة ..	
٩٣	الانتفاضة الكبرى .. .	الفصل الثالث
	أولاً : الانتفاضة: الأداء والآليات	
٩٣	وحدود التأثير .. .	
	ثانياً : الانتفاضة ومسار النضال	
١١٩	رؤية فلسطينية : رؤية مقارنة ..	

١٨٩	الفصل الرابع : من قضايا المقاومة .. رؤية مستقبلية
١٩١	أولاً : العفوية والتخطيط
	ثانياً : المقاومة المدنية والمقاومة
١٩٧	المسلحة
	ثالثاً : العناصر الحاكمة لمسار
٢٠٧	المقاومة

مقدمة

تقدم تجربة المقاومة الفلسطينية في إطار المواجهة العربية للغزوة الصهيونية مجالاً واسعاً للدرس والتفكير واستخلاص العبر. فقد بدأت هذه المقاومة منذ ما ينيف على المائة عام. وفي ذلك مبرر كافٍ لوصف حركة التحرر الفلسطينية بأنها الأطول عمراً بين حركات التحرر العالمية.

مع ذلك، فإن مقارنة هذه التجربة عن كثب تبرز أنه يمكن التعامل معها على أساس أكثر من معيار:

- هناك المعيار الزمني، الذي نستطيع من خلاله تناول المقاومة في مراحل تاريخية محددة. كالمقاومة في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، أو بين حربي ١٩٤٨ و١٩٥٦، أو بين حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧، أو بين حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣. . وهكذا.

- وهناك المعيار المكاني، الذي يقوم على تحليل التجربة

ودراستها في رقعة جغرافية معينة على خارطة فلسطين، كالمقاومة في الضفة الفلسطينية، أو في قطاع غزة، أو في الجليل المحتل منذ عام ١٩٤٨، أو في فلسطين التاريخية بصفة عامة . . وهكذا.

وبطبيعة الحال، فإنه أيما كان المعيار الذي يتم تناول التجربة في إطاره، ينبغي أخذ المعيار الآخر بعين الاعتبار في سياق جدلية تحليلية واحدة. ومن ذلك، أنه عند تناول التجربة في الضفة الغربية (كإطار مكاني)، فإن الأمر يقتضي تحديد الإطار الزمني للتحليل، كأن يكون هذا الإطار الفترة بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣، وهنا يكون بدء الاحتلال وحرب تشرين الأول/ أكتوبر علامتين فارقيتين من الناحية الزمنية، وربما أمكن تناول التجربة في المكان ذاته في الفترة بين عام ١٩٦٧ و١٩٨٨، وهنا يكون بدء الاحتلال وفض العلاقة السياسية والقانونية بين الضفة الغربية والأردن هما العلامتان الفارقتان زمنياً.

وداخل هذه الأطر العامة، يمكن تناول المقاومة من جوانب معينة، كالمقاومة الثقافية، أو الاقتصادية، أو القانونية ونحو ذلك؛ كما يمكن تناول المقاومة بنمطها المسلح العنيف أو المدني العنيف واللاعنف أحدهما أو كليهما على صعيدين دراسيين أو على صعيد دراسي واحد.

وعموماً، فإنه مما يتوجب الحيطة له - في أية مساحة زمانية مكانية يتم وضعها موضع البحث وكذا في أي حقل من حقول المقاومة يسعى الباحث إلى تناوله - ضرورة مراعاة العلاقة الجدلية

سين مسار تجربة المقاومة الفلسطينية ومسار الصراع العربي - الصهيوني بصفة عامة.

بعبارة أخرى، فإنه لكي يقع تحليل مسار المقاومة الفلسطينية ضمن إطار زمني ومكاني محدد، في أقرب نقطة من الموضوعية والصواب، يلزم الأخذ في الاعتبار ما يحيط بهذا المسار من متغيرات في المستوى الأشمل للصراع، وذلك من زاويتي العمق الزمني والامتداد الجغرافي أيضاً.

إن مسار تجربة المقاومة الفلسطينية يبين أن هذه التجربة قد مرت بمراحل متعددة، لكل منها طابعها المميز ومذاقها الخاص، وإن التجربة في عمومها، ظلت محكومة بعناصر ومتغيرات طرحها مسار المواجهة الأشمل بين القوى الاستعمارية - الصهيونية من جهة والقوى العربية من جهة أخرى. وبناءً على ذلك، إضافة إلى عناصر من القوة أو القصور الذاتي الفلسطيني، مرت المقاومة بأطوار من الصعود والازدهار وأطوار أخرى من الهبوط والانحدار، غير أن الاستمرارية وإعادة الإحياء والتكوين كانت دوماً من أهم السمات المميزة للمسار.

معنى ذلك كله، أن أي اقتراب من مسار هذه التجربة للمقاومة الفلسطينية في أيٍّ من مراحلها العامة، بغرض التحليل واستحلاب النتائج، سوف يأخذ وجهة غير صحيحة إن لم تحذوه النظرة الشاملة. ولعل الافتقاد إلى هذا النهج، هو ما أوقع البعض، وربما دون قصد، في دائرة سوء تقدير الوقائع التي

صاحبت الانتفاضة الكبرى في الأرض المحتلة التي تفاعلت أحداثها منذ نهاية خريف عام ١٩٨٧ .

على سبيل المثال، وصف البعض ما يجري بأنه ثورة، عازفاً عن وصفها بالانتفاضة . وذلك باعتبار أن مفهوم الانتفاضة أقل وزناً ولا يفي ما يدور داخل الأرض المحتلة حقه!

غير أن هذا البعض كان عليه قبل أن يلقي بوجهة نظره، أن يجيب عن تساؤل هام يدور حول مفهوم ما يجري على أرض فلسطين ومن حولها بيد أبناء الشعب العربي الفلسطيني منذ بداية الغزوة الصهيونية بعامة ومنذ منتصف الستينات بخاصة . وثمة تساؤلات أخرى رديفة، فالأرض المحتلة شهدت العديد من الانتفاضات قبل عام ١٩٨٧، فما هي المفاهيم التي تصلح لوصف تلك الانتفاضات غير أنها انتفاضات أكثر محدودية من الانتفاضة الكبرى؟!

إن الثورة الفلسطينية مفهوم شامل يطلق على مختلف أشكال المقاومة الفلسطينية للغزوة الاستعمارية الصهيونية . . ولذا، فقد يكون الأقرب إلى الصواب اعتبار ما يجري في الأرض المحتلة منذ نهاية عام ١٩٨٧ كأحد مراحل هذه المقاومة، ولا بأس من إطلاق مفهوم الانتفاضة الكبرى عليها . بكلمات أخرى، فإن الانتفاضة تمثل مرحلة صعود كبرى للمقاومة وللثورة الفلسطينية وتنبؤاً مقعدها على ذروة أعمال حركة التحرر الفلسطيني، وبذلك، فإن نهاية هذه الانتفاضة أو خمودها على سبيل الافتراض، لا يعني نهاية

الثورة أو المقاومة بل قد يعني دخول المقاومة في مرحلة أخرى طالما أن الأهداف الفلسطينية لم تتحقق.

انطلاقاً من هذا الفهم، فإن هذا الكتاب يتناول من خلال فصوله الأربعة، المقاومة في فلسطين من الفترة ما بين غزو لبنان عام ١٩٨٢ والانتفاضة الكبرى المتفاعلة منذ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧. ولا يخفى ما يحمله الإطار الزمني المذكور من دلالات. فهذا الإطار يقوم على اعتبار أن الغزو الإسرائيلي للبنان وانسداد الانتفاضة الكبرى علامتان فارقتان ضمن المسار العام للمقاومة العربية الفلسطينية للغزوة الصهيونية.

لقد شهدت هذه المرحلة بين قطبيها العديد من المتغيرات، إنها تبدأ عند العام الذي شهد ذروة الحديث عن انهيار المقاومة والعمل الفدائي وقوى الثورة الفلسطينية وبخاصة منظمة التحرير داخل الأرض المحتلة وخارجها، واضمحلال العمل العربي المشترك، وانتهاك إسرائيل حرمة المنطقة العربية بما في ذلك احتلالها أول عاصمة عربية (بعد القدس) أي بيروت، وعدم وضوح الرؤية على مستوى مصير الصراع وقيمة المواجهة مع إسرائيل. هذا إلى جانب ازورار الإطار الدولي عن فلسطين وقضيتها إلى حد ملموس. وتنتهي عند عودة الإحياء الكمي والكيفي للمقاومة الفلسطينية بشكل غير مسبوق، وعودة منظمة التحرير الفلسطينية إلى واجهة الأحداث، ومحاولة إعادة ترميم النظام العربي، والسعي إلى إعادة توجيه الأنظار الدولية رسمياً وشعبياً مرة أخرى إلى ما يدور في فلسطين.

من الواضح إذاً، أننا بصدد مرحلة غنية بالتفاعلات، ولذا يقتضي الأمر لفت الانتباه، إلى أن محتويات هذه الدراسة لا تفي كل هذه التفاعلات حقها، فهي تمثل جهداً ينضم إلى غيره من جهود دراسة تجربة المقاومة الفلسطينية الممتدة.

لقد ركزت الدراسة جهدها على تتبع الخطوط العريضة للمقاومة بنمطيتها المدني العنيف والمسلح العنيف ضد قوى الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الفلسطينية وقطاع غزة، ومهدت لذلك باطلالة عامة على الواقع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي الذي أحاط بهذه المقاومة.

وعندما تعرضت الدراسة لوقائع الانتفاضة الكبرى، سعت إلى إبراز هذه الوقائع من خلال رؤية مقارنة لهذه الانتفاضة مع ما سبقها من انتفاضات في الأرض المحتلة منذ عام ١٩٦٧، وكذا مع ما سبقها من مراحل للمقاومة في فلسطين التاريخية، وبخاصة أثناء ثورة (١٩٣٦ - ١٩٣٩) التي تعد أكثر مراحل المقاومة تشابهاً معها.

كذلك، تضمنت الدراسة رؤية مقارنة للمقاومة في نموذجها الفلسطيني في مقابل النموذج الذي طرحته المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي بعد عام ١٩٨٢.

وقد خصصت الدراسة قسمها الأخير للتعامل مع بعض التساؤلات والقضايا التي أثارها مسار المقاومة في المرحلة موضع

البحث والوقوف عند العناصر الحاكمة لهذا المسار من منظور
مستقبلي.

وإذ أرجو أن يكون في هذا الكتاب ما يفيد، أتوجه بالشكر
للأساتذة الأجلاء الذين تفضلوا بمراجعة مخطوطته، وكان
لملاحظاتهم القيمة أثر طيب في إعداده. كما أتوجه بالتقدير لمركز
دراسات الوحدة العربية الذي تولى نشر الكتاب، وأخص بالذكر
الأستاذ الدكتور خير الدين حسيب، مدير عام المركز.

الفصل الأول

الاطار الداخلي للمقاومة : اطلالة عامة

يقصد بالاطار الداخلي للمقاومة الذي يتعرض له هذا الفصل جملة التطورات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية التي أحاطت بمسار المقاومة في الأرض المحتلة خلال الفترة ما بين ١٩٨٢ و ١٩٨٨ . ويتضمن هذا الإطار بصفة خاصة سياسات الاحتلال تجاه مختلف الجوانب السابقة في الضفة الغربية وقطاع غزة .

أولاً : سياسات الاحتلال والواقع الاجتماعي - الاقتصادي

يصعب الفصل بين سياسات الاحتلال الإسرائيلي تجاه الواقع الاجتماعي الاقتصادي السياسي في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ، وبين المخططات الإسرائيلية للتغلب على ، أو أحباط ، أية مقاومة سياسية مدنية لا عنفوية أو مسلحة عسكرية عنيفة في هذه

الأراضي. هذه العبارة الجامعة تنطبق على سياسة الاحتلال تجاه
من تمترس من الفلسطينيين داخل الكيان الصهيوني منذ عام
١٩٤٨، مثلما تنطبق على سكان الضفة الفلسطينية وقطاع غزة
المحتلين منذ عام ١٩٦٧ رغم وجود تفاوت نسبي في أسلوب
التعامل مع هذه الجهات. وقد توافر في الوقت الحاضر تراكم
معرفي حول ما يمكن تسميته بالنموذج الإسرائيلي لإدارة الأراضي
المحتلة من مختلف الجوانب. وسوف نكتفي في هذا الموضع بإيجاز
بعض ممارسات هذا النموذج، مع عناية خاصة بفترة البحث من
جهة وبما طبق منها إزاء الضفة والقطاع من جهة أخرى.

من الناحية الاجتماعية الثقافية، ركزت إسرائيل جهدها على
محو هوية الإنسان الفلسطيني التي تخلق الحافز للمقاومة. وعلى
وجه العموم لم يسلم من سياساتها (إجراءاتها) القانونية والمادية
والإعلامية الدعائية أحد من سكان الأرض المحتلة. وبحلول
مطلع الثمانينات، كانت هذه السياسات قد بلغت حد السعي إلى
التزييف العلني لكل ما ينتمي إلى الذات الفلسطينية العربية. فقد
ادّعت إسرائيل لنفسها معظم مكونات الهوية الفلسطينية حتى
بالنسبة للملبوسات وأصناف الطعام! بينما جرى العمل حثيثاً إلى
«عبرنة» أسماء المدن والقرى وتواريجها. وبلغ الأمر ذروة السوء
بمحاولة تقسيم السكان إلى مجاميع إثنية بشكل اعتباطي، ومن
ذلك الحديث عن الدروز والشركس والمسلمين والنصارى.. وكان
«تيدي كوليك» رئيس بلدية القدس من أكثر الدعاة إلى تقسيم
المجتمع الفلسطيني إلى وحدات فيفسائية أصغر مكونة من

مسلمين وأرمن ويونان وسريان وروم ولاتين، بل إلى مقادسة (نسبة للقدس) وخلايلة (نسبة للخليل التي أصبح أسمها حبرون!) ونابلسيين (نسبة لنابلس) وغزيين (نسبة لغزة) . . . وهكذا . . .^(١).

من جانب آخر، شهدت السنوات المنصرمة من عقد الثمانينات مساع إسرائيلية لتفتيت «الإطار القيمي» في الوسط الفلسطيني العربي. ومن ذلك العمل على جر الشباب الفلسطيني إلى الشوارع الخلفية في المجتمع الصهيوني الإسرائيلي، حيث أوبئة الدعارة والمخدرات والاستهتار بالمثل العائلية والدينية، ونحو ذلك مما يمارس دوراً في اختراق الحصون القيمة الاجتماعية في مواجهة الغزوة الصهيونية العنصرية. وفي هذا السياق حاول الاحتلال الولوج إلى عقلية الأجيال الشابة التي لم تعاصر صدمة الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ من مدخل نفسي قوامه إعادة إنتاج مقولات ما بعد هزيمة ١٩٦٧ تحديداً، مثل، إن الإسرائيليين هم الذين ربّحوا المعركة مع العرب، وأن الفلسطينيين والعرب عموماً هم أدنى من اليهود (الأسباد) الذين يتميزون بذكائهم وسلوكهم الحضاري، وأن الفلسطينيين لا يستطيعون إدارة شؤونهم بأنفسهم، وحتى لو منحوا السلطة أو السيادة فلن يستخدموها على وجه صحيح^(٢). وذلك منهج تقليدي اتبعه المستعمرون في كل النماذج الاستعمارية، ويقوم على ترسيخ علاقة مع سكان البلاد المحتلة عمادها سيادة وأحقية المعتصب وتفوقه الطبيعي على الطرف المغتصبة أرضه. ولا يخفى أن هذا النهج يتناسب ومحاولات تنفيذ أي خيار سياسي

للفلسطينيين يطرحه الإسرائيليون (الأفضل)، وبخاصة بعد ضرب منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان عام ١٩٨٢ .

وبلاحظ أن معظم هذه السياسات جاءت في وقت اتسعت فيه شريحة المتعطلين من قوة العمل الفلسطينية، حيث يضحي تنفيذ سياسات التفتيت الاجتماعي والاختراق القيمي ونشر عوامل الإفساد الخلقي والتحطيم النفسي أيسر منالاً. فطوال عقد السبعينات وصولاً إلى نهاية عام ١٩٨٣، كان العمل متوافراً لقوة العمل الفلسطينية، وذلك بسبب استيعاب الجهود العسكرية لقوة العمل الإسرائيلية. لكن إكمال الانسحاب الإسرائيلي من سيناء وضمور الاحتياجات الأمنية على بقية الحدود، أدت إلى تسريح عدد كبير من الجنود الذين عادوا إلى أماكن عملهم، مما ضيق الفرص على كثير من عمال الأرض المحتلة. وزاد من تدهور ظاهرة البطالة الفلسطينية تكرار انتكاسات الاقتصاديات الإسرائيلية، وعدم قدرة العناصر الفلسطينية الشابة على التوجه إلى البلدان العربية سواء للعمل أو الدراسة نظراً لتردي الأوضاع الاقتصادية في المحيط العربي (بسبب الحرب العراقية - الإيرانية) وارتفاع كلفة التعليم في بعض البلدان العربية بخاصة في مصر بالنسبة لأبناء قطاع غزة^(٣). شهدت هذه الفترة أيضاً هجمات إسرائيلية قاسية ضد المحتوى الثقافي التعليمي ومؤسساته. فبعد أن استطاع الفلسطينيون توطيد دعائم ست جامعات محلية في الضفة والقطاع، كانت دوماً قاصرة عن استيعاب مطلب التعليم الجامعي لأنها لم تضم أكثر من ٢٥٠٠ خريج من المرحلة الثانوية الذين

ينفون على الستة عشر ألفاً في كل عام^(٤)، أطلقت إسرائيل مدفعيتها القانونية ضد المكون التعليمي الثقافي الفلسطيني العربي، وعرضت حرمة المؤسسات التعليمية والثقافية للانتهاك المستمر. على سبيل المثال، تعرضت «جامعة بيرزيت» خلال العام الدراسي (١٩٨٦/٨٥) لإقامة نقاط تفتيش على الطرق المؤدية إليها ٣٦ مرة، وقتل في حرمها ثلاثة طلاب وجرح العشرات، بعد أن فتحت قوات الاحتلال النار عليهم في مناسبتين أثناء ذلك العام^(٥).

لقد انعكست أنظمة الاحتلال وقوانينه على مؤسسات التعليم المختلفة بدءاً من التعليم الابتدائي والثانوي مروراً بالتعليم المتوسط والمهني وانتهاءً بالتعليم الجامعي والعالي. فقيدت النشاطات والتخصصات العلمية والمحتويات المنهجية لهذه المؤسسات، وحصرت التعليم في فروع نظرية، ومنعت بشكل مطلق التعليم في الجوانب والفروع أو التخصصات التطبيقية لأسباب وصفت بأنها أمنية! ولذا فإنه يلاحظ عدم وجود كليات للطب أو الزراعة في الجامعات الفلسطينية. وفي هذا الإطار، أصبحت هذه المؤسسات تمنح رخصة عمل لمدة عام واحد، يحق بعده للحكم العسكري تجديدها أو رفض تجديدها. هذا، فضلاً عن سلطة الحكم العسكري في تحديد عدد الطلاب وتوزيعه. ووعياً من سلطات الاحتلال للدور السياسي المتزايد للمؤسسات التعليمية والكوادر القائمة عليها منذ مطلع الثمانينات، بدأت هذه السلطات بتضييق هامش الحركة الممنوح لهذه المؤسسات.

فأصدرت في آب/أغسطس ١٩٨٣ تعليمات تشترط على أساتذة الجامعات والمدرّسين، بغض النظر عن جنسياتهم، التوقيع على ما سمّته «وثيقة التزام» تنص على عدم القيام بأي نشاط أو عمل يمس الأمن والنظام، وعدم القيام بأي عمل أو تقديم أية خدمة تعتبر مساعدة أو داعمة لمنظمة التحرير الفلسطينية أو أية منظمة معادية أخرى. واستخدمت هذه الوثيقة في إبعاد عشرات الأساتذة الفلسطينيين^(٣). ويجدر بالذكر في هذا الموضع أن إصدار هذه الوثيقة يتشابه إلى حد بعيد وما سلكه الحكم النازي العنصري في أوروبا في الأربعينات. ففي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٠، أصدر النازيون أمراً بأن يوقع المدرسون النرويجيون على إعلان يشيد بالحزب النازي^(٤).

أما فيما يخص العمل الصحفي، فإن الهامش المحدود للحرية الصحفية، الذي أمكن الحصول عليه بنضال مرير خلال عقد السبعينات، تعرّض لعسف يد الرقيب وعينه باستمرار، وظل الصحفيون عرضة للإبعاد أو الاعتقال الإداري وغير الإداري، كما عاشت المؤسسات الصحفية أجواء التهديد بالاعغلاق وسحب التراخيص بحجة عدم مراعاة الأمن أو التحريض والإثارة أو مسميات وذرائع شبيهة.

وفي سياق السياسات الثقافية الفكرية، حاصرت السلطات مسار الحركة الفنية التي كان من أبرز رموزها في الأرض المحتلة خلال هذه الفترة «مسرح الحكواتي» في القدس الشرقية. وحتى

حزيران/يونيه ١٩٨٨، كان هذا المسرح قد تعرض للإغلاق بأوامر عسكرية وإدارية ١٤ مرة منذ افتتاحه عام ١٩٨٣.

وكان مما قاد إلى تفاقم الأمور بالنسبة للمجتمع الفلسطيني، اتساع نطاق الاعتداءات والإهانات التي يوجهها المستوطنون ضد المواطنين الفلسطينيين وممتلكاتهم. فمن المعروف أنه منذ مطلع الثمانينات تصاعدت التيارات الدينية اليمينية ومنظماتها الإرهابية في المجتمع الإسرائيلي، وبرز تحالف هذه التيارات مع قوى الجيش والسلطة الحاكمة، مما أوجد مناخاً ملائماً تعمقت في إطاره حركة الاستيطان في الأراضي المحتلة، وذلك بأمل اقتلاع العنصر الفلسطيني كمجتمع قائم من الجذور تحت شعار افراغ أرض إسرائيل الكاملة من هذا العنصر، ونقله (أو طرده) نحو الشرق (الأردن) أو الشمال (لبنان)^(٣). وبين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٤، قام المستوطنون بتواطؤ مع الجيش والشرطة بما مجموعه ١٩١٩ اعتداء ضد الفلسطينيين منها ٧٣٥ حادثة ضد الأشخاص و١١٨٤ ضد الممتلكات، ومن بين هذه الاعتداءات ٢٣ حادثة قتل. وخلال عام ١٩٨٥ اشترك المستوطنون مع الجيش في ارتكاب ٢٢٦ حادثة اعتداء مماثلة، كان بينها ٩ حوادث قتل (٤) بواسطة الجيش و٥ بواسطة المستوطنين). وعلى الأثر، أكد تقرير دولي صدر عام ١٩٨٦ أن «... سياسة إسرائيل مبنية على فكرة أن الأرض المحتلة عام ١٩٦٧، تشكل جزءاً من دولة إسرائيل، وبالتالي، فإن التدابير التي اتخذتها حكومة إسرائيل هي عملية ضم. وأن أنشطة المستوطنين التي تغطي كافة أنحاء الأراضي المحتلة تتم برعاية رسمية من سلطات الاحتلال وهي تؤثر في

جميع قطاعات السكان الفلسطينيين^(٩). ومن المهم في هذا الإطار أن نتوقف عند عبارة تأثير السياسات الاستيطانية في «جميع قطاعات السكان»، إذ إنها تعني في طياتها فشل الاحتلال الإسرائيلي في خلق أية شريحة (أو طبقة أو قطاع اجتماعي) تتوافق مع سياساته بشكل لا يثير شبهة العمالة والتواطؤ.

ويرتبط بالسياسة الإسرائيلية الاستيطانية تجاه الأرض المحتلة، البعد السكاني لهذه السياسة، وفي واقع الأمر، فإن ثقل الهجمة الاستيطانية كان لا بد له من أن يقترن بسياسة سكانية معينة. وقد دخل في روع بعض المراقبين أن مسار الصراع السكاني في فلسطين المحتلة بعامته يشق طريقه في مصلحة الجانب العربي الفلسطيني^(١٠). وهو تصور يحتاج إلى تمحيص. فمنذ مطلع الثمانينات - وربما منذ ما بعد وقوع الاحتلال في حزيران/يونيو ١٩٦٧ - أخذت السياسة السكانية الإسرائيلية أبعاداً خطيرة تجاه الجانب العربي الفلسطيني، وذلك باعتبار أن العنصر السكاني (البشري) هو أحد أهم عناصر القوة في المجتمعات الاستيطانية عموماً وضمنها النموذج الصهيوني الذي تمثله إسرائيل. لقد اضطلع المغتصبون الصهيونيون بدراسة نماذج المجتمعات الاستيطانية السابقة تاريخياً، كالخبرة الصليبية، والخبرات الأقرب كالنموذج الأمريكي والجنوب أفريقي... وغيرها^(١١)، وتوصلوا إلى بناء نموذج صهيوني خاص يتم من خلاله التعامل مع البعد السكاني في الصراع العربي - الإسرائيلي بعامته والجانب الفلسطيني - الإسرائيلي من هذا الصراع بخاصه. وكان من جراء

تطبيق هذا النموذج في الأرض المحتلة أن اتجه النمو السكاني للمجتمع الفلسطيني إلى الانخفاض سواء في نسبة هذا النمو أو في اختلال نسبة الذكور إلى الإناث لمصلحة الإناث^(١٣). وعلى غير الشائع، فإن السياسة السكانية الإسرائيلية نجحت في لجم النمو السكاني الفلسطيني وجعله في أضيق الحدود. ولو أن المجتمع الفلسطيني في الضفة الفلسطينية وقطاع غزة - دون الحديث عن المجتمع الفلسطيني في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ - قد نجا من وطأة هذه السياسة، لارتفع عدد سكان هاتين المنطقتين عما هو عليه حالياً (نحو ٩٦٠ ألفاً في الضفة و٦٥٠ ألفاً في القطاع عام ١٩٨٧) بأكثر من ربع مليون نسمة^(١٤). وقد توصلت سلطات الاحتلال إلى هذه النتيجة من خلال أبعاد سياستها السكانية المختلفة، التي من بينها عمليات الإبعاد والتهجير والنزوح والتضييق الاقتصادي والتوسع الاستيطاني وتشجيع التكاثر في المجتمع اليهودي^(١٥). مهما يكن من أمر فإن العناية التي أولتها سلطات الاحتلال والقيادات الإسرائيلية لموضوع التطور السكاني اليهودي من جانب والفلسطيني في الأرض المحتلة من جانب آخر، أضحت منذ مطلع الثمانينات من الظواهر الواضحة، حتى أن هذه المسألة قدمت مادة خصبة للجدل بين القوى السياسية داخل إسرائيل. ولا شك في أن هذه العناية قد انعكست في شكل مزيد من الضغوط على أبناء الأرض المحتلة وهم أحد أهم أطراف معادلة الصراع السكاني بين الغزوة الاستيطانية الصهيونية وأبناء المنطقة العربية. ومن المتوقع أن مزيداً من الضغوط سوف تمارس

في المرحلة المقبلة بعد التطورات التي تشهدها هجرة (أو تهجير) اليهود السوفيات إلى فلسطين المحتلة منذ مطلع التسعينات.

إذا انتقلنا إلى النواحي الاقتصادية، نلاحظ أن هذه الفترة أبرزت تماماً المساوئ الاقتصادية للاحتلال وعلى نحو خطير. فقد تضرر القطاع الزراعي بشدة بفعل أكثر من عامل. منها توسع حركة الاستيطان ومصادرة الأراضي والتحليل بالتزوير للاستيلاء عليها، حتى أنه بحلول منتصف الثمانينات كانت السلطات الإسرائيلية قد استولت، بطريقة أو بأخرى، على نحو نصف أراضي الضفة الفلسطينية وثلاث أراضٍ قطاع غزة^(١٦). ومنها سياسة الاستيلاء على مصادر المياه وتحديد ضخمها للزراعة الفلسطينية وذلك لدرجة أن ٢٧ بئراً إسرائيلياً تخدم المستوطنين في الضفة كانت تضخ من المياه في عام ١٩٨٢ نصف الكمية التي تضخها الآبار الفلسطينية جميعاً وعددها ٣١٤ بئراً^(١٧). ولم يعد ثمة مجال أمام إحداث زيادة في مصادر المياه وبخاصة في قطاع غزة سوى بتحلية مياه البحر^(١٨). ولم يكن القطاع الصناعي أسعد حظاً من سابقه، فقد وضع الاحتلال حداً للاستثمارات الصناعية في الأراضي المحتلة مما حال دون تطور الصناعة الفلسطينية وتدهور القائم منها بفعل غزو الصناعة الإسرائيلية المتطورة وقدرتها التنافسية. وبصفة عامة، عملت قوة العمل الصناعي الفلسطينية التي تقدر بنحو عشرين ألف عامل في ظروف حصار صناعي محكم طوال الوقت^(١٩). وفي ظل هذه الأوضاع شهدت سنوات

لبنانينات وصول استحلاب الاحتلال الإسرائيلي لقوة العمل
فلسطينية إلى طور الذروة. فقد ترتب على ضرب قطاعي
زراعة والصناعة، المحدودين أصلاً، من الأرض المحتلة أن
تفع عدد العمال الذين اتجهوا للعمل داخل المؤسسات وقطاعات
عمل الإسرائيلية من حوالى ٢١ ألفاً في عام ١٩٧٠ إلى أكثر من
١١ آلاف في عام ١٩٨٧^(١٩). ونتيجة لتشغيل هؤلاء العمال
جور متدنية وتوزيعهم على القطاعات الاقتصادية ذات الأعمال
شاقة والمهارة المحدودة واقتطاع نسبة من أجورهم لتغطية
دمات التأمين المختلفة (التي لا يحصلون عليها في الغالب)،
ستطاعت إسرائيل توفير مكاسب مالية طائلة، بلغت في عام
١٩٨٨ وحده نحو ٤٦٥ مليون دولار^(٢٠).

بالنسبة للتجارة الخارجية، فقد اكتملت في هذه الفترة الهيمنة
إسرائيلية على تجارة الأرض المحتلة حتى أضحي معروفاً أن ٩٠
لماة من هذه التجارة، وبخاصة في جانب الاستيراد، تتم مع
سرايل. وهو ما خلق سوقاً مشتركة فعلية بين إسرائيل من جهة
الضفة والقطاع من جهة أخرى^(٢١). وكان من بين سلبيات هذه
وضعية أن انعكست أحوال الاقتصاد الإسرائيلي على اقتصاديات
لأرض المحتلة التابعة. وغني عن الإشارة أن معاناة الاقتصاد
فلسطيني لم تنبني فقط على كونه إقتصاداً لمنطقة نامية، وإنما أيضاً
لى كونه اقتصاداً خضع لسياسة احتلال إستيطاني شرس هدفه
دمير بنيته وتشويهها وإفقاده أية خصوصية أو هياكل مميزة، يمكن
ن تكون تعبيراً عن هوية اقتصادية مستقلة^(٢٢).

ليس غريباً، والحال كذلك على صعيد السياسات الاجتماعية الاقتصادية، القول إن الاحتلال قد فشل في جرّ أية شريحة أو طبقة اجتماعية في الأرض المحتلة لمصلحة مخططاته. وبعبارة أخرى، لقد قادت هذه السياسات الى أن أضحت محاربة الاحتلال ضرورة ملحة عند كل الشرائح والطبقات لأن الضرر طالها جميعاً. وهذا بالطبع لو كانت مقاومة الاحتلال من عدمها تتوقف - كما يصرّح بعض المصادر الإسرائيلية - على الظروف الاقتصادية التي يعيشها سكان الأرض المحتلة، وهو زعم لا يمكن قبوله^(٣٣). فشريحة كبار الملاك والوجهاء التي جنحت تقليدياً نحو الأساليب الدبلوماسية والحوارية في التعامل مع المحتلين منذ عهد الانتداب البريطاني وحتى ما بعد الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧، أصبحت عرضة لإفراغها من مكُون قوتها الأساسية، وهو ملكية الأرض أو التجارة الواسعة. وشريحة صغار الملاك والفلاحين تحولت إلى قوة عمل مأجورة، مع تعرض أجورها المنخفضة تماماً - على الأقل مقارنة بأجور العمالة الإسرائيلية - للنهب بواسطة الضرائب متعددة الأساء، وتعرض كرامتها للإهانة والتحقير بفعل توجيههم نحو أدنى مستويات العمل في سوق العمل الإسرائيلي. أما شريحة صغار العمّال والتجار فقد تحولت إلى كم يعيش على الكفاف بصورة مستمرة.

ثانياً: التطورات السياسية

تجد التطورات السياسية التي شهدتها فترة الدراسة في الأرض

المحتلة إرهاباتها منذ توقيع اتفاقات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ، وبخاصة في ذلك الشق المتعلق بمصير الضفة والقطاع ، فيما عرف بالشق الفلسطيني من الاتفاقات ، والخاص بتنفيذ الحكم الذاتي الإداري بمصطلحه الإسرائيلي . فما إن تم توقيع تلك الاتفاقات ، حتى أدارت سلطات الاحتلال معركة سياسية كبرى في الأرض المحتلة قد يناسبها عنوان «معركة البحث عن بديل سياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية» من أجل تطبيق مخطط كامب ديفيد حول الحكم الذاتي . وقد ولج عقد الثمانينات دون أن تنجح هذه السلطات في العثور على متحدثين ذوي شأن يشتركون في تنفيذ هذا المخطط ، وذلك بسبب مقاومة السكان الشديدة له داخل الأرض المحتلة ومنظمة التحرير الفلسطينية في الخارج . وفي آب / أغسطس ١٩٨١ تسلم أرييل شارون مهمته كوزير للدفاع ، وفور وصوله ، بذل شارون محاولات مستميتة لخلق صلات مع زعامات الأرض المحتلة للحوار حول مشروع الحكم الذاتي . وعقد في سبيل ذلك سلسلة من اللقاءات مع كثير من هذه الزعامات^(٢٦) . وحاول الإيهام بحسن نية الاحتلال من خلال بعض الإجراءات التخفيفية تجاه سكان الضفة والقطاع ، كالسماح لهم بالاجتماعات العامة وإصدار التصريحات السياسية . وتواكب ذلك مع حملة إسرائيلية تحدثت عن سياسة الاحتلال الليبرالي والاحتلال المستنير ، وحملة أخرى قادها شارون نفسه أعلن فيها أن الهدف الأساسي لسياسته سيكون تكثيف الاستيطان في الضفة والقطاع .

لقد أعادت هذه التوجهات إلى الذهن سياسة العصا والحذرة

التي اتبعها موشى دايان بعد عام ١٩٦٧، ولكن شارون أطلق على إجراءاته مفهوم «إعادة تنظيم الحكم العسكري في الأراضي المحتلة»، وصادقت عليها الحكومة الإسرائيلية بالإجماع يوم ١٩٨١/١٠/٤. وبموجب هذه الإجراءات تم استبدال الضباط الذين كانوا يترأسون الدوائر المختصة بالشؤون العامة غير الأمنية بمدنيين إسرائيليين، وتسلم مناحيم ميلسون رئاسة ما سمي بالإدارة المدنية في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨١. وأعلن يوم ١ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٨١ كبدية لتطبيق الإدارة المدنية في الضفة والقطاع. وفي حقيقة الأمر، ظل هذا الإعلان مجرد إعلان من جانب واحد لأن السكان تمسكوا بموقفهم الرفض تماماً لمشروع الحكم الذاتي. وأعلنت كل القيادات المحلية وعلى رأسها قيادات البلديات - التي تعتبر أبرز المؤسسات السياسية الفلسطينية تحت الاحتلال - أن المشروع الإسرائيلي غير قابل للتطبيق في الأرض المحتلة. وتوقف عند تصريح لبسام الشكعة رئيس بلدية نابلس ذكر فيه، إنه «يرحب بالتحفيف من الأعباء عن المواطنين على أنه يأمل أن يعتز شارون سكان الأرض المحتلة كجزء من شعب كامل ذي طابع مميز»^(٢٥).

اعتبر بعض المراقبين الإسرائيليين أن الرفض الفلسطيني للمشروع الإسرائيلي قد تجسد عملياً بالتصدي للعناصر التي أظهرت ميلاً له. إذ اغتيل في الأرض المحتلة منذ توقيع اتفاقات كامب ديفيد وحتى تسلم شارون لوزارة الدفاع ٢٠ شخصاً، بسبب تأييدهم لتلك الاتفاقات. هذا عدا الذين تراجعوا عن

مواقفهم تحت تهديد عناصر المقاومة بالانتقام منهم^(٣٧).

وعموماً، فإنه نظراً لما عرف عن شارون من دموية تجاه الفلسطينيين منذ قيادته للمنطقة الجنوبية (قطاع غزة) في مطلع السبعينات، فإن قلة من الإسرائيليين هم الذين عبروا عن إمكانية نجاح الوجه الشاروني الجديد^(٣٨). ومعنى ذلك أن شعار الاحتلال المستنير الذي تبناه شارون في مقتبل فترة تسلمه وزارة الدفاع، لم يغير مسار الحديث الذي كان سائداً من قبل عن المعركة الخاسرة التي تديرها سلطات الاحتلال من أجل دحر نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية، ووقف المطالبة بدولة فلسطينية مستقلة في الأرض المحتلة^(٣٩).

وقد أيقنت سلطات الاحتلال فشلها في ذلك الحين في قمع النهوض الوطني الفلسطيني والانتفاء الفلسطيني في الداخل لمنظمة التحرير ومشروعاتها السياسية - ذلك الانتفاء الذي تجذّر عبر النضال الفلسطيني الممتد - ولذا راحت تعزو ذلك الرفض لإرهاب المنظمات الفلسطينية في الخارج. وكان شارون ورئيس الوزراء مناحيم بيغن مقتنعين تماماً بهذا الزعم. وبناءً عليه، توصلت القيادة الإسرائيلية إلى أن انصياح الضفة والقطاع يستلزم تدمير منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، لقطع أصابعها وأيديها في الداخل. بمعنى أن الصدام مع المنظمة في الأرض المحتلة يبدأ في لبنان^(٤٠).

وهكذا، غزت إسرائيل لبنان عام ١٩٨٢ وفي ذهنها بين أشياء

أخرى تصفية الإرادة الوطنية في الداخل وتكريس مشروع الحكم الذاتي^(٣٠). وبالفعل عملت إسرائيل على إكمال هجومها على منظمة التحرير في الخارج بهجوم رديف ضد مختلف رموز المنظمة في الأرض المحتلة، مستهدفة بشكل أساسي المجالس البلدية والجامعات، وتعزيز ما عرف بروابط القرى وهي الشكل الذي أنشأته سلطات الاحتلال كبديل سياسي محتمل للمنظمة^(٣١). غير أنه لا الهجوم على بيروت واحتلالها قضى على منظمة التحرير، ولا القمع في الأرض المحتلة أنهى نفوذها السياسي بين السكان.

من جهة أخرى شهدت المرحلة موضع الدراسة طرح مشروعات كثيرة للتسوية قدمتها أطراف إقليمية ودولية. وقد كان من أهم هذه المشروعات المشروع الفرنسي المصري المشترك (تموز/يوليو ١٩٨٢)، ومشروع ريغان الأمريكي (أيلول/سبتمبر ١٩٨٢)، ومشروع قمة فاس العربي (أيلول/سبتمبر ١٩٨٢)، ومشروع بريجنيف (أيلول/سبتمبر ١٩٨٢). ومن الواضح أن عام الغزو الإسرائيلي للبنان ومحاولة تحطيم البنية العسكرية والسياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية قد ازدحم بمشروعات لتسوية الصراع العربي - الإسرائيلي! والتي تعرض معظمها لمستقبل الأرض المحتلة من وجهة نظر مختلفة. فالمشروع المصري الفرنسي الذي عرض على مجلس الأمن - دون أن يتم التصويت عليه بسبب الاعتراض الأمريكي - نادى بالمصادقة على الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني من خلال مفاوضات تشارك فيها منظمة التحرير مع دعوة الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني للاعتراف المتبادل. وقد أشار المشروع إلى

القرار رقم ٢٤٢ الصادر عن الأمم المتحدة كأساس للتفاوض إلى جانب ضمان حقوق الشعب الفلسطيني^(٣٣). وبذا يكون المشروع قد جعل الانسحاب من الأراضي المحتلة أحد عناصر التسوية الشاملة لقضية فلسطين.

أما مشروع الرئيس الأميركي رونالد ريغان الذي أعلنه يوم ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ فقد أشار إلى أن القضية الفلسطينية هي أكثر من قضية لاجئين، ولكنه عاد إلى طرح مشروع الحكم الذاتي، كما ورد في إطار كامب ديفيد لعام ١٩٧٨، كفترة انتقالية يتمتع فيها السكان الفلسطينيون في الضفة والقطاع بحكم ذاتي كامل لشؤونهم الخاصة وذلك لمدة خمس سنوات. وهدف الفترة الانتقالية، التي ستبدأ بعد إجراء انتخابات حرة لاختيار سلطة فلسطينية للحكم الذاتي، هو إثبات كون الفلسطينيين قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم، وكون مثل هذا الحكم الذاتي لا يشكل تهديداً لأمن إسرائيل. وقد نادى المشروع بتجميد إسرائيل لبناء المستوطنات، ولكنه رفض مبدأ إقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة والقطاع بمثل ما رفض مبدأ ضم إسرائيل لهاتين المنطقتين. وعوضاً عن ذلك طرح المشروع الأميركي تصوراً يتمثل في إقامة حكم ذاتي من جانب الفلسطينيين للضفة والقطاع مرتبطاً بالأردن وذلك كسبيل لتحقيق السلام الدائم. كذلك نادى المشروع بضرورة بقاء القدس غير مجزأة وخضوع وضعها النهائي للتفاوض^(٣٣).

ومن جانبهم، طرح العرب تصوراً جماعياً للتسوية أعلن عنه

مؤتمر القمة العربي الثاني عشر في مدينة فاس في المغرب، وقد طالب هذا التصور بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ بما فيها القدس العربية، وإزالة المستعمرات التي أقامتها إسرائيل في تلك الأراضي وتأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية وإخضاع الضفة والقطاع لفترة انتقالية تحت إشراف الأمم المتحدة لمدة لا تزيد على بضعة أشهر، على أن يلي ذلك قيام الدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس، وبضمان مجلس الأمن. كما أكد مؤتمر فاس على حق جميع دول المنطقة في السلام^(٣٦). ومعنى ذلك أن القمة العربية قد ارتضت ضمناً الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود مقابل انسحابها من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ وقيام الدولة الفلسطينية المستقلة في الجزء الفلسطيني من تلك الأراضي (الضفة والقطاع).

وقد جاءت مقترحات الزعيم السوفياتي بريجنيف في ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ قريبة من المشروع الفرنسي المصري المشترك والمشروع العربي في فاس. إذ تضمن ذلك الطرح ضرورة الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة، وضرورة قيام الدولة الفلسطينية المستقلة في الضفة والقطاع والقدس الشرقية، واحترام سيادة جميع دول المنطقة (بما فيها إسرائيل والدولة الفلسطينية)^(٣٧).

لقد بقيت هذه المشروعات جميعاً دون فاعلية تذكر بالنسبة لسكان الأرض المحتلة، وذلك بفعل الرفض الإسرائيلي المطلق

لكل منها على التوالي، والتمسك الإسرائيلي بصيغة الحكم الذاتي كما وردت في اتفاقات كامب ديفيد.

لقد ظل الخيار المطروح على الصعيد الإسرائيلي هو الحكم الذاتي. ثم تفاقم العسف الإسرائيلي نتيجة صعود حركات الارهاب الصهيونية وتفشيها في المجتمع الإسرائيلي، فأشيعت أفكار عن ضرورة تحريك إسرائيل خطوة أخرى نحو الشرق ونقل (طرد) العرب من القطاع الغربي من أرض إسرائيل نحو قطاعها الشرقي وإقامة وطن لهم هناك! وهذا الطرح مثل أحد المفاهيم الإسرائيلية لما عرف بالخيار الأردني^(٣٧). كذلك طرح الفكر الإسرائيلي أفكاراً أخرى مثل إقامة حكم مشترك في الضفة وغزة في إطار سيادة أردنية إسرائيلية مشتركة، وهناك من وسّع هذا الحل ليشمل عرب ١٩٤٨ أيضاً^(٣٨). وكان آخر ما تداولته المصادر الإسرائيلية حول مصير الأراضي المحتلة في منتصف الثمانينات وقبيل اندلاع الانتفاضة الكبرى في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧، ما عرف بالتوجه الإسرائيلي - الأمريكي الغربي لتحسين نوعية معيشة الفلسطينيين تحت الاحتلال، والعودة في الوقت نفسه إلى المحاولة القديمة المتجددة دوماً لإبراز قيادات من الأرض المحتلة تقبل بالحوار مع إسرائيل حول مستقبل هذه الأراضي بمعزل عن أي تأثير لمنظمة التحرير^(٣٩). كل ذلك وعمليات الدمج والاستيطان الزاحف واللاحق الاقتصادي ومحو الهوية الفلسطينية للضفة والقطاع تجري على قدم وساق.

ثالثاً: أزمة المقاومة في الأرض المحتلة

فجّر خروج القوات الفلسطينية من الأراضي اللبنانية عام ١٩٨٢ جدلاً ونقاشاً واسعاً حول كيفية تطوير آليات المقاومة في الأرض المحتلة في ظلّ ظروف مستجدة بالغة التعقيد، علاوة على أنها كانت ظروفًا معقدة أصلاً. وفي حقيقة الأمر، يعود هذا الجدل إلى ما قبل عام ١٩٨٢. فمن بين القضايا التي أثّرت منذ منتصف السبعينات وألحت في مطلع الثمانينات أمام مختلف القوى السياسية وفصائل المقاومة الفلسطينية والمهتمين بقضايا النضال الفلسطيني بعامة ما يلي:

١ - كيف يمكن التوفيق عملياً بين مهام النضال في داخل الأرض المحتلة وخارجها. الداخل تواجهه ولا شك مشكلات لها خصائصها وملاحظاتها المميزة، فهل يمتلك التنظيم في الداخل - أي تنظيم فدائي - إمكانية رسم مهامه النضالية في إطار السياسة العامة للمقاومة، أم ينبغي أن تنبع المهام من الظروف المحيطة به؟

٢ - هل ترغب تنظيمات المقاومة في وجود جبهة وطنية جامعة توجه مجمل النضال الوطني في الأرض المحتلة، وتأخذ بعين الاعتبار ظروفها وأوضاعها واستعداد الجماهير وقيود العدو وأوضاعه... أم تريد التنظيمات إحياء جبهة وطنية تكون مجرد أداة لتنفيذ التعليمات من الخارج؟ وقد ثار النقاش حول هذا الجانب بمناسبة حدوث شبه فراغ قيادي سياسي عام في الأرض المحتلة بعد أن وجهت سلطات الاحتلال ضربات متتالية للجبهة

الوطنية التي أنشئت في الضفة والقطاع بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، وبعد أن لاحقت السلطات أيضاً لجنة التوجيه الوطني (أو لجنة الارشاد) التي أعلنت هناك لمناهضة اتفاقات كامب ديفيد، ومقاومة مشروع الحكم الذاتي منذ عام ١٩٧٨. ولذلك برزت مخاطر عدم وجود قيادة موحدة في الداخل منذ مطلع الثمانينات، من حيث أن هذا الوضع كان يثير علامات استفهام أمام مخاطر مشروع الحكم الذاتي التي كانت لا تزال ماثلة.

٣ - إن أشكال النضال العفوي غير المنتظم أو المنظم من قبل جماهير الأرض المحتلة، التي بدأت تتصاعد وتيرتها منذ منتصف السبعينات، تعبر من جانب عن نضج ثوري بالغ الأهمية، ولكنها من جانب آخر تنطوي على محاذير كثيرة لممارسيها. فالمتنمون إلى تنظيم بعينه يعملون بقدر من الطمأنينة على مصيرهم ومصير من يعولون. لكن من يسهر على رعاية أطفال أو شباب يواجهون المحتلين دون الانتفاء إلى أي فصيل فدائي أو تنظيم قائم في حال تعرضهم للاعتقال أو الاستشهاد أو هدم المنازل أو التشريد بالطرد والإبعاد؟ إن هذه الشريحة من المناضلين التي أخذت في الاتساع هي بحاجة إلى من يرعاها ويرعى نضالها، وهذه مهمة يمكن أن تضطلع بها قيادة في الداخل تكون أقرب إلى الأرض وما يدور عليها.

٤ - كان من الملاحظ أن لفصائل الثورة في الخارج

مشكلاتها العلائقية مع بعضها البعض أو بين بعضها والمحيط العربي، بل ربما كان هناك مشكلات تعتمل داخل بعض الفصائل أيضاً، وأن أشكالاً من الخلاف موجودة بين القوى السياسية في الأرض المحتلة. غير أن مشكلات الداخل تدار بصورة أكثر ديمقراطية وعقلانية. ويعود السبب في ذلك إلى أن مزاج حركة الجماهير في الداخل مزاج ضاغط ومؤثر. فهذه الحركة تمكنت من عزل كل من خرج على الاجماع الوطني، وهي لا تسامو أو تقبل بأنصاف الحلول أو بالصيغ التوفيقية (وأحياناً التليفية) التي تلجأ إليها الفصائل في الخارج في بعض الأحيان. بعبارة أخرى كانت قوى الداخل تركز على ما هو موضع اهتمام رئيسي وفاعل وتتجنب ما هو ثانوي. وهذه الظاهرة كانت لافتة بين فصائل الخارج على المستويين الفكري والتنظيمي. إذ هل يعقل أن يصدر الخارج مشكلات إلى الداخل بينما ترتقي قوى الداخل فوق المشكلات رغم شواغلها في المواجهة اليومية والأخطار والمخاطر التي تحيط بها؟

٥ - لقد اتسعت الأطر المؤسسية الجماهيرية وأنشطتها في الأرض المحتلة كالإتحادات الطلابية والمجالس الجامعية والنقابات المهنية والعمالية والحركات النسائية، وثبت أنها تمثل أعمدة للحفاظ على الهوية الفلسطينية وتحمل واجهة النضالات... وهذا ما أثار التساؤل عن الكيفية التي يمكن بها تطوير هذه الأطر لرفع كفاءتها التنظيمية، ودفع الجماهير للانخراط في صفوفها والالتفاف حولها وتفعيل دورها النضالي عموماً. وذلك في ظلّ قوانين جائرة

تصدرها سلطات الاحتلال تبعاً بغرض الحد من مأسسة النشاط الجماهيري في الأرض المحتلة.

٦ - دخل عقد الثمانينات وقد بلغت المقاومة المسلحة في الأرض المحتلة حداً من الضعف. فقد غلب عليها جمود روح الابتكار والتنوع على مستوى الكيف، وضمّرت إلى درك سىء على مستوى الكم، مما أثار الحاجة إلى نقلة نوعية من حالات المقاومة الفردية والعفوية إلى عمل زخم تكون قاعدته أوسع الجماهير، وضرورة تطوير الأشكال التنظيمية. وقد أثر على سبيل المثال، أنه ليس مقبولاً أن تسقط كل العناصر المتعلقة بعملية عسكرية معينة في حال القبض على أحد مرتكبيها. كما أن إجراء مقارنة عابرة من الناحية الكمية بين عدد العمليات الفدائية في سنوات الاحتلال الأولى وعددها في أواخر السبعينات ومطلع الثمانينات، كان يبين إلى أيّ حد انكمش العمل الفدائي. وفي هذا السياق برزت مشكلتا التسليح والتغلب على العوائق التي وضعتها سلطات الاحتلال، كأهم المشكلات التي ينبغي العناية بها إذا أريد للعمل الفدائي أن يزدهر مرة أخرى. وتحركت الآراء الناقدة للجهد المسلح على قاعدة أن هذا الجهد لم يعد يواكب النشاط السياسي للتنظيمات المسلحة. بل إن من التنظيمات من غاب عنه البعد العسكري داخل الأرض المحتلة تماماً، مقابل انشغالات بالأنشطة السياسية غير المجدية في مسار النضال ضد احتلال لن يتزحزح عن الأرض بمجرد الحذقة السياسية^(٣٧).

على هذا النحو، يمكن القول إن أهم الحوارات والمناقشات

كانت تدور حول جانبين: الأول، كيف يمكن إيجاد قيادة موحدة للعمل النضالي في الداخل تتنظم في إطارها مختلف القوى السياسية الفاعلة، وتراعي العمل ضمن الظروف الحاكمة لنشاط المقاومة تحت الاحتلال، وفي الوقت عينه تكون موصولة بحبل متين مع القيادة الأم في الخارج. والثاني، هو سبل الارتقاء بأسباب المقاومة المسلحة وتفعيلها كفاءاً وكماً.

وبالفعل، اتجهت نوايا بعض الفصائل نحو العمل على إنشاء مكتب الأرض المحتلة بحيث يضم ممثلين عن مختلف الفصائل، وتلحق به غرفة عمل سياسية وأخرى عسكرية، يتولى عبء التنسيق وإصدار التوجيهات السياسية والبت بشأن تحالفات وتحركات الداخل من الناحية السياسية في مختلف أوجه النضال (كالانتخابات النيابية والطلابية ومسار التصريجات السياسية...). وعقدت لقاءات بين حركة فتح والجهة الشعبية لتحرير فلسطين والجهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في سبيل إنجاز هذا المكتب. كذلك ذكرت مصادر إسرائيلية أن منظمة التحرير بادرت في مستهل عام ١٩٨٢ بتشكيل جسم سياسي وطني في الأراضي المحتلة ليحل محل لجنة التوجيه الوطني التي قامت سلطات الاحتلال بإبعاد قسم من أعضائها وفرض الإقامة الجبرية على القسم الآخر منها. وأن هذا الجسم الجديد سيحمل اسم «الجهة الوطنية الفلسطينية» وسوف يتوزع أعضاؤها بنسب مماثلة لتوزيع أعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة، وأن أبو جهاد (خليل الوزير) سيشرف على أنشطتها^(١١). غير أنه لا يبدو أن مكتب

الأرض المحتلة قد رأى النور، ولم يذكر المزيد عن «الجهة الفلسطينية الجديدة»، حتى حدث الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ بكل ما ترتب عليه من نتائج.

لقد أضافت نتائج الغزو أعباءً جديدة، وأحيت من جديد النقاش حول واقع المقاومة في الأرض المحتلة في ضوء تبعثر وتشتت الجسم العسكري الفلسطيني في البلدان العربية، بعيداً جداً عن حدود الأرض المحتلة. فبدأت عملية مراجعة شاملة تبلورت نتائجها فلسطينياً حول مطلب دعم المقاومة في الداخل كشرط لازم لاستكمال العمل الدبلوماسي الذي انخرطت فيه منظمة التحرير في الخارج. وعاد البعض للمطالبة بتشكيل قيادة جماعية داخل الأرض المحتلة لأن السبل قد سدّت أمام الشعب الفلسطيني للقيام بعمل فدائي مجدى من الخارج مثلما كان تقليدياً، وحينما أثير الحديث عن صعوبة توسيع آفاق الاتصال بالأرض المحتلة، أشار البعض إلى أن المقاومة الفلسطينية قد بدأت تاريخياً وسط أجواء وظروف أصعب من التي يمر بها الشعب الفلسطيني عام ١٩٨٢ وما تلاه. وأنه من الممكن التغلب على الرقابة الإسرائيلية الصارمة في الأرض المحتلة، لأن هذه الرقابة الإسرائيلية (والعربية في الخارج) كانت دوماً موجودة. وأنه بالإمكان الاعتماد تماماً على الحس النضالي العالي لدى أبناء الأرض المحتلة^(١).

وقد تركزت الدعوات الصادقة لتصعيد المقاومة في الأرض

المحتلة بعد عام ١٩٨٢ حول أهمية تجميع الخبرة المختزنة لتجربة النضال الفلسطيني ومراجعتها لتخليصها مما علق بها عبر السنين . كما ظهرت موجة عامة من النقد الذاتي تمحورت حول الآثار الناجمة عن الحالات الاستعراضية والعلنية التي أنجرت إليها قوى الثورة الفلسطينية . وتعالّت أصوات داعية إلى العودة إلى العمل السريّ مستذكرة الأيام الأولى لانبلاج هذه الثورة في منتصف الستينات ، وتنبه إلى مخاطر الأسلوب المظهري والدبلوماسي على حساب الكفاح . ورأى الكثيرون أن التوجه نحو تجديد شباب الثورة هو بالفعل ليس عملاً هيناً ويقتضي جهداً كبيراً لإعادة التركيز على إقامة مناطق تكون قواعد للمقاومة في الداخل ضماناً للعمل بمعزل عن العوامل الخارجية المؤثرة ، والسلبية في معظمها^(٧) . ومع ذلك فإن الأمر يتطلب سرعة العمل على تصعيد المقاومة السياسية والعسكرية في الأرض المحتلة ولو بتضحيات كبيرة . ومن مسلسل النقد والنقد الذاتي الذي توالى حلقاته منذ خروج المقاومة الفلسطينية من الأراضي اللبنانية ، ما رآته بعض الأصوات القومية من أن منظمات المقاومة الفلسطينية المسلحة وعلى رأسها فتح ، رغم كل المد الشعبي العربي ، لم تستطع أن تخرج من إसार أزمة انطلاقها الإقليمية وشعار «مسؤولية شعب فلسطين في تحرير أرضه مع مساندة الشعب العربي» ، وهو ما قاد إلى المطالبة بهوية فلسطينية مستقلة ، ليس فقط في مواجهة الكيان الصهيوني فحسب ، وإنما كذلك في مواجهة البلدان والأحزاب والقوى والجماهير العربية . إن هذا النهج ، بنظر هذه الأصوات ، أضعف

المقاومة الفلسطينية وأوقعها فريسة ضغوط كثيرة وجعلها تصطدم «منفردة» بالتيارات الشعبية العربية، وليس فقط بضغوط النظم العربية. وفي مقابل ذلك رأى هؤلاء، ان الطريق التي وصلتها المقاومة الفلسطينية في مطلع الثمانينات، وبعد الغزو الإسرائيلي للبنان، لا يمكن فتحها دون التخلص من العقلية الإقليمية التي تسيطر على كثير من قياداتها، ودون الانصياع إلى واقع طبيعة الصراع على أرض فلسطين ومن حولها كصراع عربي - صهيوني، لا تمثل فلسطين سوى نقطة ارتكاز فيه ليس إلا^(١٧).

واضح والحال كذلك، أن أزمة المقاومة في الأرض المحتلة في هذه الفترة مثلت جزءاً من أزمة أكثر اتساعاً وأعمق غوراً، وهي أزمة تعلقت بمسار السياسة الفلسطينية عموماً في مرحلة انحسار المد القومي العربي من حولها. ومع ذلك فإنه خلال الجدل المحتدم والبحث عن السبل البديلة في إطار الواقع المتغير من حول القضية الفلسطينية بخاصة خارج الأرض المحتلة، كانت الأرض المحتلة تشهد تفاعلات كثيرة قادت في نهاية هذه المرحلة إلى تغيير معادلات كثيرة.

هوامش الفصل الأول

- (١) إبراهيم الدفاق، «نحو برنامج تنموي من أجل الصمود في الأرض المحتلة»، ورقة قُدمت إلى: جمعية الملتقى الفكري العربي، مؤتمر التنمية من أجل الصمود، القدس، ١٩٨١.
- (٢) يوسف أبو سمرة، «الآثار النفسية والاجتماعية للانتفاضة داخل المجتمع الإسرائيلي»، السياسة الدولية، السنة ٢٥، العدد ٩٦ (نيسان/ابريل ١٩٨٩)، ص ١٤٣ - ١٤٤.
- (٣) راتب محمد بدوي، «الأوضاع الثقافية والاجتماعية والصحية والاقتصادية لسكان قطاع غزة»، شؤون عربية، العدد ٥٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧)، ص ٦٥.
- (٤) منظمة التحرير الفلسطينية، المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم، وثائق دورة المجلس، ١١، أيار/مايو ١٩٨٣ والدورة ١٤، شباط/فراير ١٩٨٩، ومحمد خالد الأزعر، «الفلسطينيون في مصر بين الحاضر والمستقبل»، في: الفلسطينيون العرب في مصر العربية: بحوث ودراسات، المشاركون نادرة السراج [وآخرون]؛ تقديم أحمد صدقي الدجاني (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٦).
- (٥) انظر موجز الوقائع الفلسطينية في أعداد: شؤون فلسطينية (أيلول/سبتمبر ١٩٨٥ - أيلول/سبتمبر ١٩٨٦).
- (٦) للمزيد من التفاصيل، انظر: منظمة التحرير الفلسطينية، المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم، وثائق دورة المجلس، ١٢، عتّان، ٧-٨ تموز/يوليو ١٩٨٤، التي خصصت أعمالها لموضوع التعليم في الوطن المحتل؛ أحمد يوسف أحمد، «الانتفاضة الفلسطينية: الميلاد، الإنجاز، المستقبل»، المستقبل العربي، السنة ١٢، العدد ١٢٦ (آب/أغسطس ١٩٨٩)، ص ٧، وعبداد عبد الرحيم، «التعليم الفلسطيني: المشكلات والحلول»، ورقة قُدمت إلى: القضية الفلسطينية في أربعين عاماً بين ضراوة الواقع... وطموحات المستقبل: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها جمعية الخريجين في الكويت (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩)، ص ٢٠٥ - ٢٢٩. انظر أيضاً:

Lee O'Brien, «Palestinian Universities under Occupation, 15 May - 1 August 1988», *Journal of Palestine Studies*, vol.18, no. 1 (69) (Autum 1988), pp. 191 - 213.

(٧) براد بيت، «نماذج عالمية من حركات اللاعنف»، في: المقاومة المدنية في نضال السياسي، تحرير سعد الدين إبراهيم (عُمان: منتدى الفكر العربي، ١٩٨٨)، ص ٣٨

(٨) مصطفى كامل السيد، «سياسة الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية»، في: بيد الوهاب المسيري [وآخرون]، المشروع الصهيوني في الفكر والتطبيق (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٣)، ص ١٧٢ - ١٨٨؛ صري حريس، «حول نتائج انتخابات الكيست الحادي عشر»، شؤون فلسطينية، العددان ١٣٨ - ١٣٩، أيلول/سبتمبر - تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٤، ص ١٧، علاء سالم، «الانتخابات لبرلمانية الإسرائيلية»، السياسة الدولية، السنة ٢٥، العدد ٩٥ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٤)، ص ١٧٤، ونتان زهافي، «شعار حركة موليدت إمان نحن أو هم»، في: تقرير الأسبوعي عن مناقشات الكيست والأحزاب في إسرائيل (دار الجليل، عُمان، ١٩٨٨/٩/٢).

(٩) الأمم المتحدة، تقرير عن أعمال اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تمسّ حقوق الإنسان لسكان الأراضي المحتلة (نيويورك: الأمم المتحدة، ١٩٨٦)

(١٠) انظر على سبيل المثال: عبد الوهاب المسيري، الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسة في الكرامة والادراك (القاهرة: المطبعة الفنية، ١٩٨٩)، ص ٥٨ - ٦٢؛ اسحق دوتيش، «المشكلة السكانية وعام ٢٠٠٠»، تقرير دار الجليل للنشر رقم (٣٠٩٦)، عُمان، ١٩٨٧/٤/٢٥، نقلاً عن صحيفة: هاتسوفيه، ١٩٨٧/٩/٢٣؛ اليشع أفرات، «الخطر السكاني»، تقرير دار الجليل للنشر رقم (٣١٨٤)، عُمان، ١٩٨٧/١١/١٤، وأرنون سوفير، «الشیطان الديمغرافي في نهاية الحكم الصهيوني»، تقرير دار الجليل للنشر رقم (٣٣٣١)، عُمان، ١٩٨٨/١٠/٢٩.

(١١) من أهم المؤرخين الصهاينة الذين اهتموا بهذا الجانب، يهوشع براور، وله دراسات متعددة في هذا الإطار. أنظر منها: يهوشع براور، «المنطقة الإستراتيجية السياسية في النظرية الأمنية الصليبية»، في: زئيفي رحبعام [وآخرون]، العمق

الاستراتيجي في الحروب الحديثة . ندوة إسرائيلية، ترجمة بدر عقيلي، سلسلة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية في دائرة الضوء، ٣ (عَيَّان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، ١٩٨٧)، ص ٢٠ - ٣٦، وقاسم عبده قاسم، رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٣).

(١٢) محمد كاظم مهاجر، «مكونات السياسة السكانية للعرب الفلسطينيين في الأراضي المحتلة»، ورقة قُدمت إلى: ندوة الخصائص الديمغرافية للشعب الفلسطيني (بيروت: دار النضال، ١٩٨٥)، ص ١١٥.

(١٣) موسى سمحة، «التغيرات السكانية في فلسطين»، ورقة قُدمت إلى: المصدر نفسه، ص ٣٩٧. والإحصاءات مأخوذة عن:

Central Bureau of Statistics, *Statistical Abstract of Israel, 1987* (Jerusalem: The Bureau, 1987), p 608,

انظر أيضاً: زياد أبو عمرو، «اقتصاد قطاع غزة، ١٩٤٨ - ١٩٨٤»، ورقة قُدمت إلى: الاقتصاد الفلسطيني: تحديات التنمية في ظل احتلال مديد، ندوة، تحرير جورج العبد (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩)، ص ١٠٧ والإحصائية الخاصة بسكان الضفة تشمل على سكان القدس الشرقية.

(١٤) اسطر التفاصيل في: محمد خالد الأزهرى، «النموذج الصهيوني لإدارة الصراع السكاني»، شؤون فلسطينية، العدد ١٩٦ (تموز/يوليو ١٩٨٩)، ص ٣١.

٥١

(١٥) انظر. نظام محمود بركات، الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق، سلسلة الثقافة القومية؛ ١٥ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨). وحول وقائع تزوير وثائق تدّعي بيع الملاك الفلسطينيين لأراضيهم، انظر. هآرتس، ١٩٨٥/٨/٢١، و١٩٨٥/٩/٢٤؛ دافار: ١٩٨٥/٨/١٣، ويسديموت أحرونوت، ١٩٨٥/٨/١٢؛ ١٩٨٥/٨/١٤. و١٩٨٥/٨/١٧.

(١٦) حسن عبد القادر صالح، «حرب المياه بين العرب وإسرائيل»، شؤون عربية، العدد ٥٥ (أيلول/سبتمبر ١٩٨٨)، ص ٥٥ - ٦٨، وغازي اسماعيل ربابعة «سياسة إسرائيل المائية في الضفة الغربية»، شؤون عربية، العدد ٥٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧)، ص ١٧٠ - ١٧٥.

(١٧) الكونغرس الأميركي، مركز الأبحاث، قسم الدفاع الوطني والشؤون الخارجية، معذ، اقتصاد الضفة والقطاع: مشاكل وآفاق، دراسات استراتيجية؛ ١٨، دراسات في مشاريع الكيان الفلسطيني؛ ١ (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، [د. ت.]، ص ١٧.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٧ و ٢٤.

(١٩) عاطف علاونة، «آثار الانتفاضة الاقتصادية على الاقتصاد الفلسطيني والاقتصاد الإسرائيلي»، «السياسة الدولية، السنة ٢٥، العدد ٩٨ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩)، ص ٥٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٦٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٢٢) للمزيد من التفاصيل، انظر: مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، «التطورات الاقتصادية الأخيرة في الأراضي المحتلة»، الدورة ٣٣، أيلول/سبتمبر ١٩٨٥، تقرير ثانٍ حول الموضوع نفسه، أيلول/سبتمبر ١٩٨٦؛ علاونة، المصدر نفسه، ص ٦٠ - ٦٣. انظر أيضاً تفصيلات كثيرة حول الواقع الاقتصادي للأراضي المحتلة في الاقتصاد الفلسطيني: تحديات التنمية في ظل احتلال مديد.

(٢٣) تردّد هذا الزعم الإسرائيلي منذ وقت مبكر. انظر كمثال: بمحانيه (مجلة الجيش الإسرائيلي)، (٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٧١)، ودافار، ٢٨/١٢/١٩٧٢.

(٢٤) دافار، ١٧/١٠/١٩٨١، وعال همشيار، ١٦/١٠/١٩٨١.

(٢٥) هآرتس، ١٤/٨/١٩٨١.

(٢٦) رصد إذاعة إسرائيل (١٣ - ١٤ آب/أغسطس ١٩٨١).

(٢٧) أنظر: يديعوت أحرونوت، ١٨/٨/١٩٨١، هآرتس، ١٤/٨/١٩٨١،

رصد إذاعة إسرائيل (١٣ - ١٤ آب/أغسطس ١٩٨١)، و

Jerusalem Post, 15/8/1981.

(٢٨) عال همشيار، ٢٠/٧/١٩٨١.

(٢٩) جورج بال، خطأ وخيانة في لبنان. تحليل لمضامين العلاقات الأميركية الإسرائيلية، نقله إلى العربية عفيف تلحوق؛ قدّم له ستانلي هوفمن (بيروت: الدار العالمية للنشر، ١٩٨٧)، ص ٣٠ - ٣١.

- (٣٠) ذكر شارون ذلك صراحة في مقال له في صحيفة الميرالد تريبيون . انظر: السفير، ١٩٨٢/٩/٢ .
- (٣١) حول الوضع الاقتصادي للأراضي المحتلة، انظر: الاقتصاد الفلسطيني: تحديات التنمية في ظل احتلال مديد، وصبري جريس، «ملاحم لمرحلة جديدة»، «شؤون فلسطينية»، الأعداد ١٢٩ - ١٣١ (آب/أغسطس - تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٢)، ص ١٨ - ٣٧ .
- (٣٢) «المشروع الفرسى - المصري المشترك والمقدم أمام مجلس الأمن، ٢ تموز/يوليو ١٩٨٢»، «شؤون عربية»، العدد ٢٩ (تموز/يوليو ١٩٨٣)، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .
- (٣٣) «مبادرة ريفان، ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢»، «شؤون عربية»، العدد ٢٩ (تموز/يوليو ١٩٨٣)، ص ٢٣٢ - ٢٣٦ .
- (٣٤) «قمة فاس، ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢»، «شؤون عربية»، العدد ٢٩ (تموز/يوليو ١٩٨٣)، ص ٢٣٦ .
- (٣٥) «مقترحات الرئيس برحنيف حول التسوية في الشرق الأوسط»، «شؤون عربية»، العدد ٢٩ (تموز/يوليو ١٩٨٣)، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .
- (٣٦) حول تطور مفهوم الخيار الأردني، انظر: محمد خالد الأهرى، «القضية الفلسطينية وتطور مفهوم الخيار الأردني»، «شؤون فلسطينية»، العدد ١٨٩ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٨) .
- (٣٧) محس عوص، الإستراتيجية الإسرائيلية لتطبيع العلاقات مع البلاد العربية، سلسلة الثقافة القومية؛ ١٦ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨)، ص ٢٧ - ٢٨ .
- (٣٨) المصدر نفسه، ص ١٠٧ - ١٢٩ .
- (٣٩) للمزيد من التفاصيل حول تقويم واقع المقاومة في الأرض المحتلة في مطلع الثمانينات، انظر: «ندوة قضايا البضال الوطني في الضفة الغربية وقطاع غزة»، «شؤون فلسطينية»، العدد ١١٨ (أيلول/سبتمبر ١٩٨١)، والعدد ١١٩ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١) .
- (٤٠) صحيفة الشعب (الأردن)، ١٩٨٢/٢/٢١ .

(٤١) كمثال لهذا الرأي، انظر: مصطفى كامل السيد، «البدايل المتاحة أمام المقاومة الفلسطينية في الوقت الحاضر»، في: عبد النعم المشاط [وآخرون]، الأبعاد الإقليمية والدولية للقضية الفلسطينية في الوقت الراهن (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٣)، ص ١١١ - ١١٥.

(٤٢) صبري جريس، «عشرون عاماً من الكفاح المسلح . نحو نظام فلسطيني جديد،» شؤون فلسطينية، العددان ١٤٢ - ١٤٣ (كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير ١٩٨٥)، ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٧، المشرف ورئيس التحرير السيد يسين (القاهرة: المركز، ١٩٨٨)، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٤٣) كمثال لهذا التصور، انظر: طلال الخالدي، المقاومة الفلسطينية: نظرة إلى الماضي ونظرة إلى المستقبل ([د.م.: د.ن.]، ١٩٨٥).

الفصل الثاني

بين المقاومة المدنية والمقاومة المسلحة

أولاً: المقاومة المدنية

سبقَت الإشارة إلى أن إسرائيل كانت تغزو لبنان وتسعى إلى تدمير البنية المؤسساتية العسكرية والسياسية لمنظمة التحرير، ونصب عينيها خلق البديل السياسي للمنظمة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وفك الارتباط بين سكان هاتين المنطقتين ومنظمة التحرير وفلسطيني الخارج، من ناحية أخرى. لذلك، تعرضت القوى الوطنية في الداخل، وبخاصة تلك التي يظن إرتباطها بالمنظمة، لهجمة موازية للهجوم على المنظمة في الخارج. ففرضت الإقامة الجبرية على معظم رؤساء البلديات المنتخبين عام ١٩٧٦ (والمقالين بعد ذلك) وبقية رؤساء البلديات وأعضاء المجالس البلدية والرموز الوطنية، لمنعهم من القيام بأي نشاط سياسي^(١). وعلى الفور أعلنت غالبية المجالس البلدية والقروية تعليق أعمالها، وصرح أعضاؤها بأن الخطوات الإسرائيلية تأتي مترافقة مع ما

يحدث في لبنان من محاولة لتحطيم منظمة التحرير الفلسطينية.

لقد كانت القوى الوطنية على وعي شديد بأن ما يحدث في لبنان ما هو إلا امتداد لما يجري في الأرض المحتلة. وتميز استنكار هذه القوى للأحداث والوقائع التي أثارها إسرائيل إبان الغزو، داخل الأرض المحتلة وخارجها، بالالتزام بشرعية تمثيل منظمة التحرير وخطها السياسي. وقد أصدرت القوى والهيئات الوطنية في الضفة والقطاع عدداً من البيانات التي وجهت إلى الداخل، أو إلى الرأي العام العربي، أو إلى الرأي العام العالمي والمحافل الدولية. وتقدم هذه البيانات مادة غنية عن المواقف النضالية للقوى الوطنية في الأرض المحتلة، كما تفصح عن تبلور مواقف سياسية تجاه ما يجري حولها.

ففي ١٠ حزيران/يونيو ١٩٨٢، أي غداة بداية الغزو الإسرائيلي للبنان مباشرة، أصدر رؤساء بلديات الضفة والقطاع بياناً موجهاً إلى الجماهير الفلسطينية في الداخل^(٣)، جاء فيه أن رؤساء البلديات في الضفة الغربية وقطاع غزة يستنكرون الحملة الإسرائيلية ضد إخواننا الفلسطينيين في الجنوب اللبناني، التي تستهدف تصفية منظمة التحرير الفلسطينية تمهيداً لتمرير الحلول التصفوية، ويدينون الصمت العربي، ويطالبون كافة الأشقاء العرب بالقيام بالالتزام القومي والوطني تجاه الشعب الفلسطيني، ويناشدون كافة القوى المحبة للسلام في العالم العمل على وقف ما يرتكب ضد شعبنا، ويؤكدون أن منظمة التحرير الفلسطينية

ستبقى الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، تقوده لتحقيق تطلعاته الوطنية في التحرير وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة^(٣).

وفي بيان ثانٍ أصدرته البلديات في ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٨٢، بعد استكمال حصار بيروت من جانب القوات الإسرائيلية، تم التأكيد على المعاني التي أوردتها البيان السابق. ولكن هذا البيان أشار بالسلب إلى الموقف العربي الرسمي، بسبب «الامتناع عن تقديم يد العون للجماهير الشعب الفلسطيني واللبناني». كما أشار هذا البيان إلى الموقف الأمريكي شاجباً إياه نظراً إلى «تآمره على الشعب الفلسطيني وعلى حقه في تقرير مصيره وإقامة دولته الوطنية المستقلة على تراب وطنه»^(٤).

ولعل البيان الصادر في ٥ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ هو الأكثر إيضاحاً لموقف القوى الوطنية في الأرض المحتلة، تجاه الوقائع التي تلاحقت في ذلك الحين^(٥). فقد صدر ذلك البيان باسم كافة الهيئات الوطنية في الضفة والقطاع، وتواكب مع انتهاء خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت، وقيام الرئيس الأمريكي رونالد ريغان بطرح مشروعه الخاص بتسوية قضية الصراع العربي-الإسرائيلي (الشرق الأوسط في المفهوم الأمريكي). وبعد أن وجه البيان تحية خاصة إلى السياسة التي اتبعتها منظمة التحرير الفلسطينية خلال أحداث لبنان، أشار مرة أخرى إلى سلبية المواقف العربية، وإلى صحة الموقف الذي أعلنه مؤتمر القمة العربي في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٨، الرافض لاتفاقات كامب

ديفيد؛ كما أعلن رفضه لما تضمنته مبادرة ريغان. وأهم من هذه المواقف التي أعلن عنها البيان، والتي تتضمن تحديد رؤية القوى الوطنية في الأرض المحتلة للدور العربي وللموقف الأمريكي ودور منظمة التحرير الفلسطينية، أعلن الموقعون على البيان خمس نقاط أساسية حددوا فيها، باستثناء الموقف من المبادرة الأمريكية الجديدة، المطالب الوطنية الفلسطينية التقليدية. فقد تضمنت النقاط الحديث عن وحدة الشعب الفلسطيني داخل الأرض المحتلة وخارجها، تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد لهذا الشعب. وأكدت على أن حقوق الشعب الفلسطيني الثابتة ليست موضع مساومة، وأن الشعب الفلسطيني يرفض الاحتلال الإسرائيلي وجميع افرازاته الاستيطانية وإداراته المدنية. ويرفض، كذلك، محاولات احتواء منظمة التحرير، ويؤكد على ضرورة استقلال القرار الفلسطيني، وأن مشروع الرئيس ريغان يهدف الى جني ثمار العدوان الإسرائيلي على لبنان ومنظمة التحرير، وهو لا يلي تطلعات الشعب الفلسطيني، ويصر على التمسك باتفاقات كامب ديفيد المرفوضة فلسطينياً.

وفي السياق ذاته وجهت المؤسسات الوطنية في الأرض المحتلة رسائل إلى الرأي العام العالمي^(٣)، والأمين العام للأمم المتحدة^(٤)، أكدت خلالها مواقفها السابقة.

وفي مواكبة المواقف التي أكدتها هذه الوثائق، شهدت أشهر النصف الثاني من عام ١٩٨٢ العديد من مظاهر المقاومة المدنية،

كالمظاهرات التي أدى فيها العنصر الطلابي دوراً بارزاً، حتى اضطرت سلطات الاحتلال لإغلاق جامعة بيرزيت في ٨ تموز/يوليو ١٩٨٢ لمدة ثلاثة أشهر^(٨)، والاعتصامات التي تضمنت اعتصاماً نسائياً كبيراً في المسجد الكبير في نابلس^(٩).

كذلك، كانت المجازر التي ارتكبت في المخيمات الفلسطينية في بيروت (صبرا وشاتيلا) بعد خروج المقاومة منها، من بين أهم الأحداث التي أثارت استنكار أبناء الأرض المحتلة. فاندلعت التظاهرات ومظاهر الاحتجاج المختلفة في الذكرى الأربعين لشهداء المجازر، سقط خلالها أحد الشهداء، من نخيم بلاطة في جوار نابلس، برصاص قوات الاحتلال^(١٠).

لقد جاءت هذه المواقف التضامنية في وقت دقيق بالنسبة إلى مسيرة القضية الفلسطينية، بحيث تعرضت منظمة التحرير لمحنة شديدة حتى ظن البعض أن الطريق قد أصبحت ممهدة أمام زوالها وإمكانية تصعيد قيادة بديلة من الداخل، تقبل بالتعامل في إطار مخطط الحكم الذاتي الذي نصت عليه اتفاقات كامب ديفيد. وبذلك أزيلت التحركات السياسية في الضفة والقطاع الشكوك حول إمكانية تحول ولاء أبناء الأرض المحتلة عن منظمة التحرير وأهدافها.

كذلك، شهدت هذه المرحلة (١٩٨٢ - ١٩٨٧) عدداً من الانتفاضات الشعبية، وإن بشكل محدود مقارنة بالانتفاضة الكبرى التي بدأت في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧ (كما سنرى). ويمكن

تعريف الانتفاضة بصفة عامة بأنها «مظهر للمقاومة يتسم بشموله في المكان والمشاركة الجماهيرية وامتداده في الزمان، ويتضمن استخدام أنماط المقاومة المدنية العنيفة واللاعنفية أو أنماط المقاومة العسكرية العنيفة، أو يجمع بينهما معاً»:

١ - حدثت الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٥ وبخاصة في شهري آذار/مارس ونيسان/أبريل، وهي الخامسة في ترتيب الانتفاضات منذ وقوع الاحتلال عام ١٩٦٧. فقد وقعت الانتفاضة الأولى عام ١٩٦٧؛ الثانية عام ١٩٧٤؛ الثالثة عام ١٩٧٦، والرابعة عام ١٩٨٢^(١). وبدأت كرد فعل لممارسات سلطات الاحتلال ضد سكان الضفة في مخيمي الدهيشة والجلزون، التي أخذت شكل اقتحام للمخيمين (بالقرب من بيت لحم)، واعتقال عشرات الشبان بتهمة تأييد منظمة التحرير والقاء القنابل الحارقة والحجارة على المستوطنين الإسرائيليين في المنطقة.

والواقع أن ما قام به سكان المخيمين، من هجوم على المستوطنين، لم يكن أكثر من محاولة للدفاع عن النفس إزاء تخطيط المستوطنين المتتمين إلى حركة هتتحيا (النهضة) الارهابية، لتوسيع نطاق مستوطناتهم بالاستيلاء على الأراضي المجاورة لها.

ورغم كل ممارسات سلطات الاحتلال ضد سكان مخيمي الدهيشة والجلزون، لجأ المستوطنون بدورهم إلى اجراءات أكثر صرامة، وقامت بعض مجموعاتهم بمطاردة الشباب الفلسطيني، الأمر الذي أدى إلى إثارة روح التحدي لدى سكان الضفة

فلسطينية على نحو تجسد في مناخ «انتفاضة» امتدت إلى الجامعات، وبخاصة جامعتي النجاح وبيرزيت، فضلاً عن شاركة عدد كبير من قرى الضفة.

تميزت هذه الانتفاضة باستخدام قنابل المولتوف، إلى جانب تكتل أشكال التظاهرات والمسيرات، كما تميزت بتواكبها مع صاعد المقاومة الوطنية للاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان، التي ستحوذت على الاهتمام العربي، الأمر الذي أدى إلى نوع من لتعتيم على ما جرى في الضفة والقطاع في ذلك العام. ويلاحظ ن هذه الانتفاضة بلغت أوجها خلال شهري آذار/مارس نيسان/أبريل ١٩٨٥، مما دعا إلى القول إن ذلك التصعيد عبر عن استجابة أبناء الأرض المحتلة لقرار المجلس العسكري الأعلى لمثورة الفلسطينية الذي نادى بضرورة تصعيد المقاومة في ذلك الحين.

وقد شهدت الأرض المحتلة موجة أخرى من التصعيد ضد قوات الاحتلال إثر الغارة الإسرائيلية على مقر منظمة التحرير في تونس (١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٥)^(١٦).

٢ - أما الانتفاضة الثانية فاندلعت في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٦ وكانت الأعنف منذ انتفاضة يوم الأرض عام ١٩٧٦^(١٧). وكان من نتائجها سقوط أربعة شهداء وخمسة وعشرين جريحاً وعشرات من المعتقلين من أبناء الضفة والقطاع، وذلك خلال ثلاثة أيام (٤ - ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٦). وقد بدأت

الوقائع عندما نظم طلاب جامعة بيرزيت اضراباً، للتعبير عن احتجاجهم على اقامة حواجز الجيش الإسرائيلي على طريق الجامعة، الأمر الذي تكرر في ذلك الحين على مدار أربعة أسابيع متتالية، وهو ما مثل، عملياً، اغلاقاً غير معلن للجامعة. فلا يرفع الجنود الحاجز إلا بعد مرور سبع ساعات على بداية اليوم الدراسي، الأمر الذي يعني إضاعة فعلى لوقت الدراسة. وعلى أي حال انتهت عملية الاحتجاج الطلابي بملاحقة الجنود للطلاب داخل حرم الجامعة وإطلاق النار عليهم عن مسافة قريبة، فقتل طالبان وأصيب اثنا عشر آخرون بجراح^(١٤).

لم تتوقف الأحداث عند حدود ما شهدته جامعة بيرزيت، فقد التهمت المشاعر الجماهيرية في مختلف أنحاء الأرض المحتلة، وبخاصة بعدما أعلن مجلس الوزراء الإسرائيلي، في جلسته المنعقدة بتاريخ ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٦ أن «الجنود قد عملوا خلال الأحداث كما ينبغي بهدف منع حوادث الاخلال بالنظام»، فأعلن الاضراب والحداد في كبريات مدن الضفة والقطاع لمدة ثلاثة أيام، احتجاجاً على مقتل الطالبين. ونتيجة أحداث التظاهر التي واكبت الاضراب العام، سقط مزيد من القتلى والجرحى.

وبانتهاء عام ١٩٨٦، كانت حصيلة من استشهاد برصاص قوات الاحتلال خلال ذلك العام واحداً وعشرين مواطناً من الضفة والقطاع.

في واقع الأمر أن انتفاضة كانون الأول/ديسمبر تبوأ موقع

الذروة على رأس تصاعد المقاومة وتطورها الحثيث منذ كانون الثاني/يناير من عام ١٩٨٦. فقد شهد مطلع العام جملة اعتداءات على المسجد الأقصى في القدس والحرم الابراهيمي في الخليل، وصلت إلى حد قيام نواب حركة «هتحيّا»، ومعهم أعضاء لجنة الشؤون الداخلية بالكنيست وعدد من الحاخامات، بمحاولة اقتحام المسجد الأقصى والصلاة فيه^(١٥). كما حاولت مجموعات من حركة «كاخ» اقتحام الحرم القدسي أكثر من مرة. ومعنى ذلك أن محاولات الاعتداء على المقدسات الإسلامية ضمت عناصر حكومية رسمية إلى جانب قوى ارهابية غير رسمية، وفي ذلك إشارة إلى تشجيع الحكومة الإسرائيلية لعمليات ارباب سكان الأرض المحتلة واستفزاز مشاعرهم، من خلال ارباب الدولة الرسمي. تنامي هذا الاتجاه وتبلورت ملامحه داخل إسرائيل، تجاه الأرض المحتلة وخارجها، في منتصف الثمانينات^(١٦).

في ذلك الحين تصدى سكان القدس والخليل والقرى المجاورة للإسرائيليين لمنعهم من تحقيق مآربهم. والملاحظ أن ذلك التصدي تم، في جانبه العملي، من جانب القوى الشعبية بمعزل نسبي عن الهيئات الإسلامية شبه الرسمية في القدس، مثل المجلس الإسلامي الأعلى واللجنة الوطنية العربية واللجنة الوطنية للبلديات العربية، التي أصدرت بيانات شجبت فيها السلوك الإسرائيلي وحذرت من عواقبه^(١٧).

كذلك، شهد عام ١٩٨٦ خروج تظاهرات شعبية أو القيام باعتصامات أو إرسال مذكرات للهيئات الدولية، كتعبير عن إحياء مناسبات مختلفة، كذكرى يوم الأرض (٣٠ آذار/مارس)؛ وذكرى مذبحة صبرا وشاتيلا (١٨ أيلول/سبتمبر)؛ ذكرى مذبحة كفر قاسم (٣٠ تشرين الأول/أكتوبر) وذكرى وعد بلفور (٢ تشرين الثاني/نوفمبر). هذا فضلاً عن بروز هذه الأشكال من المقاومة عند حدوث شكل معين من أشكال القمع الذي تقوم به قوات الجيش أو الشرطة أو المستوطنون ضد أبناء الضفة والقطاع^(١٨).

مهما يكن من أمر، فقد كانت القوة التي تحركت بها انتفاضة كانون الأول/ديسمبر انطلاقةً من جامعة بيرزيت، وتضافرت بقية الجامعات معها على الفور، ثم تنادت بقية الجماهير في المدن والقرى للالتفاف حولها، كان ذلك كله بمثابة تعبير عن الدور الوطني المتنامي للجامعات الفلسطينية الست في الأرض المحتلة^(١٩). وكان مما لفت نظر سلطات الاحتلال، في سياق هذه الانتفاضة، إلى جانب سرعة رد الفعل والتجاوب الجماهيري، مدى الانضباط والتنظيم أثناء التظاهر رغم الحماس الكبير. وتعود دهشة القيادة الإسرائيلية، في حقيقة الأمر، إلى تصورها في ذلك الحين، أنها قد استطاعت كسر روح المقاومة في الأرض المحتلة، وبخاصة في أغماطها الجماهيرية الواسعة (الانتفاضات)، بعد أن أوشك الاحتلال على إكمال عامه العشرين^(٢٠).

٣ - وسط حالة الدهشة الإسرائيلية المشار إليها، لم يكد يمضي

سوى أسبوعين حتى كانت مدينة خان يونس (قطاع غزة) بؤرة لانتفاضة أخرى هي الثالثة في هذه الفترة، وذلك في منتصف كانون الثاني/يناير ١٩٨٧. فعلى إثر صدور أمر إبعاد بحق أحد المواطنين الشبان، بحجة أنه عنصر قيادي محرض بين الشباب، خرجت المدينة في تظاهرات عنيفة تندد بالاجراء الإسرائيلي. ثم اتسع نطاق التظاهر إلى بقية مدن وقرى ومخيمات الضفة والقطاع. ومرة أخرى مارست الجامعات دوراً مميزاً. وكان قذف رموز الاحتلال بالحجارة هو الطابع الغالب المصاحب لأعمال التظاهر، بينما كان إطلاق الرصاص هو الطابع الغالب على رد الفعل الإسرائيلي، وقد سقط بفعل ذلك شهيد وعدد كبير من الجرحى واعتقل ما ينيف على ١٣٠ شاباً. واستمرت حركة الانتفاضة نحو أسبوع^(٢١).

هذه الانتفاضات التي جاءت موازية لظاهرة اتساع نطاق العمليات الفدائية المسلحة كما سنرى، تولدت بفعل عدد من العوامل، أهمها:

أ - ان الظروف السيئة التي مرت بها منظمة التحرير عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٤، بخاصة الانشقاق في حركة فتح حجر الزاوية في المنظمة، أدت إلى تفاقم الضغوط الإسرائيلية في محاولة لاهتبال فرصة الأزمة الفلسطينية من أجل تمرير البضائع السياسية المرفوضة سابقاً. وكان على رأس هذه الضغوط العمل على الترويج لمشروع الحكم الذاتي، ودعم تجربة «روابط القرى» كبديل مرشح

للتفاوض حول مستقبل الأرض المحتلة في إطار مشروع الحكم الذاتي. والواقع أن روابط القرى طرحت في البداية عقب الانتخابات البلدية لعام ١٩٧٦ والتي اكتسحها مؤيدو منظمة التحرير الفلسطينية، وبدأ تنفيذها فعلياً بدءاً من ٢٠ تموز/يوليو ١٩٧٨ عندما دعت سلطات الاحتلال رسمياً إلى انشاء أول رابطة قرى لمحافظة الخليل في الضفة الغربية. وبينما كان الهدف المعلن لهذه الرابطة، وما تلاها من روابط، حل المنازعات بين السكان ومعاونة المزارعين وتحديث الزراعة، فإن الهدف الحقيقي تمثل - كما سبقت الإشارة - في إيجاد مفاوض فلسطيني في الداخل يتولى تنفيذ الشق الفلسطيني من اتفاقات كامب ديفيد. وإدراكاً من الجماهير ومنظمة التحرير الفلسطينية بحقيقة هذه الأهداف، شكلت «روابط القرى» أحد الرموز المتعاونة مع الاحتلال التي تعرضت لغضبة الجماهير مرة تلو الأخرى، حتى اضطرت سلطات الاحتلال الى تسليح أعضائها. لكن ذلك لم يمنع القوى الوطنية من مطاردة رؤساء الروابط، واغتيال أحدهم، وهو رئيس رابطة قرى رام الله في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨١. وإضافة إلى تجريم منظمة التحرير لهذه الروابط والمنضمين إليها، فقد اعتبرت الحكومة الأردنية أعضاء الروابط متعاونين مع «العدو» وأعطتهم في ٣ آذار/مارس ١٩٨٢ مهلة شهر للانسحاب من هذه الروابط، وإلا وقعوا تحت طائلة القانون الأردني وإمكانية محاكمتهم ومعاقتهم بعقوبة قد تصل حدّ الاعدام. ومع ذلك لم يرعو أعضاء الروابط، فأصدروا جريدة أسبوعية تنطق باسمهم بعنوان أم القرى، وقد

صدر العدد الأول منها في ١٨ حزيران/يونيو ١٩٨٢ أي بعد وقوع الغزو الإسرائيلي للبنان بأسبوعين^(٣٣).

على أي حال فقد كانت المعارضة الجماهيرية للتجاوب مع رموز الروابط وفشل هذه الرموز في تحقيق الاستقطاب الجماهيري، طوال أكثر من ستة أعوام، من العوامل التي أجبرت سلطات الاحتلال على الاعتراف بفشل التجربة وفض هذه الروابط كلية عام ١٩٨٤.

ب - شيوخ المصطلح الأمريكي المولد، الإسرائيلي بالتبني، حول «تحسين معيشة السكان في الأرض المحتلة». وكان من الضروري أن يتم التعبير عملياً عن الرفض الفلسطيني للأهداف السياسية القريبة والبعيدة لهذا الاتجاه، والتي كان جوهرها التأثير في قوة نفوذ المنظمة في الأرض المحتلة^(٣٤).

لقد كانت المساعي الهادفة إلى تحجيم نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية على الصعيدين الأمريكي والإسرائيلي، مساعي جادة وملحة، لأن تداول الحديث في الولايات المتحدة وإسرائيل عن تحسين نوعية الحياة، اقترن بالتوسع في كشف النقاب عن نشاط لرجال أعمال من العرب واليهود المقيمين في الولايات المتحدة، بقصد إقامة مشروعات في الأرض المحتلة بعيداً عن نفوذ المنظمة وأموالها وأموال اللجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة لدعم صمود الأرض المحتلة التي أنشئت عام ١٩٧٨. وكانت صحيفة عال همشار الإسرائيلية قد أشارت إلى هذه النشاطات لأول مرة يوم

١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٤. وفي الاتجاه نفسه، لوحظ أن سلطات الاحتلال قد قبلت طلبات لافتتاح ٣ مصارف في الضفة الغربية، رغم نفي إسرائيل لهذا الأمر^(٣٢).

إن هذه الخطوات إلى جانب تزايد الضغوط الارهابية الإسرائيلية وتفاقم الأوضاع الاقتصادية (نتيجة اغلاق الأردن للجسور المفتوحة أمام تجارة الأرض المحتلة)، قد خلقت من ناحية أجواء من القلق والاستياء داخل الضفة والقطاع، ولكنها، من ناحية أخرى، شحذت الشعور الوطني ومهدت الطريق أمام الجهود الرامية إلى تصعيد المقاومة السياسية والمسلحة، المنظم منها والعفوي. لذلك، كانت انتفاضة كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٦، كما سبق الذكر، الأعنف منذ عشرة أعوام خلت.

ما لا شك فيه، أن الانتفاضات تكتسب أهميتها من كونها ذات طبيعة خاصة في رفض الاحتلال ومقاومته، لأنها - كما عرفناها - تتسم باتساع نطاقها المكاني وامتدادها الزمني وشمولها كافة أنماط المقاومة المدنية (كرفض الأوامر ورفع المطالب والاعتراض على إجراءات معينة مثل مصادرة الأراضي أو أوامر الإبعاد بحق العناصر الوطنية... إلى جانب رفع الأعلام والاضراب والتظاهر المصحوب برشق رموز الاحتلال)، هذا علاوة على قليل أو كثير من المقاومة العسكرية، بحسب الأحوال. إن هذه المظاهر تجعل من الانتفاضات وقائع تستقطب الاهتمام السياسي والاعلامي وتوجه الأنظار نحو الأرض المحتلة. ومع ذلك، فقد شهدت

الأراضي المحتلة مختلف أنماط المقاومة المدنية منذ عام ١٩٨٢ دون أن تستقطب الاهتمام اللازم. ومن ذلك لجوء السكان إلى القضاء أحياناً من أجل التعامل مع قضايا مصادرة الأراضي أو المنع من السفر أو الطرد والإبعاد أو اغلاق بعض المؤسسات الصحافية والنقابية. . وإن كان اللجوء الى هذا النمط الذي تصنفه بعض المصادر كنمط من أنماط المقاومة المدنية في أشكالها الدنيا، قليلاً بصفة عامة، لأن القضاء الإسرائيلي لا ينصف - غالباً - السكان بصفته قانوناً وضعته سلطات الاحتلال وتنفذه. هناك، أيضاً، عمليات توزيع المنشورات، بخاصة في الأوقات التي تتطلب التعريف بالمهام النضالية أو طمأنة السكان إلى وجود قوى منظمة إلى جانبهم في الداخل، أو عند تهديد بعض العناصر المتواطئة، والتي لم تعد منها منطقة محتلة عبر التاريخ. وتنتمي عمليات رفع الاعلام خلال التظاهر، أو من دونه، إلى المقاومة المدنية، فهي تعبير رمزي بالغ الدلالة. ويضاف إلى هذه الأشكال الاضرابات التي ينظمها المعتقلون في السجون الإسرائيلية والتي لم يخل منها عام من الأعوام منذ بداية الاحتلال، ويتم أحياناً تنظيم اضرابات خارج السجون في تعبير عن التضامن مع المعتقلين^(٢٣).

عرفت الأراضي المحتلة في هذه الفترة، بشكل عام، تصعيداً في النضال المدني بكافة أنماطه، ويوضح الجدول رقم (٢ - ١) والشكل رقم (٢ - ١) هذه الظاهرة خلال الأعوام الثلاثة ١٩٨٥ و١٩٨٦ و١٩٨٧^(٢٣).

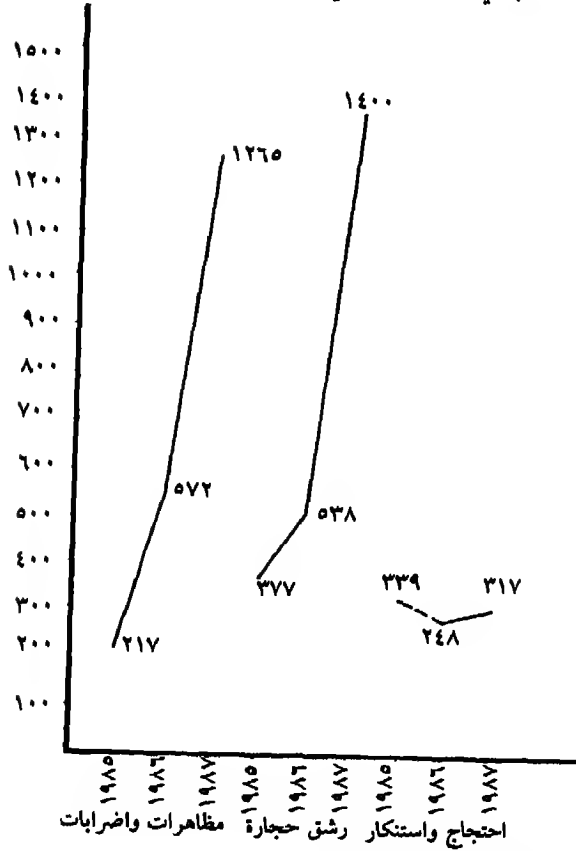
جدول رقم (٢ - ١) التفضيلات المدنية، ١٩٨٥ - ١٩٨٧

الشهر	١٩٨٥				١٩٨٦				١٩٨٧			
	مظاهرات	احتجاج	رئيس	الجمع	مظاهرات	احتجاج	رئيس	الجمع	مظاهرات	احتجاج	رئيس	الجمع
الشهر	اعصام	طالب	دفع اعلام		اعصام	طالب	دفع اعلام		اعصام	طالب	دفع اعلام	
كانون الثاني /يناير	١٦	١٨	٤٥	١٠٧	١١	١٥	٢٥	٥١	٢٤	١٧	٥٤	٩٥
شباط/فبراير	١٨	٧٨	٣٦	٨٢	٩	٢١	١١	٤١	١٢٧	١٢٤	١٢٤	٣٨١
آذار /مارس	٢١	٣٨	٤٨	١٠٧	١٩	١٣	١٠٨	١٤٠	٦٤	١٥	٥٨	١٣٧
نيسان/أبريل	٤٠	٣٧	٦٧	١٤٤	٥٠	٧٨	٤٠	١١٨	٣١	١٦	١١٢	٢٥٩
أيار /مايو	٣٨	٢٠	٣٧	٩٥	١٠	١٧	٢٧	٥٤	٣٢	٨	٥٢	٩٢
حزيران/يونيو	٦	٢٣	١٦	٤٥	٧	٢١	٣٢	٦٠	٤٣	١٥	٢٥	٨٣
تموز/يوليو	١٠	٢٤	٤	٣٨	١٢	١٤	٩	٣٥	٦	٦	٧	١٩
آب /أغسطس	٤	٢٠	٩	٣٣	٩	٥	٢٥	٣٩	١٧	١٢	١٥	٤٤
أيلول /سبتمبر	١٧	٣١	٤٣	٩١	٢٣	٩	٣٩	٧١	٥١	١٤	٤٨	١١٣
تشرين الأول /أكتوبر	٢٣	٣٣	٣٨	٩٤	٢٧	١٥	٢٥	٦٧	١٥٨	١٣	١٤٦	٣١٧
تشرين الثاني /نوفمبر	١٠	٢١	٢٢	٥٣	٣٦	٦٤	٦٨	١١٨	٨٥	١١	٧٧	١١٣
كانون الأول /ديسمبر	١٤	١٩	١١	٤٤	٣٥٩	٦٦	١٢٩	١٢٤	٥٦٧	٦٠	٦٨٢	١٢٢٩
الجمع العام	٢١٧	٣٣٩	٣٧٧	٩٣٣	٥٧٢	٢٤٨	٥٣٨	١٣٥٨	١٢٦٥	٣١٧	١٤٠٠	٢٩٨٢

المصدر : فلسطين المحتلة، ١٩٨٥ - ١٩٨٧ : الصمود والتحدى، إشراف عبد الفتاح الجبوري (صتان: دار الكرمل للشر، ١٩٨٨)، ص ١٣

شكل رقم (٢ - ١)

الخط البياني للنضال المدني الجماهيري، ١٩٨٥ - ١٩٨٧



إن قراءة تحليلية للبيانات التي يتضمنها الجدول والشكل السابقان، توضح أن المسار العام لأنماط المقاومة المدنية أخذ يتصاعد منذ عام ١٩٨٥ .

وتفصيلاً، يلاحظ أن نمط الاحتجاج والاستنكار، الذي يعبر عن الحد الأدنى من ردود الفعل الجماهيرية تجاه سلوك المحتلين الإسرائيليين، هو أدنى هذه المظاهر، فهو يتكرر في حده الأقصى (عام ١٩٨٥) في ٣٣٩ مرة فقط. ولعل في هبوط نسبة الاحتجاج والاستنكار مقابل الأنماط الأكثر ايجابية (رشق الحجارة والاضرابات والتظاهرات)، ما يدل على جنوح أبناء الأرض المحتلة إلى الفعل الذي يشعرون بأنه أكثر تأثيراً وتعبيراً عن رفضهم للاحتلال، كما يدل على فقدان ثقتهم في جدوى رفع العرائض والاستنكار أمام سلطات احتلال لم تتعود أن تقيم للاستنكار والادانة، سواء من سكان الأرض المحتلة أو حتى من المجتمع الدولي وقواه المختلفة، أي وزن.

يلفت النظر، أيضاً، أن تطور المقاومة في غمطهاا المتعلقين برشق الحجارة والتظاهرات والاضراب قد تم خلال الأعوام ١٩٨٥ و١٩٨٦ و١٩٨٧ في صورة قفزات كبرى. فقد تضاعفت عمليات التظاهرات والاضراب ست مرات (من ٢١٧ عملية عام ١٩٨٥ إلى ١٢٦٥ عملية عام ١٩٨٧)؛ بينما تضاعفت عمليات الرشق بالحجارة أربع مرات (من ٣٧٧ عملية عام ١٩٨٥ إلى ١٤٠٠ عملية عام ١٩٨٧). ان هذه القفزات الكبرى، بخاصة الفارق في عدد

العمليات بين عامي ١٩٨٦ و١٩٨٧، تعود، من دون شك، إلى ما أحدثته بداية الانتفاضة الكبرى في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧ من تحول كبير في مسار المقاومة في الأرض المحتلة.

جدير بالذكر في هذا الموضع أنه نتيجة للتحدي الثقافي للاحتلال الصهيوني ومحاولات استلاب الوعي الجمعي للسكان، بما في ذلك عاداتهم وتقاليدهم، ونسبها للثقافة اليهودية (والإسرائيلية)، تضافرت الجهود الفلسطينية في مطلع الثمانينات في سبيل إحياء التراث الفلسطيني من أدب وفولكلور وتسجيله وممارسته، وإنشاء دور نشر للأدب المحلي وتوزيعه. وكذلك نقل الأدب العربي من الخارج وإعادة نشره وتأسيس المجلات والجرائد السياسية والأدبية والفكرية، في استغلال لأي هامش قانوني يفلت من قبضة سلطة الاحتلال.

وما كان لهذه الأنماط من المقاومة أن تنمو، دون الاهتمام الذي أولته القوى الوطنية الفلسطينية داخل الأرض المحتلة وخارجها لإقامة المؤسسات الوطنية على أرض الضفة والقطاع. وتشمل هذه المؤسسات التنظيمات الطوعية الشعبية والمنظمات المهنية والنسائية والتعاونيات التي اهتمت جميعها بتعبئة قطاعات هامة من السكان ورعاية حقوقهم ومصالحهم^(٣٧).

لقد كان لهذه التنظيمات دور بالغ الأهمية في اتباع نهج «التنمية من أجل المقاومة». فقد وفرت هذه الحركة المؤسسية أطراً تنظيمية ملائمة لدعم أبناء الأرض المحتلة وبخاصة في تلك

الجوانب التي أهملتها سلطات الاحتلال على الصعد الاجتماعية والثقافية والصحية والتعليمية والمهنية. ورغم أن بروز بعض الأخطاء والعقبات في تنفيذ استراتيجية الصمود الفلسطيني، وفي الجانب الاقتصادي منه بوجه خاص، إلا أن للجهود المؤسساتية دورها في العمل على رفع مستوى حياة المواطنين الفلسطينيين. ومن هذه المؤسسات ما كان له دوره الملموس في مواجهة عسف هذه السلطات. يذكر في هذا الشأن «جمعية القانون في خدمة الإنسان» التي تمارس عملها في مدينة رام الله في الضفة الغربية، وتقدم خدمات قيمة للمواطنين تتضمن توفير المحامين للدفاع عن المعتقلين وقضاياهم وتوعية المواطنين بحقوقهم، كما تلجأ من خلال بعض النشرات إلى التعريف، على نطاق دولي، بانتهاكات إسرائيل لحقوق الإنسان، وتقوم بترجمة وتلخيص آخر القوانين العسكرية. و«جمعية انعاش الأسرة» وهي من أنشط الجمعيات الاجتماعية الثقافية في الأرض المحتلة، التي استطاعت توفير فرص عمل كثيرة لعدد من الأسر ذات الدخل المحدود من خلال مشروعاتها الاقتصادية، إضافة إلى إشرافها على روضة أطفال وحضانة أطفال وبعض المراكز الانتاجية، وإنشائها متحفاً للتراث الشعبي الفلسطيني. وهناك اللجان النسائية المتعددة، ولجان الرعاية الطبية، والعيادات الصحية المتنقلة التي تعوض نقص الخدمات الصحية لسلطة الاحتلال وبخاصة في الأرياف، بأسعار زهيدة أو دون أجر، وتعاونيات الإسكان التي تسعى إلى توفير المساكن الملائمة لتثبيت المواطنين على أراضيهم^(١٨).

وفي أول محاولة من نوعها في الوطن العربي، أنشأ المحامي الفلسطيني الأصل، الأمريكي الجنسية، مبارك عوض في القدس الشرقية «المركز الفلسطيني لدراسات اللاعنف في القدس». وتتمثل نشاطات هذا المركز في مجال تطوير المقاومة المدنية ضد الاحتلال الإسرائيلي. وقد رأى عوض أن من الأدوات التي يمكن تطبيقها في هذا الإطار التظاهرات كتعبير عن الاحتجاج، والإعاقة التي تعني إعاقة السلطات الإسرائيلية عن تطبيق خططها الجائرة وتدرج من سد الطرق وقطع الكهرباء حتى الوقوف في وجه البلدوزورات (لمنع السلطات من مصادرة الأرض مثلاً)، ورفض التعاون وهو ما يمكن تصعيده إلى مستوى العصيان المدني، والمضايقة التي تدور حول التركيز على المظاهر النفسية لمضايقة الإسرائيليين، والمقاطعات الاجتماعية والسياسية، والاضرابات ذات الأجل المختلفة والمحددة الأهداف سلفاً، والتضامن الداخلي بين أبناء الأرض المحتلة، والتضامن الداخلي - الخارجي بين أبناء فلسطين عموماً، وخلق المؤسسات البديلة لمؤسسات الاحتلال، والعصيان المدني الذي يتبوأ قمة اللاعنف ويأتي كمرحلة متطورة من النضال السياسي اللاعنفي^(٣٩).

لقد كان لهذه الأشكال المؤسسية أثر قوي في البحث عن وسائل أخرى مكملّة أو رديفة للأنماط المقاومة المسلحة العنيفة. وكان بروزها في توقيت مناسب تماماً بعد أن صار الاحتلال واقعاً قائماً وجائئاً لنحو عشرين عاماً، وأصبح من بين أهدافه إقرار الأمر الواقع وتكريسه.

وإدراكاً من سلطات الاحتلال للدور الجيني الذي تقوم به هذه المؤسسات على طريق تنظيم المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال، وما يترتب على ذلك من تمتين قوى هذا المجتمع الذاتية في مواجهة ضغوطها المتعددة الأشكال، فإنها سعت إلى تضيق الهامش القانوني الذي تعمل هذه المؤسسات في إطاره. وفي مرحلة لاحقة شنت سلطات الاحتلال هجوماً شاملاً على مختلف هذه المؤسسات فأغلقت بعضها، أو طردت قياداتها أو أودعتهم معتقلاتها.

ثانياً: المقاومة المسلحة

بحلول مطلع الثمانينات كان النشاط الفدائي المسلح في الأرض المحتلة في وضع بائس. فقد تمكنت إسرائيل، إلى حد بعيد، من إغلاق الحدود في وجه أي تسلل لرجال المقاومة من الخارج. وساعدها على ذلك موقف معظم بلدان الطوق العربية من ممارسة النشاط الفدائي انطلاقاً من أراضيهم. كذلك، طاردت إسرائيل رجال المقاومة في الداخل. وكانت الصلابة التنظيمية لمختلف القوى المسلحة في الداخل في وضع سيء، والعمليات العسكرية بسيطة محدودة. هذا في الوقت الذي نما فيه الجهاز السياسي الفلسطيني في الخارج نمواً ضخماً، دون أن يوازيه جهاز سياسي (أو عسكري) مماثل في الداخل. وقد سبقت الإشارة إلى النقاش الذي احتدم قبل عام ١٩٨٢ وبعده حول مشكلات الكفاح المسلح في الأرض المحتلة. وبمراجعة الجدول رقم (٢-٢) الذي يجمع

جدول رقم (٢ - ٢)
عمليات المقاومة المسلحة في الأراضي المحتلة في بعض سنوات ما قبل عام ١٩٨٢

السنة	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٨١
مجموع العمليات	٢٤٣	٧٥٥	٤٧٣	٤٧٦	٤٧٥	٣٧٩	٣٧٧	٢١٤	١٦٤	١٨٠

المصدر: محمد خالد الأزعر، المقاومة في قطاع غزة، ١٩٦٧ - ١٩٨٥ (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)،
ص ١٤٤. (تصرف).

عمليات المقاومة المسلحة طبقاً للمصادر الفلسطينية حتى عام ١٩٨١، يتضح أن الحديث عن وجود أزمة في هذا الجانب له ما يبرره، فالخط البياني للعمليات المسلحة كان يميل بصفة عامة إلى الانحدار.

في ظل هذا الواقع، جاء الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ بهدف القضاء (الإجهاز) تماماً على العمل الفدائي في الأرض المحتلة، ضمن أهداف أخرى بالطبع.

غير أن التطورات النوعية والكمية في عمليات المقاومة المسلحة بعد ذلك العام عامة، ومنذ منتصف الثمانينات خاصة، جاءت لكي تدحض مزاعم إسرائيل بأن ضرب منظمة التحرير في الخارج سوف يضع حداً للنشاط (الارهابي) في الداخل. لقد تزايد النشاط الفدائي بعد عام ١٩٨٢ بما لا يقاس بالفترة السابقة، وبخاصة في حدود الفترة بين عامي ١٩٧٥ و ١٩٨١. وعلى الأثر اعترف بعض القادة الإسرائيليين بأن مهاجمتهم للمنظمة في الخارج لم تساهم سوى في نبش التربة عن بذور كانت خبيثة في الداخل، كما أنهم بدأوا يشعرون بخطورة ظاهرتين: الظاهرة الأولى تطوّر أفراد عديدين في العمل الفدائي، دون أن يكونوا منضوين بالضرورة تحت لواء تنظيمات فدائية معروفة، وهو ما عرف بالعمل الفدائي العفوي؛ والظاهرة الثانية أن صعود العمليات بشكل ملح ومستمر بدا كأنه يدور في فلك سياسة شاملة لمنظمة التحرير، لمواجهة مخططات إسرائيل في الأرض المحتلة.

وبلغت النظر أن هذه الظواهر دفعت إسرائيل إلى إعادة تهديداتها بضرب مراكز المنظمة في البلدان المضيفة لقواتها، الأمر الذي أعاد إلى الذهن التهديدات السابقة على غزو لبنان والمواكبة له، وأكد فشل العملية الإسرائيلية ضد المنظمة عام ١٩٨٢.

وفي حقيقة الأمر ان تصعيد النضال المسلح في الداخل، وبخاصة منذ عام ١٩٨٤، تم تحت ضغط اكتمال الدائرة الجهنمية، اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وفكرياً وثقافياً، والتي فرضتها سلطات الاحتلال على سكان الضفة والقطاع منذ عام ١٩٦٧، والتي أشرنا إليها بايجاز في صدر الدراسة. كما أن جيلاً جديداً نما تحت واقع الاحتلال ونمت معه طاقة نضالية عالية، فاحتك بالعدو وعركه وعرفه ووثق بقدرته على منازلته. ومن جهتها، أولت القيادة الفلسطينية اهتماماً بالمقاومة المسلحة داخل الأراضي المحتلة، وكانت فترة الوفاق المذبذب مع الأردن بين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٦ فترة نشاط متصاعد للمنظمة على صعيد إعادة تنظيم الصفوف في الداخل، ومحاولة استجماع عبرة النقاش الواسع الذي جرى حول مستقبل الثورة الفلسطينية، بل القضية الفلسطينية برمتها، في حال بقاء الكفاح المسلح وهو عماد هذه الثورة، على حاله من الركود. وفي ظل ظروف بالغة الصعوبة مسحت القيادة العسكرية الفلسطينية حاجات الأرض المحتلة من التنظيم والأموال والأسلحة. وسعت جاهدة إلى ربط الكفاح السياسي المتنامي في الخارج (والداخل) بنشاط فدائي مسلح رديف في الداخل. وذلك مع أخذ الظروف والمتغيرات المحيطة بهذا النشاط في عين

الاعتبار، إلى جانب الوعي بأهمية العمل المقاوم العفوي الفردي والجماعي لأنه يشير، بين أمور أخرى، إلى وصول الوضع الثوري إلى ذروة عالية^(٣١).

وفي الجانب الآخر، لم تكن القيادة الإسرائيلية غافلة تماماً عما يدور على أرض الواقع فيما يخص تصاعد النشاط الفدائي المسلح، ووجود خصائص جديدة يتسم بها هذا النشاط. وقد حذر مراقبون إسرائيليون منذ صيف عام ١٩٨٥ من أن هذا النشاط آخذ في التزايد، ولاحظ زئيف شيف، أحد كبار المعلقين الإسرائيليين، «أن ٥٠٪ من عمليات المقاومة تتم بمبادرات فردية يصعب اكتشاف منفذها»^(٣٢). كما لاحظت مصادر أخرى «أن ٩٨٪ من القنابل الموجودة بحوزة المخربين (رجال المقاومة) في الأرض المحتلة هي من صنع الجيش الإسرائيلي. الأمر الذي دعا رئيس الأركان إلى تشكيل لجنة تحقيق خاصة لبحث كيفية وصول هذه الأسلحة إلى المخربين»^(٣٣). ولقد كانت تلك الاشارات الإسرائيلية صحيحة، فقد تميزت العمليات الفدائية في هذه المرحلة بما يلي:

(١) تأمين الأسلحة وأدوات القتال من الداخل والحصول عليها من أيدي العدو وبأساليب مختلفة (شراؤها أحياناً)، أو مهاجمة بعض الجنود والاستيلاء على أسلحتهم أو تفكيك الألغام المزروعة حول المستوطنات والحصول على المادة المتفجرة منها.

(٢) استخدام وسائل قتالية بسيطة وفي متناول اليد (كالخنجر والسكين والفأس والحجر).

(٣) ارتفاع معدل استخدام القنابل الحارقة المصنوعة محلياً.

(٤) الجرأة الشديدة في مهاجمة رموز الاحتلال وهو ما يتفق ويتناسب واستخدام أدوات قتال تقتضي غالباً الالتحام المباشر (كالسكين والحجر).

(٥) اتساع رقعة العمليات جغرافياً، والوصول بالنشاط المسلح الى مناطق كانت شبه مغلقة في السابق (كالجليل والنقب وغور الأردن).

(٦) وجود خلايا فدائية ذات مهام نوعية متميزة (كخطف جنود العدو وتجريدتهم من أسلحتهم والاجهاز عليهم).

(٧) مشاركة الفلسطينيين في الأرض المحتلة عام ١٩٤٨ في النشاط المسلح، وظهور خلايا فدائية مسلحة بينهم.

(٨) فشل أجهزة الاستخبارات الداخلية (الشين بيت أساساً) في كشف الخلايا الفدائية وإحباط العمل الفدائي بضربات إجهاضية مقابل ارتفاع الحس الأمني لرجال المقاومة.

إن قراءة الجداول من رقم (٢ - ٣) إلى رقم (٢ - ١٢) والتي تتناول العمليات العسكرية في مختلف أنحاء فلسطين المحتلة في الفترة بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٧، توضح التطورات التي حدثت فيما يتعلق بنوعية النشاط الفدائي وتوزيعه الجغرافي، كما توضح ما يلي:

- ارتفاع معدل استخدام القنابل الحارقة بشكل مطرد، فمن ١٨٦ عملية عام ١٩٨٥ الى ٢٢٤ عملية عام ١٩٨٧.

- ان استخدام الأسلحة النارية قد سجل انخفاضاً ملحوظاً

تماماً في كافة الأعوام مقابلة بأدوات القتال الأخرى المتاحة، كالْحِجَارَة والقنابل الحارقة والسكاكين.

- انخفاض معدل العمليات المسلحة خلال عام ١٩٨٦ مقابلة بعام ١٩٨٥، ثم عودة هذا المعدل إلى الارتفاع عام ١٩٨٧. وتعزى هذه الظاهرة، على الأرجح، إلى تدهور العلاقات الأردنية - الفلسطينية عام ١٩٨٦، وإغلاق المكاتب الفلسطينية في عمان، الأمر الذي أحدث ارتباكاً مؤقتاً.

- ارتفاع معدل العمليات داخل الأرض المحتلة عام ١٩٤٨ بصفة عامة، بل ارتفاع هذا المعدل مقابلة حتى بقطاع غزة طوال الأعوام الثلاثة. وهو اتجاه يضع ما يسمى الحل الصهيوني لعرب إسرائيل موضع التساؤل وفشل حملة لبنان عام ١٩٨٢، وقدرة المقاومة على اتباع منهج الانتشار الجغرافي الذي يربك صفوف العدو. كما كان هذا الاتجاه مقدمة مفيدة عادت بنتائج طيبة عقب اندلاع الانتفاضة الكبرى في نهاية عام ١٩٨٧؛ فقد حصلت الانتفاضة على دعم مادي وغذائي ومعنوي بالغ الأهمية من فلسطين الجليل.

- في جدول خسائر العدو من القتل والجرحى يتضح هبوط معدل القتل والارتفاع المطرد في عدد الجرحى. وهذا يناسب اتجاه معدل استخدام الأسلحة النارية نحو الهبوط لمصلحة الأسلحة غير النارية.

- خلال الأعوام المختلفة كان توزيع عدد العمليات متعادلاً تماماً

بالنظر الى عدد السكان في الضفة والقطاع (قائمة ٨٦٢ عملية في الضفة مقابل ٣٧٨ عملية في القطاع). ومعلوم أن عدد سكان الضفة هم، تقريباً، ضعف عددهم في القطاع (نحو مليون مقابل نصف مليون). ولكن معدل العمليات في القطاع يبدو كثيفاً إذا أخذنا في الاعتبار أن مساحة الضفة تبلغ خمسة عشر مثلها بالنسبة إلى القطاع (٥٥٠٠ كلم^٢ و ٣٦٥ كلم^٢ على التوالي). وهذه الملاحظة الأخيرة ربما توضح أثر الخبرة التاريخية للمقاومة في القطاع في الخمسينات، وكذلك عند بداية الاحتلال عام ١٩٦٧ الذي ورث للأجيال الجديدة فيه. وكذلك قد توضح أن الأحوال الأكثر سوءاً في القطاع، من كافة الجوانب، ربما تكون قد مارست دورها في هذا الإطار^(٣٣).

- توسعت الأهداف التي توجهت إليها عمليات المقاومة لكي تشمل كافة رموز الاحتلال (جنود، شرطة، حافلات عسكرية، مستوطنون)، وهو ما كان يعكس اتجاهات نوعية جديدة مقابلة بمراحل سابقة. ففي الأعوام السابقة، بخاصة بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٧٢، لم يكن المستوطنون - على سبيل المثال - هدفاً لرجال المقاومة بسبب ضآلة حجم الاستيطان في ذلك الوقت. ومن بين ٣٨٨ عملية فدائية جرت في النصف الأول من عام ١٩٧١ لوحظ أنه لم تتجه أية عملية إلى جهة استيطانية في الأرض المحتلة عام ١٩٦٧^(٣٤). وقد تعود مهاجمة المستوطنين، أيضاً، الى زيادة أنشطتهم الإرهابية منذ مطلع الثمانينات ضد السكان الفلسطينيين.

جدول رقم (٢ - ٣)
العمليات العسكرية حسب النوعية خلال عام ١٩٨٥

الشهر	اشتباك أسلحة	انفجار صوت	عربات لم تنج	قتل بدوية	قتل حارثة	مد الملاذ	دع النام	صواريخ احطاف	تخريب بنايات	طن بالسكنى	رشق جواز	عمليات أخرى	الاجمى
كانون الثاني / يناير	٤	٢	١	٢	١٧	١	-	٢	٤	-	٥	-	٢٩
شباط / فبراير	٢	٤	٦	٣	١٥	٤	-	١	٣	١	٦	-	٤٦
آذار / مارس	-	٥	٧	٢	١٠	١	-	-	٢	-	١١	٢	٤١
نيسان / أبريل	٣	٤	١	٦	٨	٤	-	١	٣	١	٧	-	٤٢
أيار / مايو	٤	١٠	٣	٢	٧	١	٢	-	٦	٢	١٠	-	٤٧
حزيران / يونيو	٣	٨	٥	٧	٢٦	٢	١	٣	٧	٥	٤	-	٧٤
تموز / يوليو	٧	١١	٧	٧	١٨	٢	١	١	-	٢	٢	-	٦٢
آب / أغسطس	٥	٥	١١	١٠	١٥	١	-	٢	٢	٣	٥	-	٦٠
أيلول / سبتمبر	٢	٨	٥	٣	٢٤	٢	١	٣	-	٢	٥	-	٥٨
تشرين الأول / أكتوبر	٧	١٤	٤	٢	٢٠	-	١	-	٢	٥	٢	-	٦٣
تشرين الثاني / نوفمبر	٩	١٢	٣	٢	١٦	-	-	٣	٣	٧	٢	-	٥٧
كانون الأول / ديسمبر	٩	١٨	٥	٢	١٠	٣	-	٢	٦	٤	٥	١	٧٠
الاجمى	٥٥	١٠١	٥٨	٤٨	١٨٦	٦١	٦	١٨	٢٧	٣٣	٦٢	٤	٦٥٩

المصدر : المصدر نفسه، ص ٢٣ .

جدول رقم (٢ - ٤)
العمليات العسكرية حسب النوعية خلال عام ١٩٨٦

الشهر	إنبال أسلحة	النجار عوات	عوات لم تنجز	قنابل يدوية	قنابل حارقة	عدد الملاء	دفع الأيام	صواريخ	احتفان	تملكات	طس بالسكاكين	رشق حجارة	عمليات أخرى	المجموع
كانون الثاني/يناير	٧	١٦	٥	٥	١٨	-	-	٣	١	-	٤	٢	-	١١
شباط/فبراير	٣	١٣	٧	٩	١١	٢	-	٥	٢	٣	١	٦	-	١٢
آذار/مارس	٤	١٤	٥	٣	٩	٢	٢	٤	١	٦	٧	٤	-	١١
نيسان/أبريل	١٠	٩	٥	١٠	٢٦	١	٢	٣	-	-	٣	٩	١	٧٩
أيار/مايو	١	١٣	٥	٣	١٤	٢	-	٢	-	١	١	٢	١	٤٦
حزيران/يونيو	٣	١٣	-	٦	١٧	٢	٢	٣	-	١	٤	-	٢	٥٣
تموز/يوليو	٢	٧	٣	٣	٩	١	-	٣	١	١	١	٢	-	٣٢
آب/أغسطس	-	٤	٤	١	٧	١	١	٥	-	١	٢	٦	-	٣٢
أيلول/سبتمبر	١	٤	١	١	١١	٣	-	٧	-	-	٣	٤	١	٣١
تشرين الأول/أكتوبر	٢	١٠	-	٥	١٦	-	١	-	-	-	٥	٣	-	٤٢
تشرين الثاني/نوفمبر	-	٣	٢	٢	٩	١	-	٢	-	١	٤	٢	-	٢٦
كانون الأول/ديسمبر	-	٣	٢	١	٦	-	-	١	-	-	٤	٢	-	٢٠
المجموع	٣٣	١٠٩	٣٩	٤٩	١٥٣	١٥	٨	٣٨	٥	١٥	٣٩	٤٢	٥	٥٥٠

المصدر : المصدر نفسه، ص ٢٣

العمليات العسكرية حسب النوعية خلال عام ١٩٨٧

[illegible]

جدول رقم (٢ - ٧) العمليات العسكرية موزعة جغرافياً خلال عام ١٩٨٦

الضحية الدم	الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨	الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧										الشهر	
		قطاع مزة	القطاع الغربية								القدس		
			الجميع	أريحا	طوكرم وقفيلية	جنين	باني	الخليل	رام الله	بيت لحم			
١١	٢٧	١٦	١٨	١	١	-	١	-	١	٣	١١	كانون الثاني / يناير شباط / فبراير آذار / مارس نيسان / أبريل أيار / مايو حزيران / يونيو تموز / يوليو آب / أغسطس أيلول / سبتمبر تشرين الأول / أكتوبر تشرين الثاني / نوفمبر كانون الأول / ديسمبر	
٦٢	٢٠	٨	٣٤	١	١	٣	٣	٥	١	-	٣		١٧
٦١	٣٢	١١	١٨	٢	-	-	٥	١	-	١	٩		
٧٩	٢٢	٢٠	٣٧	٣	١	٤	٤	٣	٣	-	١٩		
٤٦	١٦	١٨	١٢	-	-	١	٢	٢	-	٢	٧		
٥٢	٦٦	٩	١٨	١	٢	٣	٣	٢	١	-	٦		
٣٢	١٦	٥	١١	١	١	-	٢	٢	١	-	٤		
٣٢	١٤	٦	١٢	-	٢	-	٥	١	-	٢	٢		
٣٦	١١	٨	١٧	-	٤	-	٧	٢	-	١	٣		
٤٢	١٥	١٣	١٤	١	٢	-	٣	٣	٢	١	٢		
٣٦	٦	٦	١٤	-	-	-	٥	-	١	٢	٦		
٢٠	٧	٣	١٠	-	١	-	-	-	٢	١	٦		
٥٥٠	٦١٢	١٢٣	٦١٥	١٠	١٥	١١	٤٠	٢٠	١١	١٦	٩٢	الجميع	

المصدر: المصدر نفسه، ص ٢٥

جدول رقم (٢ - ٨) العمليات العسكرية موزعة جغرافيا خلال عام ١٩٨٧

التنمر	الأراضي المحتلة عام ١٩٤٧										الجموع
	الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨	القسم الفرعية									
		قطاع غزة	الضفة الغربية								
			الضفة الغربية	أريحا	طولكرم وقلقيلية	جنين	نابلس	الخليل	رام الله	بيت لحم	
كانون الثاني /يناير	٤٧	٩	٢١	—	١	٥	٧	٥	٣	١	٤
شباط /فبراير	٣٤	٨	٢٠	—	٢	١	٤	٢	٦	١	٤
آذار /مارس	٤٠	١٢	٢٣	—	١	١	٥	١	٧	٣	٥
نيسان /أبريل	٥٨	١٧	٢٥	—	٤	٢	٣	٦	٥	٤	١
أيار /مايو	٥١	١٣	٢٦	١	٩	٢	٤	٣	١	٤	٢
حزيران /يونيو	٤٨	١٨	٢٥	—	٤	١	٥	٤	٣	٢	٦
تموز /يوليو	٤٢	٢٠	٥	١	٣	—	٥	٢	—	٤	٢
آب /أغسطس	٥٧	٢٢	٢٢	—	٥	٣	٦	١	٢	٤	١
أيلول /سبتمبر	٥٢	١٥	٣٠	—	٨	١	٨	—	٤	—	٩
تشرين الأول /أكتوبر	٤١	١٣	١٩	—	١	١	١	—	٣	٤	٩
تشرين الثاني /نوفمبر	٦٣	٢٦	٢٥	—	٦	١	٥	٥	—	٤	٤
كانون الأول /ديسمبر	١٠١	١٤	٦٠	١	٥	٢	٩	٨	١٣	٥	١٧
الجموع	٦٣٤	١٨٧	١٢٩	٣١٨	٤٩	٦٠	٦٢	٣٧	٤٧	٣١	٦٤

المصدر: المصدر نفسه، ص ٣٠.

جدول رقم (٢ - ٩)

مقارنة العمليات العسكرية خلال ثلاث سنوات (١٩٨٥/١/١ - ١٩٨٥/٣/٣١ - ١٩٨٧/١٢/٣١)

السنة	١٩٨٥			١٩٨٦			١٩٨٧		
	عمليات	حاصل المدمر		عمليات	حاصل المدمر		عمليات	حاصل المدمر	
		قتل	جرحي		قتل	جرحي		قتل	جرحي
الشهر	٦٦٠	٦٥	٦٨٩	٥٥٠	٥٩	٤٤٨	٦٣٤	٣٦	٤٦٠
كانون الثاني /يناير شباط /فبراير آذار /مارس نيسان /أبريل ايار /مايو حزيران /يونيو تموز /يوليه آب /أغسطس أيلول /سبتمبر تشرين الأول /أكتوبر تشرين الثاني /نوفمبر كانون الأول /ديسمبر	٣٩	١	١٣	٦١	٧	٢٥	٤٧	-	٢٤
	٤٦	٢	١٣	٦٢	١	٤٤	٣٤	-	٦٠
	٤١	-	٣٤	٦١	١٣	٢١	٤٠	٥	٣٤
	٤٢	٥	١٦	٧٩	٧	٤٥	٥٨	٦	٩
	٤٧	-	١٩	٤٦	١	١٩	٥١	٤	٢٧
	٧٤	٦	١٧	٥٣	١١	٦٧	٤٨	١	٣٤
	٦٢	٥	١٣	٣٢	٣	٣٩	٤٢	١	٣٥
	٦٠	٢	٢٥	٣٢	-	١٩	٥٧	٢	٢٠
	٥٩	٥	٤١	٣٦	٣	٤٥	٥٢	٢	٢٣
	٦٣	١٣	٢٢	٤٢	١١	١٠٦	٤١	٣	٢٧
	٥٧	٦	٢١	٢٦	١	٨	٦٣	٩	٣٢
	٧٠	٢١	٤٤	٢٠	١	١٠	١٠١	٣	٨٥

المصدر: المصدر نفسه، ص ٣٤

جدول رقم (٢ - ١٠)
العمليات العسكرية موزعة جغرافياً داخل فلسطين
(١٩٨٥/١/١ - ١٩٨٧/١٢/٣١)

المنطقة السنة	الضفة الغربية	قطاع غزة	الأرض المحتلة عام ١٩٤٨	المجموع العام
١٩٨٥	٣٢٩	١٢٦	٢٠٥	٦٦٠
١٩٨٦	٢١٥	١٢٣	٢١٢	٥٥٠
١٩٨٧	٣١٨	١٢٩	١٨٧	٦٣٤
المجموع	٨٦٢	٣٧٨	٦٠٤	١٨٤٤

المصدر: المصدر نفسه، ص ٣٣. (بتصرف)

جدول رقم (٢ - ١١)
الشهداء والجرحى (١٩٨٥ - ١٩٨٧)

التبر	١٩٨٥		١٩٨٦		١٩٨٧	
	شهيد	جرحى	شهيد	جرحى	شهيد	جرحى
كاون الثاني / باتلو	١	٩	-	١٩	١	١٧
شباط / قراير	-	٤	٤	١٠	٢	٤١
آدار / حارس	٢	١٥	٨	٩	١	١٠
يسان / ابريل	٤	١٩	٤	٦	٩	١١١
أيل / مايو	٥	١٥	٢	١٧	٣	١٩
حزيران / يونيو	١	١٧	-	١٨	٤	٤٢
تموز / يوليو	٣	٨	٣	٢	٥	١٤
آب / أغسطس	٢	١٠	٤	١١	١	٣٦
أيلول / سبتمبر	١٢	٤٠	٤	١٢	١	٢٥
تشرين الأول / أكتوبر	٨	١٣	-	٩	١٢	٤٢
تشرين الثاني / نوفمبر	٢	١٣	١	١٥	٣	٣١
كانون الأول / ديسمبر	٢	٥	٤	٨٠	٤٤	٤٢٩
الجميع	٤٢	١٦٥	٣٤	٢٠٨	٨٦	٨٧٧

المصدر : المصدر نفسه، ص ١٦.

جدول رقم (٢ - ١٢)
عمليات الرشق بالحجارة
(١٩٨٥ - ١٩٨٧)

الشهر \ السنة	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٨٧
كانون الثاني / يناير	٤٦	٢٥	٥٤
شباط / فبراير	٣٦	١١	١٢٤
آذار / مارس	٤٨	١٠٨	٥٨
نيسان / أبريل	٦٧	٤٠	١١٢
أيار / مايو	٣٧	٢٧	٥٢
حزيران / يونيو	١٦	٣٢	٢٥
تموز / يوليو	٤	٩	٧
آب / أغسطس	٩	٢٥	١٥
أيلول / سبتمبر	٤٣	٣٩	٤٨
تشرين الأول / أكتوبر	٣٨	٢٥	١٤٦
تشرين الثاني / نوفمبر	٢٢	٦٨	٧٧
كانون الأول / ديسمبر	١١	١٢٩	٦٨٢ (الانتفاضة)
المجموع	٣٧٧	٥٣٨	١٤٠٠

المصدر: المصدر نفسه، ص ١٢

هوامش الفصل الثاني

(١) جريدة السفير، ١٩٨٢/٦/٢٢، وجيفري أرونسون، سياسة الأمر الواقع في الضفة الغربية: إسرائيل والفلسطينيون من حرب ١٩٦٧ إلى الانتفاضة، ترجمة حسني زينة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٠)، ص ٣١٥ - ٣٣٢.

(٢) تعتر المجالس البلدية والبلديات الفلسطينية في الأرض المحتلة أرقى تعبير عن المؤسسات الاجتماعية. وقد اكتسبت هذه المؤسسات، بسبب حرمان الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة من ممارسة حقوقه السياسية، صبغة سياسية ويعتبر ما يصدر عنها ذا طبيعة سياسية بمعنى من المعاني ولذلك فإن محاولة تهجين هذه البلديات تمثل سياسة إسرائيلية ثالثة. حول هذه المعاني، انظر: الأمم المتحدة، اللجنة المعنية بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف، المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في الضفة الغربية وقطاع غزة (نيويورك: الأمم المتحدة، ١٩٨٢).

(٣) وفا (وكالة الأنباء الفلسطينية)، ١٩٨٢/٦/١٠

(٤) وفا، ١٩٨٢/٦/٢٠.

(٥) وفا، ١٩٨٢/٩/٦

(٦) وفا، ١٩٨٢/٦/٢٩

(٧) وفا، ١٩٨٢/٧/٤

(٨) أملاست عودة، «التحركات الوطنية في الأرض المحتلة إبان الغزو الإسرائيلي للبنان»، شؤون فلسطينية، العدد ١٣٤ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٣)، ص ١٤٦.

(٩) وفا، ١٩٨٢/٦/١٧

(١٠) عودة، المصدر نفسه، ص ١٥١.

(١١) انظر التفاصيل في: أسامة العزالي حرب، الإستراتيجية الإسرائيلية والمقاومة في الأرض المحتلة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام؛ ١٨ (القاهرة: المركز، ١٩٧٧)، ص ١١٦ - ١١٧؛ دافار، ١٩٨٢/٣/١٢، هآرتس، ١٨/٣/١٩٨٢؛ رصد إذاعة إسرائيل (١٧ - ١٨ آذار/مارس ١٩٨١)، وعود طاهر الأسطل، «الانتهاكات السياسية بين سكان الضفة والقطاع، ١٩٦٧ - ١٩٨٠».

(رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٨٦). وسورد بعض التفصيلات حول انتفاضات المرحلة بين ١٩٦٧ و١٩٨٢ في الفصل الثالث من هذا الكتاب

(١٢) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٥، المشرف ورئيس التحرير السيد يسين (القاهرة: المركز، ١٩٨٦)، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(١٣) عن يوم الأرض وموقعه في النضال الفلسطيني في الأرض المحتلة، انظر: اللحنه القطرية للدفاع عن الأراضي العربية في إسرائيل، الكتاب الأسود عن يوم الأرض، ٣٠ آذار ١٩٧٦ (عمّان: دار الجليل للنشر، ١٩٨٥).

Jerusalem Post, 9/12/1986 (١٤)

(١٥) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٦، المشرف ورئيس التحرير السيد يسين (القاهرة: المركز، ١٩٨٧)، ص ٣٠١؛ ربعي المدهون، «المذبحة الأسوأ والانتفاضة الأعنف»، شؤون فلسطينية، العددان ١٦٦ - ١٦٧ (كاسون الثاني/يناير - شباط/فبراير ١٩٨٧)، وهآرتس، ١٩٨٦/١/٩.

(١٦) أشار المجتمع الدولي إلى ما ينطوي عليه السلوك الإسرائيلي من سياسة إرهاب الدولة، وذلك من خلال قرارات صدرت عن الجمعية العامة للأمم المتحدة. انظر بالتفصيل: محمد خالد الأزعر، «إسرائيل وإرهاب الدولة: ملاحظات أولية في ضوء قرارات المجتمع الدولي»، المجلة العسكرية الفلسطينية (نيقوسيا)، السنة ٦، العدد ٣ (نمور/يوليو ١٩٨٩)، ص ٦٤ - ٧٣.

(١٧) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، المصدر نفسه، ص ٣٠١.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٠٠.

(١٩) هي جامعات النجاح، بيرزيت، الخليل، بيت لحم، القدس، وغزة.
(٢٠) لفتت الصحف الإسرائيلية النظر إلى هذه الحقائق في تعليقها على انتفاضة كاسون الأول/ديسمبر ١٩٨٦. انظر: المدهون، «المذبحة الأسوأ والانتفاضة الأعنف».

(٢١) انظر: ربيعي المدهون، «المناطق المحتلة: أحداث دامية»، شؤون فلسطينية، العددان ١٦٨ - ١٦٩ (آذار/مارس - نيسان/أبريل ١٩٨٧)، ص ١٤٣ - ١٤٦.

(٢٢) «روابط القرى»، في: الموسوعة الفلسطينية: القسم العام، ٤ ج (دمشق هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)، ج ٢، ص ٤٨٤ - ٤٨٦، وأروسون، سياسة الأمر الواقع في الضفة الغربية. إسرائيل والفلسطينيون من حرب ١٩٦٧ إلى الانتفاضة، ص ٦٠ - ٦٤.

(٢٣) اليبادر السياسي (القدس)، (١٩ تموز/يوليو ١٩٨٦)، ربيعي المدهون، «السنوات الخمس لتحسين المعيشة خطة لتطوير النموذج الأردني»، شؤون فلسطينية، العددان ١٦٢ - ١٦٣ (أيلول/سبتمبر - تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٦)، ص ٩٥، و Jerusalem Post, 16/12/1986.

(٢٤) هآرتس، ١٩٨٧/١/١٠

(٢٥) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٧، المشرف ورئيس التحرير السيد يسين (القاهرة: المركز، ١٩٨٨)، ص ٢٦٠ - ٢٦٢.

(٢٦) جميع الأرقام والجداول مأخوذة إما نقلاً أو بتصرف عن: فلسطين المحتلة، ١٩٨٥ - ١٩٨٧: الصمود والتحدي، إشراف عبد الفتاح الجيوسي (عمّان: دار الكرمل للنشر، ١٩٨٨)، ومحمد خالد الأعر، المقاومة في قطاع غزة، ١٩٦٧ - ١٩٨٥ (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧).

(٢٧) انظر قائمة بأسماء المؤسسات والجمعيات ونوعياتها في الضفة والقطاع، في: عبد الجبار عدوان، ثمن الاستقلال (القاهرة: دار الشرق الأوسط للنشر، ١٩٨٩)، ص ٣٢٣ - ٤٥٠.

(٢٨) انظر: سعاد الدجاني، «المقاومة المدنية في الضفة الغربية»، في: المقاومة المدنية في النضال السياسي، تحرير سعد الدين إبراهيم (عمّان: منتدى الفكر العربي، ١٩٨٨)، ص ٩١ - ٩٦، منظمة التحرير الفلسطينية، مكتب الإعلام، تقرير عن جمعية انعاش الأسرة بمدينة البيرة (القاهرة: المنظمة، ١٩٨٩). وحول بعض المشكلات الخاصة بجهود الصمود الاقتصادي والاجتماعي ومحاولة رسم السبل الكفيلة

صحيح هذه الجهود وتفعيلها، انظر. ابراهيم الدقاق، «التنمية بالجهود الذاتي: استراتيجية من أجل البقاء»، ورقة قُدمت إلى: الاقتصاد الفلسطيني: تحديات التنمية، ظل احتلال مديد، ندوة، تحرير جورج العبد (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩)، ص ٢٩١ - ٣١٢

(٢٩) الدجاني، المصدر نفسه، ص ٩٩ - ١٠٢

(٣٠) لقاء مع أحد قيادات الثورة الفلسطينية، ١٩٨٩/١٠/١٥

(٣١) هآرتس، ١٩٨٥/٩/٩.

(٣٢) هموديع، ١٩٨٥/١٠/٢

(٣٣) شهد قطاع غزة تحربة في المقاومة المسلحة إبان الخمسينات قبل احتلاله أثناء 'عدوان الثلاثي بين تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦ وآذار/مارس ١٩٥٧. كذلك شهد 'قطاع أكثر مراحل ازدهار المقاومة عقب الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧ مباشرة بخاصة في الفترة الممتدة من بداية الاحتلال حتى منتصف عام ١٩٧٢. عن تجربة لقائمة في القطاع إبان الخمسينات، أنظر: يونس الكتري، حلقة مفقودة من كفاح 'شعب الفلسطيني: الكتبية ١٤١ فدائيون (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)؛ لأرعر، المقاومة في قطاع غزة، ١٩٦٧ - ١٩٨٥، وعبد القادر ياسين، تجربة الجبهة لوطنية في قطاع غزة، دليل المناضل، تجارب حركات التحرر الوطني؛ ١١ (بيروت: ار ابن خلدون، ١٩٨٠)

(٣٤) انظر جدول بعمليات المقاومة الفلسطينية بين ١٩٧١/٧/١ - ١٩٧١/١٢/٣١، في: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، اليوميات لفلسطينية، ١٩٧١، ج ٢ (بيروت: المنظمة، ١٩٧٢).

الفصل الثالث الانتفاضة الكبرى

أولاً : الانتفاضة : الأداء والآليات وحدود التأثير

لم يتوافر لأي مراقب، من أي جهة، دليل واحد منذ عام ١٩٦٧ على أنه من الوارد أن يذعن الفلسطينيون للحكم الإسرائيلي، لذا كان من الطبيعي أن تستمر موجات المقاومة في الأرض المحتلة. قد نلاحظ تصاعد هذه الموجات أو هبوطها بحكم عوامل مختلفة، ولكن لم يكن من الوارد فيما يبدو أنها ستتوقف. وبين الإسرائيليين من أشار إلى هذه الحقيقة بشكل صريح، وفي هذا الإطار يمكن تقويم تصريح لبنيامين بن اليعازر الحاكم العسكري الأسبق للضفة الغربية في ٢٥ شباط/فبراير ١٩٨٦ ذكر فيه «أنه خلال ثلاثة إلى خمسة أعوام، سوف نواجه بانتفاضة شاملة، تنتهي إما إلى ثورة أو عصيان مدني عام»^(١).

وفي واقع الأمر، فإنه وسط ضجيج أصوات الحركات الارهابية

الصهيونية، ووطأة حكم «الليكود»، وعنفوان حركة الاستيطان داخل الأرض المحتلة، وما أشعلته أزمة حركة المقاومة الفلسطينية في الخارج بعد خروج المقاومة من لبنان عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣ من آمال إسرائيلية في انهيار مقاومة الشعب الفلسطيني، وسط ذلك وغيره على الصعيد العربي كان حذار العمل العربي المشترك إلى أدنى مستوياته منذ حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣^(١)، لم يلتفت القياديون الإسرائيليون إلى ما يجري بين ظهرانيهم داخل الأرض المحتلة.

فلو أن المراقبين لمسار حركة المقاومة في الأرض المحتلة، بما في ذلك المراقبون الإسرائيليون، قد أولوا مزيداً من العناية للظواهر الجديدة في هذا المسار من الجوانب النوعية والكمية منذ عام ١٩٨٥، التي أشرنا إليها في هذه الدراسة؛ ولو أنهم حللوا بعمق التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تعتمل داخل الأرض المحتلة، منذ ما بعد عام ١٩٨٢ بشكل خاص، لما أحدث اندلاع الانتفاضة الكبرى عام ١٩٨٧ مفاجأة كبرى بالنسبة إليهم. فعلاوة على الاشارات المتوالية للتحويلات النوعية في عمليات المقاومة وكذلك في جوانبها التنظيمية وانتشارها الجغرافي، والتي ألمح إليها البعض منذ وقت مبكر، كما سبق الذكر، فإن شهري أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٨٧، أي قبيل بدء الانتفاضة بوقت محدود، يشهدان أن الأرض المحتلة كانت مسرحاً لعمليات فدائية نوعية تميزت بجراتها غير المسبوقة تقريباً. فخلال هذين الشهرين، تمكنت المقاومة من

انجاز عدد من الغارات قتل على إثرها خمسة جنود إسرائيليون، بينهم اثنان قتلا بالقرب من مدينة حيفا في العمق الإسرائيلي. وذلك في مقابل استشهاد وجرح أكثر من ٧٥ شخصاً، واعتقال ٦٠ إدارياً، وإبعاد اثنين من المواطنين الفلسطينيين. كذلك، جرى حرق أكثر من ٣٥٠ هكتاراً من الغابات و٣ آلاف هكتار من المراعي الإسرائيلية. وإضافة إلى استخدام الحجارة في رشق رموز الاحتلال، لوحظ استخدام فأس في صرع أحد الجنود^(٣). كما شهدت نهاية تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧ غارة فدائية مميزة وغير مسبقة بواسطة طائفة شراعية على معسكر في شمال إسرائيل، أحدثت صدى واسعاً بين السكان في الأرض المحتلة.

على أي حال، أصبح من المتفق عليه أن الانتفاضة التي بدأت أحداثها داخل الأرض المحتلة في الثامن من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧، تمثل حدثاً من أضخم الأحداث التي عرفها الصراع العربي - الإسرائيلي منذ حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، والأضخم في مستوى الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي ربما منذ عام ١٩٤٨. وهي تأتي كحلقة في سلسلة كفاح الشعب الفلسطيني ضد الغزوة الصهيونية منذ أكثر من مائة عام، ولكنها الأكثر توهجاً واستمراراً وشمولية في المكان والزمان منذ عام ١٩٦٧. ويصعب في هذا الموضع إيلاء جوانب كمية كثيرة من الانتفاضة حقها سواء في جانب أنماط المقاومة المدنية أو العسكرية. إذ لا يمكن القطع في عدد الصدمات التي حدثت في إطار المقاومة السياسية، بجميع صفوفها، من الاحتجاج والاضراب حتى التظاهر والاعتصام

والمقاطعات بجميع أشكالها. وينطبق هذا على الجوانب الأخرى من المقاومة العسكرية العنيفة، خصوصاً أن هذه الأنماط تكررت في نموذج الانتفاضة آلاف المرات، وهناك تقديرات متضاربة بين مختلف المصادر الفلسطينية والعربية من جانب، والإسرائيلية من جانب ثانٍ، والغربية المراقبة من جانب ثالث، حول حجم التضحيات التي قدمها الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال. كما أن الخسائر المادية الإسرائيلية هي بدورها موضع تضارب. أما العوائد أو الخسائر المعنوية على جانبي المواجهة في الأرض المحتلة فهي من الجوانب التي لا يمكن حسابها بسهولة.

الأمثلة على هذا التضارب كثيرة، فعلى سبيل المثال: وثقت المصادر الفلسطينية استشهاد ٤٥٥ مواطناً فلسطينياً منذ بداية الانتفاضة وحتى ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٩٨٨. وفي المقابل قدرت المصادر الإسرائيلية الرقم بـ ٣٧٤ قتيلاً حتى ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٨. وتحديث مصادر عربية عن ٣٠٤ من القتلى الفلسطينيين في الفترة ذاتها^(١٠). وبينما أشار أحد المصادر الفلسطينية إلى اعتقال أكثر من مائة ألف فلسطيني حتى تاريخ ٣٠ أيلول/سبتمبر، قدرت المصادر الإسرائيلية الرقم بـ ٢٣٦٠٠ حتى تاريخ ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٨٨. كذلك، قدرت المصادر الفلسطينية هدم، أو إغلاق، ما عدده ٥٥٠ منزلاً حتى ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٩٨٨، أما المصادر الإسرائيلية فلم تعترف سوى بهدم، أو إغلاق، ٨٠ منزلاً فقط في الفترة ذاتها^(١١). وفي نهاية نيسان/أبريل ١٩٨٩، وكان من الشهور الأكثر دموية، أعلنت المصادر الفلسطينية عن

وقوع أكثر من ٤٥ شهيداً، غير أن المصادر الإسرائيلية لم تعترف سوى بسقوط ٣٣ من القتلى^(٣). وفي خطابه أمام مؤتمر القمة العربي انعقد في بغداد (أيار/مايو ١٩٩٠)، أعلن الرئيس الفلسطيني «ياسر عرفات» أنه قد سقط عن الجانب الفلسطيني منذ بداية الانتفاضة حتى تاريخه (٢٨ أيار/مايو ١٩٩٠) ما مجموعه ١١٣٠ شهيداً و ٨٠ ألف جريح و ٨٨ ألف معتقل^(٤). وهذا يختلف كثيراً عما أعلنه مصدر عربي آخر، ذكر أن عدد الشهداء قد بلغ في الفترة ذاتها ٨٧٦ شهيداً^(٥). كما يختلف نسبياً عما أعلنه مصدر فلسطيني من أن عدد الشهداء في الفترة ذاتها أيضاً بلغ ١١٧٠ شهيداً و ٧٤ ألف جريح و ٧٨ ألف معتقل^(٦). ويختلف عما أوردته صحيفة ميدل ايست انترناشيونال حين ذكرت في ٢٥ أيار/مايو ١٩٩٠ أنه قد سقط في الضفة والقطاع منذ بدء الانتفاضة ٩١١ قتيلاً. وفي بعض الأحيان نعرثر على تضارب في الاحصاءات التي تعلن عنها المصادر الإسرائيلية ذاتها، فقد أعلن أرييه شاليف قائد المنطقة الوسطى (الضفة الفلسطينية) أنه وقع في العام الأول للانتفاضة ٢٣٠٩٢ حادثة معادية للاحتلال^(٧)، بينما كانت مصادر إسرائيلية أخرى قد أعلنت أن هذا العدد بلغ ١٣٣١٩ بين بداية الانتفاضة وحتى ٣٠ آب/أغسطس ١٩٨٨^(٨). ولا يعقل أن يكون حجم الفارق خلال الشهور الثلاثة من آب/أغسطس وحتى كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٨ نحو عشرة آلاف حادثة.

لا يحتاج الأمر إلى مزيد من الأمثلة من هذا القبيل لاثبات ما قد تنطوي عليه عملية متابعة الأرقام المجردة من خداع، وبخاصة

بسبب التعتيم الإعلامي الذي اعتمدته سلطات الاحتلال والمغالطات التي بثتها هذه السلطات في مناسبات كثيرة. ومع ذلك فمن المؤشرات ما يدل على أن وقائع الانتفاضة تشكل مجتمعة مواجهة بمعنى معين بين شعب الأرض المحتلة بكامله وسلطات الاحتلال بكل رموزها، وأنها سعت إلى تجسيد حلم الثورة الذي تحدث عنه رواد المقاومة الفلسطينية وتطلعوا إليه. وهناك من انتقد هذه الثورة، ساعياً إلى كمالها، منذ عام ١٩٦٧. وإذا كان أرييه شاليف قد أشار إلى ٢٣٠٩٢ حادثة معادية للاحتلال خلال العام الأول للانتفاضة، فهذا الرقم - المشكوك في صحته - يكاد يقترب من ضعف عدد العمليات الفدائية بكافة أنماطها، طوال ستة عشر عاماً (بين عام ١٩٦٥ وعام ١٩٨١)، التي بلغت، طبقاً لمصدر فلسطيني، نحو ١٣ ألف عملية^(١٢). كما أن التقرير الرسمي الذي أعده مركز «عوفداه» للمعلومات والتوثيق والإعلام، والذي تشرف عليه أوساط يمينية في إسرائيل، أعلن أنه «منذ بداية الانتفاضة وحتى نهاية مايو ١٩٩٠ تم تسجيل ٨٩٧٩٦ حادثة محوم في الضفة والقطاع ضد مختلف رموز الوجود الإسرائيلي عسكرية ومدنية»^(١٣). وهذا الرقم يعادل سبعة أضعاف العمليات الفدائية في فترة الستة عشر عاماً المذكورة.

إن اعتماد لغة الأرقام في حساب التضحيات التي بذلها أبناء الأرض المحتلة في سياق الانتفاضة، قد لا تفي هذا الجانب حقّه، وينطبق الأمر ذاته عند محاولة حساب الخسائر في الجانب الإسرائيلي، أيضاً. فثمة تضحيات فلسطينية وخسائر إسرائيلية

يصعب قياسها بهذه اللغة الجافة. ومع ذلك، قد يكون من المفيد، في هذا الموضع، إلقاء نظرة عامة على ما طرحه الأرقام من حقائق كيفية، قدمها مسار الانتفاضة، بعد مرور أكثر من عامين على بدايتها، وذلك قبل القاء نظرة عامة أخرى على تطور أداء الانتفاضة واتجاهاتها التنظيمية، ثم حدود تأثيرها في مواجهة الاستعمار الإسرائيلي.

تبين قراءة الأرقام المقارنة في جانب العطاء الفلسطيني المتعلق بعدد الشهداء وتوزيعهم بحسب السن والجنس ومناطق الاستشهاد، وعدد الجرحى والمعتقلين والمبعدين، والمحكومين بالسجن الإداري، والموضوعين تحت الإقامة الجبرية منذ بداية الانتفاضة، تبين هذه القراءة، ارتفاع حجم هذا العطاء بشكل لم يسبق له مثيل منذ بداية الاحتلال عام ١٩٦٧، وهو عطاء يتناسب، ولا شك، وطبيعة الانتفاضة الفذة بين نماذج المقاومة من الناحية التاريخية.

يلفت الانتباه في جانب ضحايا الانتفاضة (من الشهداء) ارتفاع نسبتهم من الشريحة العمرية بين ١٠ - ٣٠ عاماً من الذكور والاناث^(١٤). وكان متوسط أعمار الشهداء في العامين الأولين من الانتفاضة يراوح بين ٢٠ - ٣٠ عاماً^(١٥). ينتمي معظم أبناء هذه الأعمار إلى الجيل المولود قبيل عام الاحتلال ببضعة أعوام أو عقب وقوع الاحتلال عام ١٩٦٧ مباشرة. ويلاحظ، هنا، أن الانتفاضة أكدت بزخم مشاركة هذه الشريحة الشابة، سقوط قاعدة عامة من

القواعد التي حاولت تجارب الاستعمار الاستيطاني تأصيلها، فالأقرب إلى المنطق أن الأجيال التي تولد تحت الاحتلال تكون أكثر احتكاكاً بثقافته، كما تكون، على الأرجح، عرضة للوقوع في إسهام نماذج الفكرية ودعاواه على الأقل من النواحي السلوكية. وعلى ذلك، فالجيل الذي ولد أو نشأ في ظل واقع الاحتلال الاستيطاني الصهيوني الإسرائيلي في الضفة والقطاع، وقع بين تجربتين: التجربة الصهيونية الإسرائيلية التي مارست عليه ضغوطاً مبرجة لتفريغه من كل ما هو إيجابي، وتجربة المقاومة الفلسطينية العربية الممتدة رغم ما تعانیه من أرزاء كثيرة، وهي قد سعت إلى الحفاظ على توازن الإنسان الفلسطيني وتشبث إيمانه بهويته وبأرضه في ظروف بالغة الصعوبة. وقد جاءت الانتفاضة لتسجل نجاح الاستجابة الفلسطينية لتحدي الغزوة الصهيونية على هذا الصعيد مؤكدة انحياز الجيل الجديد لانتهاه الوطني القومي وثقافته الأعمق تاريخياً، ورغبته في أن يكون، بمعنى ما، الرافعة التي تساعد على نقل واقع شعبه وأمنه نحو آفاق مشرقة^(١١). وقد تحقق هذا الهدف الأخير نسبياً حينما انطلقت بقية الشرائح العمرية لتشارك في الانتفاضة تاركة خلف ظهرها عقد هزائم متكررة، وهو ما يتضح من ملاحظة بقية البيانات المتعلقة بأعمار ضحايا الانتفاضة من الشهداء. لقد خرج الكهول والشيخوخ للمشاركة مع الشباب المنتفض للقيادة، يحدوهم الاعتزاز بهذه القيادات الشابة الجريئة التي خرجت من أصلاهم، وكان لهم دورهم في تربيتها على المعاني الوطنية^(١٢).

وفي الواقع انه من الطبيعي أن يكون الشباب - وهو زبدة أي مجتمع وساعده الضارب على أي حال - في طليعة القوى التي تعطي، وإلى جانب ذلك ثمة أسباب موضوعية أخرى، جعلت من العناصر الشابة الفلسطينية عماد القوى البشرية المنتفضة في الأرض المحتلة على مستوى حركات الشبيبة واللجان الشعبية واللجان الضاربة والقيادات الميدانية. ويذكر من بين هذه الأسباب أن معظم هؤلاء هم من الشباب المثقف في المدن والقرى والمخيمات، الذين تخرجوا من المعاهد والجامعات داخل الأرض المحتلة. ومعظم هذه الجامعات تدخل النشاطات الاجتماعية الميدانية في برامجها الدراسية، الأمر الذي منح هؤلاء الخريجين خبرة ميدانية طيبة وجعلهم يحتكون بواقع شعبهم في مختلف أماكن تجمعاتهم في الداخل. من جانب آخر، مارست البطالة دوراً في إشعار الشباب بفقدان الأمل في مستقبل أفضل في ظل الاحتلال وما جره على المجتمع الفلسطيني واقتصادياته من أزمات. وقد سبقت الإشارة إلى أن واقع الاحتلال مسؤول عن انتشار البطالة إلى حد كبير^(١٨). كذلك، يلاحظ أن أعداداً متزايدة من الشباب من خريجي الجامعات، أخذت في الانضمام إلى صفوف العمال أو صغار المنتجين مسقطة أوهام الترقى الطبقي^(١٩)، وعاملة على الالتفات نحو واقع مجتمعه ومشكلاته ومعاناته من الاحتلال.

وباستثناء قليل من الشهداء المنتمين إلى منطقة الجليل المحتلة منذ عام ١٩٤٨، وهو ما يسجل حضورهم في معمعان مواجهة سلطات الاحتلال إلى جانب اخوانهم في الضفة والقطاع، الأمر

الذي أقلق سلطات الاحتلال والقيادات الإسرائيلية^(٣٠)، فلإن شهداء الانتفاضة الكبرى يتوزعون عموماً بشكل عادل بين الضفة الفلسطينية وقطاع غزة (٤١٩ من الضفة و٢٤١ من قطاع غزة بين ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧ و٨ حزيران/يونيو ١٩٨٩)، بالنظر إلى أن عدد العمليات العسكرية في الضفة بلغ في الفترة ما بين عامي ١٩٨٥ و١٩٨٧ ضعف هذا العدد في القطاع. وهكذا تؤكد تضحيات أبناء الأرض المحتلة في الضفة والقطاع، أثناء الانتفاضة، مرة أخرى ما سبق أن أكدته مرحلة ما قبل الانتفاضة، وهو وحدة الحركة الجماهيرية في الضفة والقطاع، مثل ما تؤكدته وحدة القمع الإسرائيلي في المنطقتين. هذا إلى جانب ما يتأكد بداهة من فشل محاولات الفصم بين مصير الجهتين التي سلكتها سلطات الاحتلال منذ عام ١٩٦٧ عامة، ومنذ منتصف الثمانينات خاصة^(٣١).

هذا، ويتوزع شهداء الانتفاضة منذ بدايتها على مختلف القطاعات السكانية الكبرى في الأرض المحتلة، بخاصة مناطق نابلس وجنين ورام الله والخليل ومدن قطاع غزة الثلاث (غزة وخان يونس ورفح)^(٣٢). وذلك أمر طبيعي، بالنظر إلى أن هذه المناطق هي من المراكز كثيفة السكان، كما أنها تشمل الكثير من مخيمات اللاجئين والقرى، وكذلك بالنظر إلى ما تراه بعض المصادر من أن هناك معازل اجتماعية محددة تتركز فيها قوى الانتفاضة وترتكز عليها. هذه المعازل هي المخيمات التي يتمركز فيها نحو ربع سكان الضفة الغربية ونصف سكان قطاع غزة، وسكان

الأحياء الفقيرة في المدن التي تضم العمال وصغار الموظفين، ثم القرى التي يقطنها أكثر الفلاحين الفقراء^(٣٣).

وإلى جانب الاصابات أمكن إحصاء أكثر من ٦٧ ألف إصابة خطيرة خلال عامين ونصف منذ بدء الانتفاضة، نصفهم من الأطفال (بحسب ما ذكره الرئيس عرفات كما أشرنا من قبل). وقد لا يقدم هذا الرقم الصورة الحقيقية، فالكثير من المصابين دون حالة الخطر، يتلقون العلاج في البيوت أو لدى الأطباء والعيادات المحلية تفادياً للاغارات التي يقوم بها الجنود على المستشفيات، لأن كل جريح يعتبره الجنود من النشطاء الذين ينبغي القبض عليهم. والرقم المذكور يُعدّ، دون شك، كبيراً جداً، بخاصة إذا أخذ عدد سكان فلسطين المحتلة في الاعتبار؛ كما أنه يعكس جانباً من السياسة الإسرائيلية المتبعة تجاه الانتفاضة، والتي استهدفت تعجيز المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال.

في ما يتعلق بالمعتقلين اعترفت السلطات الإسرائيلية بأن عدد المعتقلين، خلال العام الأول ونصف العام الثاني من الانتفاضة، بلغ ٤٩ ألفاً، منهم نحو ألف سيدة، وقد مكث منهم نحو ٦٥٠٠ على الأقل ستة شهور في المعتقل. والواقع أن السلطات الإسرائيلية نفسها قد اعترفت بالعجز عن حصر العدد الصحيح، نظراً إلى كثرة الاعتقالات اليومية والفوضى القائمة في سجلات السجون^(٣٤). ولكن الحديث المتوالي عن إيجاد أماكن جديدة

لاستخدامها سجوناً، فضلاً عن توسيع السجون القائمة بالفعل، هو ما يعطي صورة عن الأعداد الهائلة للسجناء والمعتقلين الفلسطينيين إبان الانتفاضة. وما تجدر الإشارة إليه أن المصادر الفلسطينية ذكرت أن عدد هؤلاء قد وصل إلى مائة ألف معتقل خلال الشهور التسعة الأولى من الانتفاضة^(٣٥). وهو رقم ظهر مدى المبالغة فيه، بالنظر إلى ما أعلنه الرئيس عرفات، أثناء القمة العربية في بغداد، من أن عدد من المعتقلين خلال عامين ونصف هو ٨٨ ألف معتقل.

لقد أجرى «مركز المعلومات لحقوق الانسان الفلسطيني»، في القدس العربية (الشرقية)، دراسة مفصلة على عينة عشوائية من معتقلي الانتفاضة في الفترة بين كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧ ونيسان/ابريل ١٩٨٨، وقد جاءت النتيجة على نحو أظهر أن تهم الاعتقال غير المعلنة للمعتقلين هي النشاط السياسي غير العنيف، والنشاط النقابي وممارسة الحقوق المدنية، وأن سلطات الاحتلال الإسرائيلي تستخدم الاعتقال العشوائي، بهدف الوصول إلى القيادات وتعطيل نشاط المثقفين، بحيث لم يشمل المعتقلون الممثلون في الدراسة أمياً واحداً. كما أن أكثر من ٥٠ بالمائة منهم كانوا من الصحافيين وخريجي المرحلة الثانوية أو الجامعات، و٣٥ بالمائة من الشبيطين نقابياً^(٣٦). وتؤكد نتائج هذه الدراسة من جديد أهمية عنصر الشباب المثقف بين شرائح مجتمع الانتفاضة. كما تشير، من جهة أخرى، إلى عوائد الجهد التنظيمي والمؤسسي داخل هذا المجتمع بخاصة دور النقابات والاتحادات العمالية،

كأطر لتخريج كوادر قيادية في المجتمع الفلسطيني داخل فلسطين المحتلة.

وفي إطار العطاء الفلسطيني، لا يمكن التقليل من شأن الاجراءات الإسرائيلية التي امتدت إلى كافة مظاهر الحياة في الضفة والقطاع، محدثة آثاراً تخريبية بالغة بهدف القضاء على الانتفاضة. فثمة آلاف من ساعات حظر التجول، وأكثر من خمسين حالة إبعاد إلى خارج الوطن المحتل، وأكثر من ألف حالة هدم للمساكن، ترتب عليها تشريد نحو عشرة آلاف مواطن، فضلاً عن إغلاق شبه كامل لكافة المؤسسات التعليمية والتربوية. كذلك، يمكن التوقف عند مهاجمة المؤسسات الصحافية والاجتماعية والاقتصادية وخنق ممارساتها. وقد غطت هذه الاجراءات كافة المدن والقرى والمخيمات، حتى ليتمكن الزعم بأنه لم ينجُ من يد القمع الإسرائيلي الاستعماري شيء في الضفة والقطاع.

التساؤل الذي يُثار والحال كذلك، هو: كيف استطاعت الانتفاضة أن تستمر في ظل هذه الأجواء بحيث تضمن لنفسها الاستمرارية وحسن البلاء؟

إن الاجابة عن هذا السؤال تنتقل بالمراقب الى الاقتراب من حركة الانتفاضة وبنائها التنظيمي وآلياتها أو أسلوب أدائها بصفة عامة وهو جانب انشغل بمتابعته كثير من الدارسين لمسار الانتفاضة. ومن المحاولات الموفقة في هذا الإطار، نتوقف بخاصة

عند ما أورده التقرير الاستراتيجي العربي لعامي ١٩٨٨ و ١٩٨٩ :

لقد قام البناء التنظيمي للانتفاضة، في عامها الأول، على شبكة واسعة من اللجان الشعبية التي تدير العمل اليومي في الأراضي المحتلة، وفقاً للمهام التي تحددها قيادة الانتفاضة، عبر نداءات متتالية. وقد تكونت غالبية هذه اللجان في المدن والقرى والمخيمات بمبادرات شعبية بعد أن أخذت التنظيمات التابعة للفصائل الفلسطينية الرئيسية في تكوين مجموعات من هذه اللجان.

اشتملت هذه اللجان على نوعين رئيسيين، أولهما الفرق الضاربة التي تقود عمليات الاشتباك ضد قوات الاحتلال، باستخدام الحجارة أو الزجاجات الحارقة وأحياناً السكاكين والآلات الحادة؛ وقد اعتبرتها قيادة الانتفاضة بمثابة نواة الجيش الشعبي، الذي أعلن عن تشكيله بالفعل أواخر عام ١٩٨٨. أما النوع الثاني فيشمل اللجان النوعية التي تعمل على تلبية الحاجات الانسانية التي يفرضها استمرار الانتفاضة. وثمة لجان نوعية مختصة بمختلف الأنشطة الحياتية (التموين، الإغاثة والاسعاف الطبي؛ التجارة؛ الاعلام؛ الدعم؛ الاستطلاع؛ الحراسة؛ اللجان النسائية؛ التعليم؛ التضامن مع المعتقلين؛ الزراعة، وغيرها). وقد حققت هذه اللجان أثراً ملموساً في ظروف بالغة الصعوبة، في اتجاه خلق البنية الأساسية للسلطة الوطنية، عوضاً عن سلطة الاحتلال، وهو ما يفسر الجزع الذي سببه للحكومة

الإسرائيلية، التي أصدرت قراراً بتحريمها في آب/أغسطس ١٩٨٨^(٣٧).

ظل هذا البناء التنظيمي محتفظاً بمكوّنيه السابقين في العام الثاني للانتفاضة. ولم يحدث تغير جوهري في تنظيم الفرق أو اللجان المذكورة أو أدوارها ووظائفها، باستثناء تطور اشتمل على اتساع النطاق الجغرافي، بخاصة بالنسبة إلى اللجان الفرعية، وتزايد الدور التنظيمي لحركة المقاومة الإسلامية «حماس» في قطاع غزة، رغم الضربات التي تعرضت لها هذه الحركة في منتصف عام ١٩٨٩، عندما اعتقلت السلطات الإسرائيلية الصف الأول من قياداتها. وتجدر ملاحظة أن بروز دور «حماس» لم يترك تأثيرات سلبية في المكونات السابقة في الساحة^(٣٨).

كذلك، شهد عام ١٩٨٩ تصاعد دور شريحة المثقفين الوطنيين في الضفة والقطاع والقدس الشرقية، بحيث باتوا المعبرين عن الانتفاضة والمتحدثين باسم المطالب الوطنية في أكثر الأحوال.

وإلى جانب تعمق الدور الذي تضطلع به لجان نوعية بعينها، كـلجان الحراسة والتموين والدعم (بسبب اشتداد الحصار الإسرائيلي حول الانتفاضة)، فقد ظهرت لجان التحكيم الشعبية، لكي تقوم بفض المنازعات المحدودة عوضاً عن اللجوء إلى المحاكم الإسرائيلية.

على هذا النحو يمكن القول إن البناء التنظيمي للانتفاضة قد

استكمل ملاحمه الأساسية، بمرور الوقت، بالشكل الذي اعتبره البعض بمثابة نواة للإدارة الفلسطينية البديلة لسلطة الاحتلال^(٣٩).

أما فيما يخص أساليب المواجهة وآلياتها، فقد كانت الانتفاضة أقرب في ممارستها، عموماً، إلى أنماط المقاومة المدنية، وهو ما سيرد تفصيله في نقطة لاحقة. غير أن ما ينبغي الإشارة إليه في هذا الموضع، هو أن الاضراب كان الأسلوب الرئيسي للمواجهة الذي اعتمدت عليه الانتفاضة خلال عامها الأول، سواء أتم ذلك الاضراب بشكل كلي شامل، أم بشكل جزئي في قطاع مكاني أو زمني معين. وقد كانت قيادة الانتفاضة حريصة على تحقيق نوع من التوازن بين أساليب المواجهة المباشرة، بما فيها الاضراب، وبين أساليب الاستقلال الاقتصادي، وقضاء الجماهير لحاجاتها، بما يقتضيه ذلك من إتاحة الفرصة للعمل الانتاجي. هذا فضلاً عن اللجوء إلى أسلوب الاعتصام والتظاهر الذي قاد، غالباً، إلى مواجهات مباشرة مع قوات الاحتلال ورموزه^(٤٠). وقد بدا الحرص ظاهراً لدى المنتفضين بتوجيه من القيادة الفلسطينية العليا (منظمة التحرير الفلسطينية)، على توارى العمل المسلح لأسباب سوف تلي الإشارة إليها.

حافظت الانتفاضة على طابعها المذكور في العامين التاليين بحيث ظل الإضراب، بنوعيه العام والجزئي، مستمراً عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٠. لكن هذين العامين شهدا تطورات جزئية في هذا المضمار... ففي عام ١٩٨٩ انخفض عدد أيام الاضراب في

الشهور السبعة الأولى، ليعود إلى الارتفاع في الشهور التالية^(٣١). وظل الالتزام الجماهيري بالاضرابات العامة قائماً، وبدأت الفرق الضاربة في فرض غرامات على المخالفين للاضراب العام، على أن تحول الغرامات لإقامة مشاريع عامة. وقلّ عدد المشاركين في أعمال التظاهر، دون أن يصاحب ذلك فتور في عمليات الهجوم ضد رموز الاحتلال، كما صعدت قوات الاحتلال عملياتها الهجومية بهدف انتزاع زمام المبادرة من أيدي القوات أو الفرق الضاربة، واجبارها على اتخاذ مواقع دفاعية^(٣٢).

ومن أبرز التطورات التي شهدتها العام الثالث للانتفاضة (١٩٩٠) تزايد معدل استخدام العبوات الناسفة والقنابل اليدوية والآلات الحادة كالسكاكين من قبل الخلايا السرية والفرق الضاربة، وترسخ أساليب العمل الشعبي شبه المسلح بمعدل مؤثر، لكنه تطوّر لا يقود إلى القول بتغير الطابع المدني للانتفاضة. ويبدو أن تصاعد أشكال المواجهة شبه المسلحة الجريئة، جاء كرد فعل على تزايد دور المستوطنين الصهاينة ضد الانتفاضة. وهو دور تم اعتماده بشكل رسمي من جانب وزير الدفاع موشي أريئيل تحت عنوان «زيادة المهام الأمنية للمستوطنين»^(٣٣).

والواقع أن الأعمال الاستفزازية من جانب المستوطنين، بعد انطلاق أيديهم بصورة رسمية، وما استتبعها من ردود فعل من جانب الانتفاضة، قد برزت بصورة ملحوظة خلال مطلع خريف عام ١٩٩٠. وظهر أن رد الفعل الرسمي الإسرائيلي سيكون قاسياً

في حال تصاعد الأعمال المسلحة أو حتى شبه المسلحة (العنيفة) من جانب الانتفاضة^(٣٤)، الأمر الذي ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار، في إطار الجدل الدائر عن جدوى تصعيد الانتفاضة على طريق الكفاح المسلح.

وضمن آليات الانتفاضة وتفاعلاتها، تبرز عمليات بناء الاستقلال الاقتصادي وفك مظاهر الارتباط بالكيان الإسرائيلي، كأحد أهم وجوه البناء الفلسطيني الذاتي في الضفة والقطاع. وتشمل هذه المهمة جوانب متعددة منها مقاطعة السلع والمنتجات، ومقاطعة العمل في المنشآت الإسرائيلية والامتناع عن دفع الضرائب^(٣٥). ومن الواضح أن هذه الجوانب تقع في دائرة النضال المدني الذي اعتمدته الانتفاضة منذ البداية.

في هذا السياق، شهد العام الأول للانتفاضة مقاطعة جزئية للسلع الإسرائيلية، الكمالية منها بصفة خاصة. كما تمت المقاطعة الشاملة للعمل في المستوطنات، لكن لم يمكن الوصول إلى مقاطعة واسعة للعمل داخل إسرائيل، فهناك أعداد كبيرة من الفلسطينيين الذين لا دخل لهم سوى من عملهم في إسرائيل، ويتراوح عددهم بين ١٠٠ و ١٣٠ ألفاً، بحسب ظروف العمل ومواسمه. وهذا عدد ضخم يصعب توفير أعمال بديلة له داخل الأرض المحتلة في المدى القصير. لذلك، أخذت نسبة المقاطعة تتناقص بمرور الوقت. ومع هذا، فغالباً ما كان العمال يلتزمون تماماً بأيام الاضراب فيمتنعون عن الذهاب لأعمالهم داخل إسرائيل.

وقد بذل أبناء الضفة والقطاع جهوداً لاللتزام بعدم دفع الضرائب في العام الأول، وسعوا إلى تطوير الاقتصادات المنزلية، رغم صنوف القمع التي تعرضوا لها^(٣٧).

وفي عامها الثاني، تعمقت تجربة الانتفاضة بحيث تحولت إلى أسلوب حياة ورتابة يومية. وإذا كان ذلك قد عبر، من ناحية، عن طول النفس الوطني الفلسطيني، فإنه، من ناحية أخرى، قد أتاح الفرصة للسلطة المحتلة لتعايش مع هذا الواقع، وتتفنن في استخدام الآليات المناسبة لمواجهته.

ومن جهتها، استمرت القيادة الموحدة للانتفاضة خلال عام ١٩٨٩ في التأكيد على ضرورة مقاطعة السلع والامتناع عن دفع الضرائب وزيادة الاعتماد على الانتاج الوطني، مع ملاحظة تراجع الدعوة إلى مقاطعة العمل داخل إسرائيل مقابلة بعام ١٩٨٨^(٣٨).

حققت الانتفاضة، عملياً، انجازاً في مجال مقاطعة السلع الإسرائيلية. وحتى منتصف العام الثاني للانتفاضة، كانت حصيلة الصادرات السلعية للأراضي المحتلة قد انخفضت - بحسب التقديرات الرسمية الإسرائيلية - بنسبة ٤٠ بالمائة، وقلّت واردات إسرائيل منها بنسبة ٤٨ بالمائة. كما استجاب أبناء الأرض المحتلة لمتطلبات المواجهة، فانخفض استهلاكهم في الضفة بنسبة ١٦ بالمائة وفي القطاع بنسبة ٣ بالمائة. وانخفض، في الوقت نفسه، الناتج القومي للأراضي المحتلة بنسبة ١٣ بالمائة (مقابلة بعام ١٩٨٧).

من جهة أخرى، لم تسجل مقاطعة العمل داخل إسرائيل تراجعاً ملموساً بمرور الوقت، فهذه العملية تحتاج، ولا شك، إلى إيجاد مصدر رزق بديل لآلاف الغفيرة من العمال وأسراهم، الذين يقدر دخلهم السنوي بما يقرب من ٣٤٠ مليون دولار سنوياً^(٣٨).

والواقع أن آليات المواجهة الاقتصادية، وصولاً إلى مستوى العصيان المدني الشامل، تحتاج إلى ما هو أكثر من مجرد الإرادة الصلبة لأبناء الضفة والقطاع. إنها تحتاج، أساساً، إلى دعم جدي كبير، مالياً واقتصادياً؛ كما تحتاج إلى جهد ووقت يتم فيهما إعادة هيكلة الاقتصاد الوطني الفلسطيني في الأراضي المحتلة، بما يتناسب والأهداف المرجوة، وذلك بعد مرور أكثر من عشرين عاماً على عمليات الربط المعقدة لاقتصادات الضفة والقطاع بعجلة الاقتصاد الإسرائيلي على النحو الذي سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول.

الانتفاضة وحدود تأثيرها على الجانب الإسرائيلي

لم يعد ثمة خلاف حول كون الانتفاضة الفلسطينية قد أحدثت أصداء بعيدة على المستويات المختلفة للصراع العربي - الإسرائيلي. لكن الجدل يثور عند مقارنة حدود هذه الأصداء، بخاصة تأثيرها في الجانب الإسرائيلي. والتأثيرات في هذا الإطار ذات أكثر من شق، فبعضها يمكن تجاوزه بمرور الوقت، وبعضها يمس الثوابت

ويصعب تعديله بشكل جوهري، الأمر الذي يتضح من متابعة التفاعلات التي صاحبت الانتفاضة منذ بدايتها على صعد إسرائيلية مختلفة.

وبدايةً، يمكن القول، بكلمة جامعة، إن الانتفاضة ليست حدثاً عابراً على إسرائيل، ولكنها معلم أساسي سيكون عليها أن تتوقف عند دلالاته على مستوى الفكر والحركة. وهكذا، فالتضحيات الفلسطينية في سياقها لم تكن بلا مغزى على الإطلاق.

لقد بدا أن الانتفاضة قد حركت ماء آسناً في إسرائيل، وأبرزت الحاجة الى تفكير جديد، وبفعلها طرحت أسئلة وعلامات استفهام لم تكن ذات أهمية منذ عام ١٩٦٧، وربما منذ عام ١٩٤٨. أساس هذه الأسئلة الاقرار باستحالة العودة إلى زمن ما قبل الانتفاضة، والاقرار بوجود كيانين متناقضين، من حيث الانتفاء والمصالح والتطلعات، وضرورة ايجاد مخرج لمثل هذه الوضعية.

ولأن إسرائيل تضم تشكيلة واسعة من القوى الشعبية والحزبية متباينة الخلفيات والمصالح، فقد جاءت الاستجابات لكي تعكس اتجاهات مختلفة تراوحت بين مواقف القوى التي تدعو إلى التخلص من الفلسطينيين بالابادة أو الترحيل القسري (Transfer)، والاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في الاستقلال على جزء من وطنه المحتل.

على صعيد الرأي العام، يلاحظ وجود انفعال بالانتفاضة، كما لم يوجد انفعال بأي حدث آخر منذ قيام الدولة الصهيونية، بخاصة منذ حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣. وقد تبين من استطلاع للرأي أجراه «مركز البحوث الاستراتيجية» في جامعة تل أبيب، أن الإسرائيليين أصبحوا أقل ثقة بقدرة إسرائيل على الصمود في المستقبل، إزاء الأخطار التي تهدد وجودها^(٣٩).

مع ذلك، فإن استجابة القسم الأعظم من الشارع الإسرائيلي، تعد استجابة سلبية. فرغم تظاهر الآلاف، ودعوتهم إلى تحقيق تسوية سياسية مع الفلسطينيين، وإعلان التعاطف مع المتضررين من الإجراءات الحكومية الاحتلالية، ورغم بروز أكثر من خمسين حركة احتجاجية على استمرار الاحتلال، رغم ذلك كله، فإن هذه القوى الاحتجاجية لا تشكل سوى نسبة مئوية محدودة، كما يبدو أن الزمن الإسرائيلي لا يعمل لمصلحتها.

وتؤكد هذه الجوانب في نتائج استطلاعات الرأي العام، التي تعكس الميل المتزايد، لدى الجمهور الإسرائيلي نحو التطرف والفاشية^(٤٠). ويفسر بعض المراقبين هذا الجمود بالمحاولات المستمرة للقيادة الصهيونية والإسرائيلية للبقاء على صورة العدو العربي - الفلسطيني ثابتة في الذهن الإسرائيلي، وخوف النخبة الحاكمة الإسرائيلية من إمكانية تحرر العقل الإسرائيلي من شبح العدو العربي، نظراً إلى ما سيحدثه هذا التحرر من اهتزاز في سلم القيم والثقافة السياسية السائدة^(٤١). كما يفسر بحقيقة أن

الانتفاضة الفلسطينية لم تكسر المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، وهي أساس الشعور بالتفوق لدى الشارع الإسرائيلي.

والواقع أن ما يسمى الاعتدال الفلسطيني، الذي تم التعبير عن أعظم رموزه أثناء الانتفاضة (كلاعتراف بإسرائيل ذاتياً)، لم يلق صدًى لدى الشارع الإسرائيلي، وما زالت القيادة الإسرائيلية تعتبر هذا الاعتدال مجرد نوع من الخداع، متجاهلة في ذلك حتى تقارير الاستخبارات الإسرائيلية، التي اعتبرت أن الطروحات الفلسطينية ليست من قبيل الخداع^(١١). أكثر من ذلك أن جل الجمهور الإسرائيلي قد برر استخدام جنوده للقوة والعنف ضد الانتفاضة، ففي أيلول/سبتمبر ١٩٨٨، رأى ٣ بالمائة من الإسرائيليين أن حكومتهم تنتهج سياسة لينة جداً في مواجهة الانتفاضة.

لقد انعكست هذه الرؤى على الموقف الشعبي من آفاق التسوية السياسية. ذلك أن نسبة ١٩ بالمائة فقط من الإسرائيليين كانت تأمل في آذار/مارس ١٩٨٩، أي عقب مرور نحو عام ونصف العام على الانتفاضة، بوجود سلام مع منظمة التحرير الفلسطينية^(١٢). كما أن الجمهور الإسرائيلي وضع في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨ أوراقه في صناديق الأحزاب التي تنادي باستمرار الاحتلال أو بطرد الفلسطينيين من وطنهم. وبذلك جاءت انتخابات الكنيست الثانية عشرة، ومحاولات طرح الثقة فيما بعد، لمصلحة هذه الأحزاب.

كذلك، تأكد انجراف المجتمع الإسرائيلي وراء الأحزاب اليمينية والدينية والقوى الارهابية (مثل حركات هتجيا، وتسوميت، وموليدات)، في نتائج الانتخابات البلدية التي جرت في شباط/فبراير ١٩٨٩، والتي عززت سلطة تلك الأحزاب والقوى على صعيد الحكم المحلي والادارة المحلية. وقد علق اسحق شامير زعيم الليكود على تلك الانتخابات بالقول «إن هذه النتائج تعكس أكثر فأكثر تحول الليكود إلى حزب مركزي في إسرائيل، حزب يؤمن به الشعب ويؤيد سياسته»^(٤٤).

واضح أن رصد المسار العام لاتجاهات الرأي العام ومواقف القوى السياسية في إسرائيل، في غضون تفاعلات الانتفاضة، يشير إلى مزيد من التصلب. ولكن كيف ينسجم هذا التوجه والقول إن الانتفاضة قد أحدثت أثراً بعيدة في المشروع الصهيوني برمته؟

إن الاستجابة الإسرائيلية للانتفاضة على النحو المذكور لا تمثل سوى الجزء البارز من رد الفعل، فما أحدثته الانتفاضة يغوص في أعماق المشروع الصهيوني. فالانتفاضة، في بعدها الاستراتيجي، جسدت الحضور النضالي للشعب الفلسطيني على أرض الوطن، باعتباره النقيض الموضوعي للمشروع الاستيطاني الصهيوني، وطبقاً لأحد التفسيرات، فإن الإسرائيليين، والصهيونيين عموماً، قد تعاملوا مع الانتفاضة من هذا المنظور، فرأوا فيها حالة استراتيجية سيكون لها مردوداتها على الأبعاد الجذرية للصراع مع

العرب والفلسطينيين. ولهذا، فإن سلبية الموقف الإسرائيلي إزاء الانتفاضة تعكس هذا الخوف العميق، وتفسر الرغبة المحمومة في إجهاضها أو الحد من فاعليتها، أو اظهار عدم الانشغال بآثارها. قد يكون مناسباً لتصوير هذه الوضعية ذلك الوصف الذي ذكره أحد الكتاب الإسرائيليين حين قال «وسط كل هذا النشاط تبدو إسرائيل كالنصب التذكاري المصنوع من حجر النازلت، الذي لا يسمع، ولا يتنفس، ولا يفكر، وكان عجلة الزمن قد توقفت عن الحركة»^(١٥).

تبدو آثار الانتفاضة بعيدة الغور عند تفنيد مفردات الاستجابة الإسرائيلية، وليس فقط اجمالها، اعتماداً على استطلاعات الرأي أو برامج الأحزاب السياسية. وعلى سبيل المثال، فإنه عندما قتل أحد الجنود حرقاً في معسكر البريج في قطاع غزة في أيلول/سبتمبر ١٩٩٠، نادى بعض الإسرائيليين بهدم المخيم وضم قطاع غزة. بينما رأى البعض ضرورة التخلي عن القطاع الذي يشكل شوكة في خاصرة الدولة دون جدوى. وبين الطرفين قامت القوات الإسرائيلية بهدم عشرات المنازل والمتاجر حول مكان الحادث، وهو ما يبرز أن كسر الانتفاضة يمثل في حد ذاته هدفاً ينبغي تحقيقه قبل الحديث عن المستقبل السياسي للأراضي المحتلة، وكمقدمة ضرورية لذلك؛ وهذا ما لم يتحقق رغم مرور ثلاثة أعوام على بدايتها.

لقد استهلكت إسرائيل جهداً كبيراً للقضاء على الانتفاضة. وفي نهاية عامها الثاني، اعترفت جميع التقويمات الإسرائيلية بأن

الانتفاضة أثبتت قدرتها على الاستمرار، وأشار بعض التقويمات الى ما سماه «ظاهرة مؤسسة الانتفاضة». ومع استمرار الانتفاضة للعام الثالث على التوالي، أيقن بعض المصادر الإسرائيلية أن «تراجع الانتفاضة ليس إلا وهماً، فقد تضاعفت حوادث مناهضة الاحتلال مرتين تقريباً في فترة الشهور الأربعة الأولى من عام ١٩٩٠ مقارنة مثلها في العام الماضي عن الفترة ذاتها. وبلغت الأرقام من ١٢٤٠٥ إلى ٢٣٨٥٩ حادثة على التوالي...»^(٢٦).

وبينما رأى البعض أن هذا الاستمرار هو كل ما أنجزته الانتفاضة، مشيراً إلى أن المجتمع الإسرائيلي أصبح قادراً على التعايش معها، فإن نفعاً آخر لا ينفي أن الانتفاضة قد حققت أهدافاً مهمة؛ بل إن البعض يحذر الإسرائيليين من التهرب من الاستنتاجات التي يفترض أن تؤدي إليها، والوقوع في أوهام القضاء عليها وتجاهلها. ووفقاً لهذه الرؤية، يرى مسؤولون إسرائيليون، أن أية حركة سياسية في إسرائيل لم تجابه تحدياً يشابه تحدي الانتفاضة، وأن البرامج السياسية للأحزاب قد عجزت عن الاستجابة لهذا التحدي، ولذلك فإن البرامج السياسية الإسرائيلية تعكس حقائق ما قبل الانتفاضة!^(٢٧)

مهما يكن من أمر فالانتفاضة أدخلت الكيان الصهيوني في طور جديد من التفكير، بغض النظر عن سلبية نتائج هذا التفكير في الأجل المنظور، وما كان لها أن تهدم الكيان الصهيوني من أساسه في ظل المتغيرات التي أحاطت بها بخاصة محدودية الأداء العربي

المرافق لها - كما سنشير إليه في مواضع لاحقة من الدراسة - لكنها طرحت، ولا شك، خسائر سيكون لها بعدها على الجانب الإسرائيلي، كفشل حلم الاستقرار وفرض الأمر الواقع في الضفة والقطاع والانشغال بمصير الكيان الصهيوني في جو العداء الفلسطيني بالأساس، والتآكل القيمي، وافتضاح هشاشة النظام الأخلاقي المزعوم للصهيونية أمام الحلفاء، واهتزاز قيمة القوة الإسرائيلية المطلقة، وتنامي الشعور بحدود هذه القوة.

كذلك ينبغي أن تحسم من قوة الإحتلال الإسرائيلي كل مظاهر البناء الفلسطيني الداخلي، مادياً ومعنوياً. فهذه المظاهر هي في التحليل الأول والأخير، أحد سبل تعميم قوة المجتمع المدني الفلسطيني الحالية والمستقبلية في مواجهة الاستعمار الإسرائيلي.

ثانياً: الانتفاضة ومسار النضال الفلسطيني: رؤية مقارنة

لقد جاءت الانتفاضة الكبرى كأحد أشكال المقاومة العربية الفلسطينية للمشروع الصهيوني. وبالنسبة للبعض ممن فاجأهم الحدث، فإن هذا الشكل اعتبر شكلاً مستحدثاً من أساليب المواجهة: نموذج استعماري استيطاني بالغ القوة ومدعوم من قوى خارجية لها مصلحة أكيدة في استمراره وتفوقه في محيطه الإقليمي (العربي)... ومع ذلك، لنا أن نفترض أن الحديث عن الانتفاضة الكبرى لعام ١٩٨٧ كنموذج جديد من أساليب مواجهة المشروع

الصهيوني هو حديث لا يعبر عن حقيقة مطلقة. فهو يغفل تجربة المقاومة العربية الفلسطينية إبان الثلاثينات، والتي عرفت بالثورة الفلسطينية الكبرى بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩، كما أنه يغفل الانتفاضات الفلسطينية المتوالية ضد الاحتلال الإسرائيلي منذ عام ١٩٦٧. بعبارة أخرى، ثمة نموذجان لانتفاضات الشعب العربي الفلسطيني، أحدهما يعود إلى نصف قرن خلا، والآخر أقرب تاريخياً.

إن كل هذه الانتفاضات (بغض النظر عن المسميات التي حملتها) شكلت خبرة تاريخية نضالية متراكمة، وهذه الخبرة هي التي تعطي مفهوم النضال الفلسطيني الممتد معنى ومضموناً، وعلى أساسها يتم وصف حركة التحرر الفلسطيني كأقدم حركة تحرير موجودة في الوقت الراهن.

إن أي مراقب متابع لمسار النضال الفلسطيني منذ البداية، سوف يقف على الفور عند أثر الخبرة المتراكمة في مسار الانتفاضة الأخيرة، بخاصة الخبرة التي طرحتها تجربة الثورة الكبرى في الثلاثينات، فهي من أكثر التجارب التي تثير الفضول لدراساتها دراسة مقارنة مع الانتفاضة. وفي السياق نفسه، ينبغي العناية بموقع هذه الانتفاضة الكبرى من الانتفاضات الأكثر محدودية منذ عام ١٩٦٧، والتأثير المتبادل بين المقاومة في الضفة والقطاع والمقاومة الوطنية اللبنانية للوجود الإسرائيلي في لبنان منذ عام ١٩٨٢.

١ - بين ثورة عام ١٩٣٦ وانتفاضة عام ١٩٨٧

يفصل بين هذين الحدثين الكبيرين نصف قرن كامل، فحين اندلعت الانتفاضة الكبرى عام ١٩٨٧، كان الشعب الفلسطيني يستحضر الذكرى الخمسين لثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩. لذلك، يفترض أن متغيرات كثيرة طرأت خلال هذه الفترة، فقد تعمق الصراع على أرض فلسطين ومن حولها، وورث المشروع الصهيوني وحده، المشروع الاستعماري البريطاني الصهيوني على أرض فلسطين، وتغيرت أدوار الأطراف المباشرين والأطراف غير المباشرين في الصراع، كما طرأت تطورات على بيئة الصراع الفلسطيني - الصهيوني (أو العربي - الصهيوني) الإقليمية والدولية وكذا على صعيد التنظيم الدولي. ومع ذلك فثمة ثوابت كثيرة لم يطلها التحول كثيراً، منها ثبات الرغبة الفلسطينية في التحرر والسيادة والاستقلال على أرض فلسطين (كلها أو بعضها!)، ووراثته الاستعمار الصهيوني لمدرسة القمع البريطاني بخاصة في جانب قوانين الطوارئ التي وضعها البريطانيون عام ١٩٣٦ (مع اجراء التغيرات والاضافات التي تطلبتها التطورات منذ ذلك الحين)، واعتماد المشروع الصهيوني على القوى الغربية، بخاصة زعامتها الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

مع أخذ هذه المتغيرات والثوابت (وغيرها) في الاعتبار، يلاحظ أن كلتا التجربتين النضاليتين تمتد في العمق الزمني والمكاني والبشري، وكلا ومنها يمثل، في موضعه من المواجهة على أرض

فلسطين، نقطة تحول وعلامة فارقة . ومن المحتمل تماماً - كما سبق الذكر - أن مسار ثورة عام ١٩٣٦ كان في ذهن المتفضين وقيادتهم أو بعض المراقبين بسبب هذا التماثل . ومن المتوقع أن تكون المقابلة بين الواقعتين أكثر قدرة على إبراز مفعول الخبرة التاريخية للنضال الفلسطيني على مسار الانتفاضة ، وأكثر تركيزاً على جوانبها المختلفة .

وتشمل هذه الرؤية المقابلة القاء الضوء على بعض المحاور المهمة بالنسبة الى الحدثين، وهي على التوالي: الارهاصات التي سبقت وقوع كل منهما، وأسبابها المباشرة، والقوى المشاركة فيها، والقيادة، وأنماط المواجهة والنضال، والموقف العربي تجاهها.

أ- الإرهاسات

عند مراجعة التحركات الجماهيرية خلال الأعوام العشرين التي سبقت الثورة الكبرى (بين عامي ١٩١٦ و١٩٣٦)، ثم مراجعة التحركات الجماهيرية المماثلة خلال الأعوام العشرين قبل اندلاع الانتفاضة الكبرى (بين عامي ١٩٦٧ و١٩٨٧)، فإننا نكاد نعثر على ظاهرة مشتركة هي أن كلا من الثورة والانتفاضة كانت بمثابة قمة ناضجة لبناء من الانتفاضات والأعمال النضالية في المرحلة التي سبقت .

حصلت عدة انتفاضات جماهيرية، قبل عام ١٩٣٦، ضد التحالف البريطاني الاستعماري - الصهيوني المشترك . حدثت

الانتفاضة الأولى في القدس في نيسان/ابريل ١٩٢٠، وتكررت في أيار/مايو ١٩٢١، وقد عادت هاتان الانتفاضتان، بحسب ما ورد في تقرير لجنة التحقيق المعروفة بلجنة هايكرفت، الى موقف العرب المعادي لليهود، . والناجم عن أسباب سياسية واقتصادية مرتبطة بالهجرة اليهودية وإنشاء الوطن القومي اليهودي .

واتسم العمل الوطني الفلسطيني، بين عامي ١٩٢٢ و١٩٢٩، بالركود، بشكل عام، باستثناء التظاهرات التي قامت بها الجماهير الفلسطينية ضد زيارة بلفور لفلسطين عام ١٩٢٥، وتظاهرات التأييد للثورة السورية الكبرى بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧ . وفي رأي البعض أن ذلك الركود كان يعود إلى تردد القيادة الوطنية في الصدام مع القوى الاستعمارية البريطانية - الصهيونية من جهة، وطغيان الشعور بعدم تكافؤ القوى بين الاستعمار والحركة الوطنية من جهة أخرى. غير أنه، على إثر اعتداء يهودي على حرمة المسجد الأقصى، اندلعت الانتفاضة المعروفة بهبة البراق، في آب/أغسطس ١٩٢٩، وتميزت بحدوث مواجهات عنيفة سقط على إثرها عدد كبير من الشهداء الفلسطينيين (١١٦ شهيداً) والقتلى اليهود (١٣٣ قتيلاً)، وعدد أكبر من الجرحى من الجانبين^(٤٨).

هذه الانتفاضات المختلفة غلب عليها، في عمومها، الطابع الموقت والمتقطع من الناحية الزمانية والمكانية، وافتقدت التخطيط الدقيق والتنظيم المحكم، الأمر الذي جعلها تخمد بسرعة .

وبالمثل، شهدت الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧ سبع انتفاضات حدثت على فترات زمنية مختلفة، قبل اندلاع الانتفاضة الكبرى في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧. وقد ذكرنا في موضع سابق شيئاً عن الانتفاضات التي حدثت بعد عام ١٩٨٢. أما بالنسبة إلى الانتفاضات السابقة على ذلك العام، فقد وقعت الانتفاضة الأولى بعد مرور بضعة شهور على الاحتلال، وأدت دوراً مهماً في رفع المعنويات المنهارة في أعقاب هزيمة حزيران/يونيو القاسية وصدمة الاحتلال، وكان مما أبرزته هذه الانتفاضة من بين أمور كثيرة، أن جمهور المواطنين الواسع، وبشكل خاص الحرفيين وسكان القرى، كان بعيداً عن الاشتراك بفاعلية في النضال اليومي للجماهير. لذلك، كان الطابع الغالب عليها، هو التحرك الطلابي على صعيد المدارس بمستوياتها المختلفة. كذلك تحركت هذه الانتفاضة بشكل عفوي وموقت، فلم يقدر لها الامتداد المكاني أو الزمني^(٩١).

أما الانتفاضة الثانية فاندلعت في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٤. وجاءت مواكبة لارتفاع أسهم منظمة التحرير الفلسطينية في ذلك العام، على الصعيدين العربي والدولي، بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣. وقد امتازت برفع شعارات الولاء للمنظمة، ورفض الاحتلال الإسرائيلي والحكم الأردني معاً، وبأنها كانت مخططة بشكل واضح، بهدف تأكيد صفة المنظمة كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني^(٩٢).

جاءت الانتفاضة الثالثة في مطلع ربيع عام ١٩٧٦، وتمركزت حول يوم الأرض في ٣٠ آذار/مارس من ذلك العام، مؤرخة بذلك بداية الإحياء التقليدي لهذه المناسبة منذ ذلك الحين. لقد مثلت هذه الانتفاضة رد فعل قوياً على تصاعد الضغوط الإسرائيلية في إطار السياسة الاستيطانية، وكانت علامة فارقة على طريق مشاركة أبناء الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال الصهيوني منذ عام ١٩٤٨، لنضال إخوانهم في الضفة والقطاع. كذلك أدى اتساع النشاط الاستيطاني، الذي قامت الانتفاضة للاحتجاج عليه، إلى تحريك قطاعات جماهيرية جديدة في خضم النضال اليومي ضد قوات الاحتلال، ومن ذلك تحرك قطاعات أوسع من الفلاحين وملاك الأرض. وبذلك لم تعد المشاركة الطلابية، إلى جانب بعض الحرفيين وسكان المخيمات وعمال المدن، هي السمة المميزة للقوى المشتركة في أعمال الانتفاضة، بل دخلت قوى إجتماعية بفاعلية أكبر في هذا الإطار، وبصفة خاصة سكان القرى الصغيرة^(٥١).

لقد كانت هذه الانتفاضات تعبيراً متطوراً عن رفض الاحتلال، وعدم الاستكانة لسياسة الوضع الراهن، التي سعت إسرائيل إلى فرضها على أبناء الضفة والقطاع - غير أن بعض المراقبين رأوا - وكانوا محقين فيما يبدو - أنها كانت انتفاضات محدودة في مطالبها، ولم تأخذ الطابع القتالي الصدامي، موسمية في توقيتاتها، ولم تتسم بالاستمرار المتصاعد، بحيث لم يترتب عليها في حينها تراكم خبرات تقود إلى حالة من العصيان التام في مواجهة

قوات الاحتلال^(٣٦). لذا، تأتي انتفاضة ١٩٨٧، في أحد جوانبها، لتشكيل التجاوز العملي لهذه النقائص، من حيث اتسامها بالشمولية الجماهيرية، والامتداد الزمني والمكاني، والمواجهة المستمرة دون انقطاع. ويلاحظ في هذا الاطار ضمور الفارق الزمني بين الانتفاضات المختلفة منذ بداية العقد الثاني من الاحتلال عامة، ومنذ منتصف الثمانينات، خاصة. فثمة سبعة أعوام فصلت بين الانتفاضتين الأولى والثانية (١٩٦٧ و ١٩٧٤ على التوالي)، وستة فصلت بين الثالثة والرابعة (١٩٧٦ و ١٩٨٢ على التوالي). هذا بينما يتواتر وقوع الانتفاضات منذ عام ١٩٨٥ بمعدل واحدة كل عام على الأقل.

ب - الأسباب المباشرة

تفاعلت في عام ١٩٣٦ عدة عوامل على الساحة المحلية الفلسطينية أساساً، دفعت باتجاه انفجار الثورة في ربيع ذلك العام، وقد اقترنت تلك التفاعلات بوجود انعكاسات لا يمكن التهور من أثرها في ذلك الانفجار، سواء من الدائرة العربية أو الساحة الدولية.

على الساحة الفلسطينية، كانت توقعات الفلسطينيين من جانب، واليهود من جانب آخر، بقرب تحقيق معظم تطلعاتهم قد وصلت إلى أوجها، الأمر الذي جعل كليهما يتمسك بمطالبه. فخلال الأعوام الأربعة التي سبقت الثورة تضاعف عدد السكان اليهود في البلاد حتى وصل الى نحو أربعمائة ألف بسبب تدفق

الهجرة اليهودية من وسط أوروبا بشكل خاص، منذ صعود النظام النازي الى سدة الحكم في ألمانيا. وهذا ما بث الخوف في نفوس الفلسطينيين بشدة، فسعوا إلى تغيير النظام الدستوري الفلسطيني تحت الانتداب البريطاني، بصورة تمكنهم من لجم التدفق اليهودي وحفظ حقوقهم^(٥٣).

كذلك انتهجت «الوكالة اليهودية» ممثل اليهود في فلسطين، التي حظيت بمساندة بريطانية صريحة، ما عرف بسياسة «العمل العبري» التي منعت استخدام العمال الفلسطينيين في الأنشطة الاقتصادية اليهودية، الأمر الذي أدى إلى تفاقم البطالة بينهم^(٥٤). وأدت السياسة البريطانية، من جانبها، بكافة وجوهها الاقتصادية والسياسية، وعدم استجابتها لأي مطلب من الجانب العربي الفلسطيني، إلى تصاعد السخط حتى انتهج الشيخ عز الدين القسام النضال المسلح بصفته الوسيلة النهائية للمقاومة وتحقيق الأهداف الوطنية عنوة، الأمر الذي وجه الأنظار إلى فضائل الجهاد^(٥٥).

أما على الساحة العربية، فقد تطلع الفلسطينيون إلى المقاومة كوسيلة تبلغهم ما بلغته أقطار عربية أخرى (كسوريا والعراق ومصر)، التي عقدت معاهدات مع القوى الاستعمارية، على طريق الاستقلال.

كذلك، راقب الفلسطينيون ما يجري على الساحة الدولية، بخاصة تصاعد الأزمة بين بريطانيا وفرنسا من جهة، وألمانيا

وايطاليا من جهة أخرى، وتطلّعون الى استغلال هذه الوضعية وحالة الاستقطاب لتحقيق أهدافهم اعتماداً على سعي كل من المعسكرين (المحور والحلفاء) إلى استئالة العرب^(٥٦).

وقد جاء في تقرير لجنة بيل، وهي اللجنة التي حققت في أسباب الثورة ومطالبها (تموز/يوليو ١٩٣٧)، أن الثورة جاءت بفعل «رغبة العرب في نيل استقلالهم، وكرههم لإنشاء الوطن القومي اليهودي، وانتشار الروح القومية العربية خارج فلسطين، وازدياد الهجرة اليهودية منذ عام ١٩٣٣، وعدم ثقة العرب في سلوك الحكومة البريطانية، وفزع العرب من شراء الأراضي من قبل اليهود، وعدم وضوح المقاصد النهائية التي ترمي إليها الدولة المنتدبة»^(٥٧). ومن الواضح أن تقرير لجنة بيل قد وضع يده على الأسباب الحقيقية للثورة إلى حد كبير.

من الناحية الأخرى، جاءت الانتفاضة إثر بلوغ ممارسات سلطات الاحتلال الإسرائيلي ذروة القهر والقمع من جميع النواحي الاجتماعية والثقافية والتعليمية والاقتصادية والسياسية والاستيطانية على نحو ما فصلته الدراسة في موضع سابق.

ومع أخذ عوامل كثيرة في الاعتبار، يلاحظ أن الأسباب التي دعت إلى انفجار ثورة عام ١٩٣٦ تتقاطع وتلك التي أدت إلى اندلاع الانتفاضة الكبرى بعد خمسين عاماً. فقد جاءت الواقعتان - كما سبقت الإشارة - على أرضية المطالب التاريخية للشعب الفلسطيني في الحرية والاستقلال وتقرير المصير، ووقف الخطر الزاحف على أرض فلسطين، والتصدي للعريضة

الاستعمارية في شكلها البريطاني - الصهيوني في الثلاثينات،
والصهيوني الإسرائيلي في الثمانينات .

ج - القوى المشاركة

إذا لزمنا جانب التعميم، أمكننا القول إن مختلف شرائح الشعب الفلسطيني انحازت للثورة عام ١٩٣٦ وللانتماضة عام ١٩٨٧، فشاركت فيها بنسبة أو بأخرى، غير أنه، عند التطرق للتفاصيل ينبغي الإشارة إلى أن المشاركة الجماهيرية العامة، دون استثناء تقريباً لأية طبقة أو فئة أو شريحة اجتماعية أو عمرية، هي أبرز مظاهر الانتفاضة الكبرى، بينما لم يكن الأمر على هذا النحو إبان ثورة عام ١٩٣٦. فما ميز تلك الثورة اتساع حجم مشاركة الفلاحين وطبقة العمال الناهضة مع استثناءات لا يستهان بها فيما يتعلق بقطاع الموظفين وأبناء المدن، بخاصة كبار الملاك وكبار التجار وأصحاب الوجاهة الاجتماعية التقليدية .

وقد أظهرت دراسة تناولت ٢٨٢ قائداً ممن تولوا مختلف المناصب القيادية في الثورة انتهاء ٦٥ بالمائة منهم إلى الفلاحين، و٣ بالمائة إلى فلاحين استقروا في المدن، و٢٢ بالمائة إلى سكان المدن، و٨ بالمائة إلى البدو، و٢ بالمائة ينتمون إلى الأقطار العربية المجاورة لفلسطين^(٥٨). ويعتبر البعض أن الاضراب الكبير في المرحلة الأولى من الثورة بين نيسان/ابريل وتشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٦، لم يتوقف، وإنما تعرض للاجهاض بفعل عدم اشتراك قطاعات مهمة من الشعب فيه. ومن هذه القطاعات الموظفون الحكوميون ورجال

البلديات. فالموظفون اكتفوا بتقديم مذكرة شديدة اللهجة لسلطة الانتداب بعد مرور أكثر من شهرين على بداية الاضراب، في حين كان اشتراكهم الفعلي ضرورياً لإحداث ارتباك خطير في أجهزة الحكومة كلها. أما البلديات فقد عقد رؤساؤها اجتماعاً ليقرروا ما يفعلونه. ونتيجة لتدخل سلطات الانتداب أضرب نصف رؤساء البلديات وبقي النصف الآخر مداوماً في عمله^(١٩).

من جهة أخرى، لم تجبذ اللجنة العربية العليا (القيادة الفلسطينية) انضمام الموظفين إلى الاضراب ومقاطعة السلطات^(٢٠). وفي السياق نفسه لاحظت القيادة العسكرية للثورة أن بعض المؤسسين أثروا السلامة، في عمومهم^(٢١).

ونتيجة للمشاركة الجادة والمميزة للفلاحين في الثورة، حاولت سلطات الانتداب إثارة الفلاحين على سكان المدن (الأفندية!) كوسيلة لضرب الثورة. وألقيت المنشورات على القرى التي تزين للفلاحين مقاطعة الثوار، وكان مما تضمنته المنشورات أن الثورة قضت على مصالحهم وأن الأغنياء هم الذين يطلبون إلى الفلاحين تضحيات في حين أنهم ينعمون بحياة المدن ولا يعرضون أرواحهم للخطر^(٢٢). ومع هذا الإحجام من قبل بعض القطاعات الجماهيرية، فقد شاركت قطاعات أخرى إلى جانب الفلاحين بأدوار مهمة. من ذلك مشاركة بعض رجال البوليس الفلسطيني، وبخاصة من صغار الرتب، وتعاونهم مع الثوار حتى أن بعضهم التحق بصفوف الثوار. وكان طلاب المدارس، كعادتهم،

أصحاب اليد الطولى في أعمال التظاهر والاضراب. ويذكر محمد عزة دروزة في شهادته عن الثورة ودور الأطفال فيها أن «مراحمين التحقوا بصفوف الثوار وأبلوا بلاءً حسناً ومنهم من كان جريئاً جرأة عجيبة غير متناسبة مع سنه... وكانت لهم ولأطفال أصغر سناً، نواذر طريفة في هذا الباب»^(١٣)، ويستحضر هذا القول صورة مشرقة لماضي آباء «أطفال الحجارة» في الانتفاضة الكبرى.

لقد كانت ظاهرة انعدام المشاركة الجماهيرية العامة أحد المآخذ التي يمكن ملاحظتها عند متابعة تجربة الثورة الكبرى عام ١٩٣٦، ومن هذا المنطلق ينبغي أن تقوم، إيجابياً، المشاركة الشاملة في الانتفاضة المعاصرة. فمن أهم ما يلفت الانتباه أن الانتفاضة ضمت في صفوفها كل أبناء الشعب، حتى أنه لم يعد هناك مواطن فلسطيني بلغ سن الرشد لا يشارك مواطنيه في حركة المقاومة. وقد استشهد، أو جرح أو اعتقل أو تضرر، أناس بين سن السابعة والسبعين. وهو أمر لم يحدث في أية ثورة تحرير وطنية في التاريخ العربي الحديث^(١٤). مع ذلك يعتبر البعض أن للانتفاضة معاقل اجتماعية تركزت فيها بشكل نسبي؛ هذه المعاقل هي المخيمات والقرى والأحياء الفقيرة في المدن. ففي المخيمات يتمركز نحو ربع مجموع سكان الضفة والقطاع (وترتفع هذه النسبة في القطاع لتقترب من النصف)، أما إذا أضيف إلى سكان المخيمات اللاجئون في الأحياء الشعبية في المدن، فيشكل هؤلاء نحو نصف السكان. ويشكل هذا الكم القاعدة الاجتماعية العريضة للانتفاضة. وتتجلى هذه القاعدة في درجة عالية من الاستعداد التضالي، إن بسبب

بؤس أوضاعها الاقتصادية، أو بسبب غموض مستقبلها السياسي ضمن أي تسوية لمسار الصراع العربي - الإسرائيلي. لذا نجد أن شرارة الانتفاضة قد اندلعت ثم تنامت وانتشرت في المخيمات، كما نجد أن نسبة عالية من الشهداء والجرحى والمعتقلين تنتمي إلى هذه القاعدة الاجتماعية (انظر الجدول رقم (٣ - ١)).

جدول رقم (٣ - ١)
أعداد الشهداء حسب المناطق والمدن والقرى والمخيمات
للفترة من ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧
حتى ٨ حزيران/يونيو ١٩٨٩

المنطقة	مجموع الشهداء	في المدن	في القرى	في المخيمات
القدس	٢٧	٧	١١	٩
نابلس	١٠٨	٣٧	٤٣	٢٨
الخليل	٧٣	١٧	٤٢	١٤
رام الله	٥٣	٣	٤٦	٤
جنين	٧٥	٢٣	٤٤	٨
طولكرم	٥٩	١٦	٣١	١٢
بيت لحم	٢٢	٤	١٨	—
أريحا	٢	—	—	٢
قطاع غزة	٢٤١	٤٨	١٣	١٨٠

المصدر: عبد الحبار عدواي، ثمن الاستقلال (القاهرة: دار الشرق الأوسط للنشر، ١٩٨٩)، ص ٢٤

وفي الأحياء الفقيرة من المدن ينتمي السكان إلى الشرائح الاجتماعية من عمال وصغار موظفين. وفي بعض الأحيان تكون المخيمات أشبه بالأحياء الفقيرة، أو العكس.

أما بالنسبة إلى القرى، وهي المعقل الثالث للانتفاضة من الناحية الاجتماعية، فنجد أن النسبة الكبرى من السكان هي من الفلاحين، الأجراء الفقراء أو من صغار الملاك. وبفعل سياسات الاحتلال الاستيطانية، واحتكاكات المستوطنين من جهة، وبفعل الإهانات التي تلقاها أبناء هذه الشريحة عندما تحولوا إلى عمال أجراء داخل الكيان الصهيوني من جهة ثانية، وبفعل ارتقاء الوعي الوطني والسياسي في القرى الفلسطينية عموماً، كانت مشاركة القرية الفلسطينية مشاركة مميزة في مسار الانتفاضة.

وعلى هامش محدود تماماً توجد أقلية تقف من الانتفاضة موقفاً سلبياً، وهذه الشرائح مرتبطة مصلحياً بقوات الاحتلال، ولذلك تتذبذب بين قطبي الاحتلال والانتفاضة، ومنها سمسرة الأراضي وسمسرة العمل وأصحاب المعامل والمقاولون من الباطن وكبار المحتكرين الذين استغلوا الانتفاضة لتحقيق أرباح فاحشة^(٣٩).

والواقع أن قيادة الانتفاضة لاحظت الملامح العامة لتشكيل المجتمع الفلسطيني وأولت كل شريحة اهتمامها، ووزعت على كل منها أعباء النضال التي تتناسب معها. وقراءة سريعة لبيانات هذه

القيادة تفصح، دون شك، عن حصافة وبعد نظر شديدين في هذا الجانب. فالبينات تطلب من العمال مقاطعة العمل داخل المستوطنات الصهيونية في الضفة والقطاع، والتزام العمل بأيام الاضراب العام، وتشغيل المصانع الفلسطينية ومنع تنظيم أي اضراب في المستشفيات. وتطلب من الفلاحين استصلاح الأراضي البور وزراعتها، ومساندة المناطق المحاصرة، والتأكد من أن الاضراب لا يعني عدم فلاحه «أرضنا» وعليهم تعزيز مفهوم الاقتصاد المنزلي المحلي وزراعة حدائق المنازل وتربية الدواجن، لدعم القيمة الغذائية لأبناء شعبهم المضربين. أما التجار فعليهم الالتزام بنظام اغلاق المحلات وفتحها في الأوقات التي تحددها قيادتهم في تحدٍ لسلطة الاحتلال، وعليهم تحدي قوانين الضرائب الإسرائيلية والامتناع عن دفعها. ويساهم أصحاب الأملاك والعقارات في الانتفاضة «عندما يخففون العبء عن المستأجرين ويتفاوضون عن أوقات الاستحقاق أو يتنازلون عن الإيجارات كلياً أو جزئياً». ويمكن لأصحاب المهن والحرفيين تقديم خبراتهم في دعم الجماهير وارشادها وتوعيتها بكيفية تحقيق الاكتفاء الذاتي، ودعم تجربة التعليم الشعبي وتعميمها في ظل إغلاق المؤسسات التعليمية. أما الطلاب والشبيبة فينبغي عليهم مساعدة أبناء مجتمعهم صحياً وتربوياً وتعبوياً والصدام مع قوات الاحتلال (في حدود التقيد بتعليمات القيادة) والانخراط في اللجان الشعبية النوعية متعددة المهام. إلى جانب هذه المهام النوعية، يلفت الانتباه تلك المشاركة النسائية العامة والتي كانت بحق إحدى مفاجآت الانتفاضة من

حيث الحجم والفعالية. عبرت هذه المشاركة عن نضج الوعي السياسي للمرأة الفلسطينية واستعدادها للقيام بدور أكبر من ذلك المتوقع من امرأة في مجتمع ينظر إليه الكثيرون على أنه مجتمع تقليدي يتصدره دور الرجل.

من جانب آخر شددت القيادة الموحدة على أهمية الوحدة الوطنية بين كل فئات الشعب وقواه ومؤسساته، واعتبرت أن هذه الوحدة هي مفخرة الشعب وسلاحه الأقوى في مواجهة أعداء الشعب.

وفي هذا الإطار شددت الانتفاضة ضرباتها ضد العملاء المتعاونين مع سلطات الاحتلال بهدف تحقيق نظافة الشارع الفلسطيني تماماً. وبسبب القضاء على الكثيرين من عيون الاحتلال، قابل بعض المراقبين بين ما حدث عام ١٩٣٦ وما حدث في إنتفاضة الثمانينات مثيرين مقولة «إن الفلسطينيين يقتلون بعضهم البعض». غير أن مراقبين إسرائيليين، أيضاً، كانوا أكثر موضوعية وعقلانية حين رفضوا الزعم السابق باعتبار أن من يتم اغتيالهم في الانتفاضة الكبرى ليسوا أعضاء في أحزاب أو مجموعات سياسية معينة تعارض منظمة التحرير، بل هم من المتعاونين مع إسرائيل بصفتهم الشخصية. . . وذكروا «أنه بمقتل العملاء تفقد إسرائيل ما تبقى لها من عيون الماضي وأشكاله وأي دور لبعض الفلسطينيين إلى جانبها»^(٦٦).

وتؤكد شمولية المشاركة في الانتفاضة الكبرى من حقيقة أنه

ليس متصوراً أن تنتظم أمور الانتفاضة خلال فترة ممتدة بغير توقف دون تجاوب الجماهير بجميع فئاتها. وقد ترتب على هذه الظاهرة أمران مهمان أولهما توزيع الأعباء والمغارم على أوسع نطاق، مما حدّ من احتمالات الارهاق الذي ينتج من استمرار الانتفاضة؛ وثانيهما ظهور الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال بحجم كبير قوامه نحو مليون ونصف المليون، وهو ما يعني عدم استفراذ قوات الاحتلال بفتة معينة بمعزل عن مختلف الفئات والشرائح.

د - القيادة

كان للتحولات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية الثقافية والسياسية التي مرّ بها الشعب الفلسطيني، والتطورات التي أحاطت بالقضية الفلسطينية برمتها خلال الأعوام الخمسين التي تفصل بين الواقعتين، أثر كبير في تطور الأطر القيادية التي تصدرت الساحة المقاومة في فلسطين التاريخية عام ١٩٣٦، وفي الضفة والقطاع عام ١٩٨٧.

في ١٩ نيسان/ابريل ١٩٣٦ تألفت في نابلس أول «لجنة قومية» في فلسطين، ودعت إلى الاضراب العام وتشكيل لجان قومية مماثلة في كل المدن والقرى. وبذلك كانت اللجان القومية أول إطار قيادي اتخذته الثورة^(٨). وفي ٢٥ نيسان/ابريل وتحت ضغط من الرأي العام، تشكلت «اللجنة العربية العليا» من جميع الأحزاب الفلسطينية وأسندت رئاستها إلى مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني^(٩). وقد تبنت اللجنة العليا مطالب الثورة واعتبرت ممثل

الشعب الفلسطيني حتى انتهاء الاضراب عام ١٩٣٩، بينما استمرت في العمل فعلياً حتى عام ١٩٤٦. ويمكن اعتبار اللجان القومية بمثابة قيادات ميدانية إجرائية أو عملية تقوم بالاشراف على سير الاضراب في المرحلة الأولى من الثورة وعلى الحياة اليومية في مختلف الأنحاء^(٣٩). بينما كانت اللجنة العليا تتولى مهام القيادة السياسية للشعب الفلسطيني، والتحدث باسمه أمام سلطات الانتداب وعلى الصعيدين العربي والدولي. وعندما شرع الثوار في الكفاح المسلح ضد تحالف القوات البريطانية والقوى الصهيونية الاستعمارية تشكلت قيادات عسكرية ميدانية لهم كما تألفت منهم تشكيلات مختلفة^(٤٠).

لقد عملت اللجنة العليا واللجان القومية جبهة، وكانت اللجنة العليا تجتمع بالمندوب السامي وتحمل مطالب الشعب وتعلنها. وقد ذكرت اللجنة، في أكثر من مناسبة، أنها لا تسيطر على مشاعر الشعب لأنه قام بالاضراب من تلقاء نفسه وليس للزعماء تأثير عليه^(٤١).

وتجدر الإشارة، في هذا الجانب، إلى أن الوقائع كشفت فيما بعد عن أن اللجنة العليا (القيادة)، بتشكيلها الطبقي وأفقها الفكري وجذورها وعلائقها الاجتماعية، لم تكن التعبير الأمثل عن المطامح الشعبية، واتضح أن أبناء الشعب الفلسطيني قد أخذوا موقفاً متقدماً على قيادتهم من الناحية النضالية. ذلك أن القيادة، بما مثلته من الوجهة الاجتماعية التقليدية، إنتهجت غالباً موقع

الوسيط بين الثورة وسلطة الاستعمار، معتمدة على «حسن نية السلطة»... بينما كان رجال الثورة من أبناء الفلاحين وسكان الريف والطبقة الوسطى في المدن أشد حماساً، بصفتهم أشد إحساساً بالعواقب المترتبة على سلوك الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية. كما أن هذه القيادة لم تمتلك الاطار الفكري النظري المناسب والمتناسك حول طبيعة المواجهة مع العدو. وبحكم هذه الخصائص وبحكم طبيعة علاقاتها التنافسية في ذلك الحين، أمكن جرّها إلى خلافات عشائرية وقبلية.. وكان ذلك من المداخل الضارة بالثورة^(٧٢). فبحكم عمل هذه القيادة بشكل علني، تعرضت للاعتقال أو النفي أو التشريد والمطاردة منذ عام ١٩٣٧^(٧٣). وهكذا، اضطرت القيادة للعمل من خارج البلاد في مرحلة مهمة من المراحل النضالية، تاركة أموراً كثيرة للقيادة العسكرية المحلية التي لم يكن بمقدورها، بحكم عناصر كثيرة من القصور الذاتي، التصدي لكثير من الأمور بمفردها.

بالنسبة إلى القيادات العسكرية، كان لضعف الخبرة السياسية أثره الشديد في سير عملها، وكان هناك أكثر من قيادة عسكرية واحدة، نشأت بينها في بعض الأحيان علاقات تنافسية، مما أفقد هذه القيادة الوحدة التامة. وفي مرحلة من مراحل الثورة، بخاصة عام ١٩٣٨، تشكل مجلس أعلى للقيادات العسكرية. ولكن هذا المجلس لم يستطع فيما يبدو أن يحل مشكلة وحدة القيادة على الصعيد العسكري^(٧٤).

في هذا الإطار، يبدو جلياً كيف أخذت الانتفاضة في اعتبارها درس ثورة عام ١٩٣٦ على صعيد القيادة، مستفيدة من الخبرات النضالية المتراكمة ضمن مسار المقاومة الفلسطينية عبر نصف قرن. لقد كانت «القيادة الوطنية الموحدة» الشكل الذي اعتمد كقيادة للانتفاضة داخل الأرض المحتلة. ونظراً إلى السرية البالغة التي سلكتها هذه القيادة يصعب الحسم في تحديد عناصرها. ولكن من الواضح أنها عملت بالتنسيق مع القيادة العليا للنضال الفلسطيني المعاصر، منظمة التحرير الفلسطينية في الخارج.

إن القيادة الوطنية الموحدة - كما لوحظ في نموذج الانتفاضة - هي التي قررت المهام النضالية وتوقيت هذه المهام بدقة ملحوظة، ونظمت وصول المساعدات إلى الجهات المختلفة، ووجهت المتنفذين - وهم كما سبق الذكر كل سكان الأرض المحتلة - إلى الأهداف المتوخاة من كل تحرك، وأعلنت المطالب الوطنية ووزعت أعباء النضال على مختلف فئات المجتمع. كما أنها اتخذت مواقف محددة من بعض المواقف والتحركات السياسية التي تتخذها بعض القوى الدولية تجاه القضية الفلسطينية ومسار الانتفاضة. وكان لأوامرها ونواهيها سلطة حاکمة كبيرة على سلوك المتنفذين، فقد تم تنفيذها ومتابعتها بانضباط مدهش.

وضم المكون السياسي لهذه القيادة تشكياً تألف من ممثلين عن مختلف فصائل وقوى الثورة الفلسطينية العاملة في إطار منظمة التحرير الفلسطينية (كفتح والجبهتين الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين والحزب الشيوعي).

ورغم وجود فصائل لم يعلن عن مشاركتها في هذه القيادة فإن أحداً لم يعترض عليها. وثمة مستوى قيادي آخر تمثل في اللجان الشعبية التي ظهرت في الشهر الثالث للانتفاضة. وهذه اللجان كانت ذات مهام وظيفية أساساً، وقامت بعملية التواصل اليومي مع أبناء الشعب في مختلف المدن والقرى والمخيمات وما تحويه من أحياء؛ وكان هدفها الأساسي تسهيل الخدمات المختلفة وتقديمها. وقد سعت، عملياً، إلى تجسيد السلطة البديلة للاحتلال من الناحية الهيكلية البنائية. وبذلك، كان هدفها الأعلى تحقيق السيطرة الميدانية في الساحة الفلسطينية في الأرض المحتلة.

ويلاحظ أن هذه اللجان قد عملت بشكل متحرك فلم يوجد لها مقار ثابتة أو أعضاء ثابتون. فهي مفتوحة لكل ذوي الخبرة والقدرة من مختلف الأعمار والشرائح الاجتماعية. وتوزعت بشكل شامل على الأحياء في المدن والقرى والمخيمات، وعملت بتنسيق بعضها مع البعض الآخر، الأمر الذي أوجد الحركة عموماً. ومن المؤكد في هذا الجانب أن جميع القوى الفلسطينية قد التقت على هدف واحد، هو التخلص من الاحتلال، وتوحدت في ظل هذا الهدف، الأمر الذي ضيق هامش التنافس القيادي نتيجة تجنب الجدل الايديولوجي^(٧٥).

وعن التواصل بين القيادة الموحدة، وجمهور الأرض المحتلة، ومختلف الدوائر المشغلة بمسار الصراع العربي - الإسرائيلي والقضية الفلسطينية، فقد كان يتم، في البداية، من خلال

البيانات التي أصدرتها القيادة الموحدة في فترات متقاربة زمنياً. لكن ملاحقة سلطات الاحتلال، إضافة إلى الصعوبات الميدانية أو الفنية التي واجهت إصدار البيانات وتوزيعها، أدت في ضوء استمرارية الانتفاضة، ووضوح مسارها، إلى تقليص عملية الإصدار، وتضمن ما يصدر عن القيادة من فعاليات نضالية ممتدة على فترات زمنية أطول. وبهذه الطريقة أصبحت القيادة، وبخاصة منذ العام الثاني للانتفاضة، توزع بياناتها بمعدل واحد كل شهرين تقريباً^(٣٦).

في ضوء ذلك كله، يتضح التباين الجوهرى بين قيادتي ثورة عام ١٩٣٦ و انتفاضة عام ١٩٨٧، أساساً في الشكل القيادي، وفي جوهر تركيبة هذه القيادات وبنائها الداخلى، وفي القدرة على الحركة والتنسيق ومدى السرية والعلنية، والتماسك والترابط الحركيين والانتشار الميداني.

فاللجنة العربية العليا تتشابه من الناحية الشكلية والقيادة الموحدة للانتفاضة، حيث إن كلاّ منهما يمثل تآلفاً عملياً بين مختلف القوى السياسية على الساحة الفلسطينية، كما أن اللجان القومية لثورة عام ١٩٣٦ تتشابه شكلياً أيضاً واللجان الشعبية للانتفاضة، ولكن التباين يظهر جلياً وعميقاً في طبيعة التركيبة الاجتماعية الاقتصادية، والفكر السياسي للقيادتين، وفي الخبرة العملية، وكذلك في اعتماد الحركة والسرية في العمل في نموذج الانتفاضة مقابل العلنية والجمود في نموذج ثورة عام ١٩٣٦. لذا، نجد

سلطات الاستعمار البريطاني قد استطاعت ضرب قيادة ثورة عام ١٩٣٦ أو اعتقال أعضائها أو تشريدهم ، وهو ما أثر سلباً في الثورة ، في حين عجزت سلطات الاحتلال عن التوصل إلى النتيجة ذاتها ، رغم خبرتها في التعامل مع النضال الفلسطيني . لقد فشلت إسرائيل تماماً في اختراق قيادة الانتفاضة أو التوصل إلى حلقة تقودها إلى الكشف عنها . أما اللجان الشعبية فكان من الصعب تماماً تحطيمها بنائياً حتى لو تم القبض على عشرات أو مئات الشبان والعناصر النشطة ، لأن عملية الاحلال القيادي السريع أمكنها تعويض الفاقد نتيجة الضربات الإسرائيلية أولاً بأول .

ومع ذلك ، يلاحظ أن سلطات الاحتلال سعت إلى اختراق وحدة القيادة الفلسطينية في الأرض المحتلة مستغلة بمرور خلاف عارض بين القيادة الوطنية الموحدة وقيادة حركة المقاومة الإسلامية المعروفة اختصاراً باسم «حماس» .

واستطراداً يمكن القول إن هناك جماعات إسلامية عدة في فلسطين المحتلة^(٣٧) ، وهي جماعات لها جذور ممتدة في تربة النضال الفلسطيني^(٣٨) . و«حماس» - كما أعلنت عن نفسها - هي جناح من أجنحة حركة الإخوان المسلمين ، وقد أدعت لنفسها مسؤولية تفجير الانتفاضة^(٣٩) . ودون ولوج في تفاصيل تاريخية وفقهية حول مواقف الحركة ونهجها ، فإنه يلاحظ أن «حماس» أعلنت عن رؤاها الأساسية في ميثاق أصدرته في آب/أغسطس ١٩٨٨ ، أبرزت فيه

قدراً من الخلاف مع رؤى منظمة التحرير الفلسطينية، معتبرة أن أرض فلسطين هي «أرض وقف إسلامي لا يجوز حتى للمنظمة التفريط بها كاملة أو بجزء منها»، ومعلنة معارضتها للحلول السلمية والمؤتمرات الدولية التي يتمخض عنها «تحكيم أهل الكفر في أرض المسلمين». وقد اتخذت «حماس» موقفاً نقدياً من منظمة التحرير بسبب تبنيها منهجاً علمانياً في قضية فلسطين، ولكنها تحدثت بلهجة ايجابية عن المنظمة والحركة الوطنية الفلسطينية عموماً، بخاصة خلال تصريحات زعماء الحركة في وقت لاحق لصدور الميثاق^(٨٠). ومن الواضح أن بعض المقولات التي تبنتها حماس يتناقض ورؤى القيادة الوطنية الموحدة ومنظمة التحرير. فقد طالبت قيادة المنظمة بعقد مؤتمر دولي للسلام وإقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة وغزة (وأعلنت بالفعل عن قيامها في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨).

وهكذا، فنقطة الالتقاء الأساسية، في نظر البعض، بين «حماس» والمنظمة هي السعي إلى إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للضفة والقطاع^(٨١). ويبدو أن هذه النقطة لم تكن كفيلة بعدم الاحتكاك بين الجانبين إبان مرحلة مبكرة من الانتفاضة، الأمر الذي دار في هدوء، ثم انفجر في ٢١ آب/أغسطس ١٩٨٨، حين انفردت «حماس» بالدعوة إلى الاضراب في الأرض المحتلة، بمناسبة الذكرى التاسعة عشرة لإحراق المسجد الأقصى. ورغم محاولات تفادي الصدام المفتوح مع «حماس» من جانب القيادة الموحدة، فإن رائحة الخلاف تصاعدت بين الجانبين ومورست اختبارات

للقوة بينهما في الشارع الفلسطيني^(٨٢). وقد أثبتت الحركة الإسلامية، بخاصة من خلال «حماس» قوة وجودها السياسي، لكن ذلك لم يكن على حساب الالتفاف الجماهيري حول القيادة الوطنية التي تمثلها منظمة التحرير، إذ ما زالت المنظمة تتمتع بدعم الغالبية العظمى من جماهير الأرض المحتلة، طبقاً لما يورده المراقبون لمسار تطور القيادة السياسية في الأرض المحتلة^(٨٣).

وعلى كل حال، ألقت المخاوف التاريخية من آثار الانقسام في الصفوف الفلسطينية، بظلالها على الشارع السياسي الفلسطيني بحيث بُذلت جهود لاحتواء الخلافات ومنع تصعيدها. وفي المحصلة يمكن القول إن سلطات الاحتلال قد فشلت في تصعيد هذه الخلافات رغم النفخ في أوارها، بخاصة خلال العام الأول للانتفاضة. غير أن هذا الفشل لا يمنع من القول إن سلطات الاحتلال لم تكف عن المحاولة، لأن شق الحركة الوطنية الفلسطينية، وفي ضوء الانتفاضة بخاصة، مثل هدفاً ثميناً لم تتخل عنه إسرائيل في أي وقت.

هـ - أسلوب النضال والمواجهة

عند متابعة هذا الجانب، يبدو الاختلاف النسبي واضحاً بين الأساليب النضالية التي انتهجتها ثورة عام ١٩٣٦ وانتفاضة عام ١٩٨٧. فقد كان الاضراب التام والعصيان المدني والمقاطعة الشاملة مع الكفاح المسلح واسع النطاق، الأشكال الأساسية للنضال أثناء ثورة عام ١٩٣٦، بينما استخدمت الانتفاضة

الاضراب والتظاهر المبرمجين والمصحوبين بحالات الصدام الجماهيري الواسع، مع استخدام أدوات صدامية بسيطة بساطة الأسلحة البدائية (كالحجر والمقلاع)، وشيء قليل من المولوتوف وإشعال الحرائق، إلى جانب العصيان والمقاطعة المحدودين. وبقدر من التعميم، يمكن القول إن الكفاح المسلح كان الطابع الغالب على النضال أثناء ثورة عام ١٩٣٦، بينما مثل النضال المدني، بمختلف أشكاله، سمة مميزة للانتفاضة.

لقد ظل الاضراب والتظاهر الشكليين البارزين في ثورة عام ١٩٣٦ أثناء الشهرين الأولين (نيسان/ابريل وأيار/مايو ١٩٣٦)، غير أن التحدي البريطاني الاستعماري لمشاعر الجماهير، بالاعلان عن جدول الهجرة اليهودية للنصف الثاني من عام ١٩٣٦، أدى إلى استفزاز الجماهير والتوسع في العمل المسلح وأعمال التخريب ضد كل رموز الاستعمار البريطاني الصهيوني كنسف الجسور والقطارات، وقطع خطوط البرق والهاتف، وإتلاف المزروعات اليهودية، ونسف أنابيب النفط المتجهة إلى حيفا (من العراق)، والتعدي على المصالح اليهودية والقوافل البريطانية العسكرية، واغتيال العناصر التي عرفت بالتنكيل الارهابي بالعرب من البريطانيين والصهاينة^(٨). ونلمس الانتقال من غطت التظاهر والاضراب نحو الكفاح المسلح من أن فوزي القاوقجي الذي تزعم الثورة المسلحة بين آب/أغسطس وتشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٦، لم يدخل فلسطين - على رأس عدد من المقاتلين المدربين يتراوح، بحسب المصادر المختلفة، بين ٨٠ و ٥٠٠ مقاتل، وهو ما

أدى إلى تصعيد الكفاح المسلح - إلا في آب/أغسطس ١٩٣٦، أي بعد بداية الاضراب والعصيان المدني بأربعة أشهر^(٨٥).

لم يكن انتهاج الكفاح المسلح في الثورة دليلاً على توافر السلاح والمقاتلين المدربين على حرب الغوار ونحو ذلك من المتطلبات. فقد كانت أسلحة الثوار خليطاً متنوعاً من البنادق والمسدسات القديمة، عمل الثوار على توفير ذخيرة لها من مخازن الجيش والبوليس البريطاني، أو تعبئة الذخائر الفارغة بطرق يدوية، كما توافر لهم بعض القنابل اليدوية المصنوعة محلياً باستخدام المواد المتفجرة من شحنات بعض قذائف المدفعية التي تقع بين أيديهم بعد بعض المعارك مع العدو.

وقد كان البعض ممن حملوا السلاح لا يعلمون شيئاً كثيراً عن كيفية استخدامه^(٨٦). وعلى ذلك كانت روح التضحية والنضال وشدة الشعور بالظلم الاستعماري ومخاطر الاستيلاء على الوطن، أهم عوامل الشروع في الكفاح. وهكذا، فإذا تم تجاوز الحديث عن النقائص القيادية التي أشرنا إليها في موضع سابق، أمكن القول إنه في ضوء الطور الحضاري وفي ظل الظروف المحيطة بالثورة، قدم ثوار عام ١٩٣٦ وقياداتهم الميدانية العسكرية نموذجاً طيباً للنضال، حتى أنهم نجحوا في شل الإدارة الاستعمارية، وبث الذعر في نفوس أصحاب المشروع الصهيوني في فلسطين^(٨٧).

وبين المراقبين من رأى أن النضال الفلسطيني كان قريباً جداً من الانتصار النهائي في إحدى مراحل الثورة، بخاصة بين أواخر

عام ١٩٣٧ وأوائل عام ١٩٣٩ ، بفعل الثورة المسلحة^(٨٨) .

إذا التفتنا إلى أساليب النضال في جانب الانتفاضة ، نلاحظ على الفور أنها لم تعتمد النضال المسلح إلا في أضيق الحدود، في مقابل اللجوء الموسع لأنماط المقاومة المدنية. وقد كانت هذه المسلكيات مبعث اهتمام بالغ من قبل كافة المراقبين. فلم يسبق أن اعتمد التظاهر المصحوب برشق الحجارة في مواجهة آلة قمع عسكرية، كنموذج مستمر وثابت لفترة ممتدة باستمرار، في أي نموذج ثوري غير الانتفاضة الفلسطينية المعاصرة^(٨٩). ومن هنا أطلق عليها «انتفاضة الحجارة» كعنوان مميز لها، لا يشاركها فيه غيرها من النماذج الثورية.

ومن الإسرائيليين أنفسهم من عبّر عن الاستهجان للانضباط الملحوظ تماماً في هذا الجانب. فالمتفضون كبخوا جماح أنفسهم إلى حد مثير، ولم يلجأوا إلى السلاح الناري، جاذبين اليهم بذلك الرأي العام العالمي، حتى ان البعض منهم صور الصراع في ظل الانتفاضة على أنه صراع سياسي اعلامي، وليس صراعاً مع دبابات. وهذا ما تفوقت فيه منظمة التحرير واستولت به على مساحات واسعة من الرأي العام، بما في ذلك الرأي العام الإسرائيلي ذاته^(٩٠). ومع أن الانتفاضة تجنبت اغراءات الكفاح المسلح لارغام العدو على التراجع، فإن استخدام الحجارة والمقاليع وزجاجات المولوتوف الحارقة، جعل البعض يميز أسلوبها بأنه ذو طبيعة دافئة بين الحرارة والبرودة^(٩١). ويبدو أن الرأي

الراجع لدى القيادة الفلسطينية كان أن استخدام السلاح سوف يوقع الانتفاضة تحت مظارق الارهاب العسكري لسلطات الاحتلال، وأن مبارزة من هذا النوع (العسكري) سوف تكون اليد الطولى فيها لإسرائيل، فإسرائيل تنتظر الفرصة التي تمكنها من قتل أكبر عدد من أبناء الأرض المحتلة بصورة أكبر بكثير مما تم في نموذج «انتفاضة الحجارة». وبسبب هذا النهج المتميز الذي مثل نموذجاً مميزاً في أساليب النضال الوطني، يصعب تقويم الانتفاضة من الناحية العسكرية^(١١). فالواضح أنه لم يكن في نية المنتفضين تكييد العدو خسائر بشرية، بقدر ما هدفوا إلى تفكيك آلتها السياسية، وانهالك قواه البشرية داخل الأرض المحتلة، وفك الارتباط مع سلطته، ونزع أي قناع عن وجهه العنصري الارهابي.

لم تعلن الانتفاضة عن نفسها، إذًا، كإطار لممارسة طور جديد من أطوار «النضال المسلح»، إلا أن احتمال اللجوء إلى هذا الاطار ظل أمراً غير مستبعد.

وفي حالة كهذه لا شك في أن الأمر يحتاج إلى ما هو أكثر من الاستعداد البطولي للتضحية بسلاح وعتاد وعناصر مدربة وقدرة على تعويض الخسائر، بجميع أنواعها، وثغرات في الحدود الإسرائيلية. وقد يرى البعض أن ما اشتمل عليه البيان الأربعون للانتفاضة (أيار/مايو ١٩٨٩) الذي دعا إلى قتل مستوطن أو جندي إسرائيلي مقابل كل شهيد فلسطيني، قد أدخل الانتفاضة في باب الشروع في طور الكفاح المسلح. لكن الأمر لم يكن على

هذا النحو، فالبيان دار، في جوهره، في إطار جعل الرد المسلح في حدود «رد الفعل» المحدود فقط من الجانب الفلسطيني، وهو ما لا يعتبر نهجاً متميزاً في سبيل الكفاح المسلح بمبادرة فلسطينية. ويتأكد ذلك في ضوء ردّ الفعل على المذبحة التي ارتكبتها قوات الاحتلال في ساحة المسجد الأقصى يوم ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠ حين قتلت واحداً وعشرين شخصاً وجرحت عدة مئات من أبناء الأرض المحتلة، إذ أعقب تلك المذبحة، خلال أقل من أسبوعين، إقدام شباب الانتفاضة على قتل عدد من الاسرائيليين في أماكن متفرقة طعنًا بالسكاكين، دون أن يصل الأول إلى مدى أبعد في استخدام السلاح^(٣).

مما يثير الانتباه، أيضاً، أن الانتفاضة لم ترتقِ نحو الوصول بحالة العصيان والمقاطعة مع العدو إلى مستوى العصيان الشامل التام، كما كانت الحال إبان ثورة عام ١٩٣٦^(٤). فقد دعت القيادة إلى مقاطعة العدو، بخاصة في الأمور التي يمكن توفير بدائلها محلياً على الصعيد السلطوي الإداري والاقتصادي. ومع ذلك، تباينت الآراء بشأن العصيان الشامل، وبرز في هذا الصدد تياران:

التيار الأول، رأى أن العصيان الشامل يستوجب، كشروط مسبقة، توافر المتطلبات الاقتصادية التي تحمي المواطنين في معركة العصيان. وعلى ذلك يكون المطلوب تعميق المنجزات التي تتحقق كل يوم من حيث إحلال السلطة الوطنية بدل سلطة الاحتلال. . وبعبارة أخرى، ليس العصيان مجرد اعلان عن قيام حالة معينة

من عدم التعامل مع العدو، ولكنه حالة عملية تتحقق نتيجة لاستكمال تفكيك مؤسسات الاحتلال وبناءه، والفكاك من إसार التبعية له .

أما التيار الثاني : فقد طالب بالعصيان الناجز العاجل، الذي يبدأ بمقاطعة عمال الأرض المحتلة (أكثر من ١٣٠ ألفاً) للعمل في مؤسسات العدو الاقتصادية وغيرها، داخل الكيان الصهيوني عامة، والمستوطنات خاصة . وبالطبع سوف يتم هذا العصيان من وجهة نظر هذا التيار، اعتماداً على الحس النضالي العالي للجماهير الانتفاضة .

على أي حال أخذت عملية التحضير للعصيان الشامل في الاعتبار الآليات التي اتبعتها الانتفاضة منذ البداية . . ويبدو ذلك جلياً في دعوة القيادة للموظفين إلى الاستقالة، وتوجيه الأنظار باستمرار إلى استكمال بناء اللجان الشعبية في جميع المجالات، ودعوة المؤسسات الصناعية والزراعية الفلسطينية الوطنية لاستيعاب القوى العاملة المحلية، وتوجيه الجماهير إلى اعتماد الاقتصاد المنزلي، وتطوير أسلوب الاعتماد على الذات . وبدل هذا النهج، ولا شك، على تحري سبل النضال المتروي طويل النفس، ويفصح عن دراسة القيادة أحوال الجماهير والظروف التي خلقها الاحتلال في العقدين الماضيين .

ومن التساؤلات التي تثار في هذه الناحية : لماذا كان الارتقاء

بالوضع الثوري عام ١٩٣٦ نحو حالة العصيان الشامل أسرع منه
زمنياً مقابلة بنموذج انتفاضة الثمانينات؟

وفي معرض التفكير للإجابة عن هذا السؤال، ينبغي عدم
استقاط البعد الزمني وطبيعة الاحتلال القائم والسياق الاجتماعي -
الاقتصادي المحيط بالواقعتين. فثمة خمسون عاماً تفصل بينهما. .
حدثت فيها تغيرات على خارطة الصراع العربي - الصهيوني عامة،
والفلسطيني - الإسرائيلي خاصة، لعل من أهمها استفحال الخطر
الصهيوني، وقدرة إسرائيل على اغلاق حدود الأرض المحتلة تماماً
في وجه أية مساعدات محتملة، قد تعين على صمود العصيان
وتموّله عربياً أو حتى فلسطينياً، من خارج الأرض المحتلة. .
يلاحظ، كذلك، من ناحية أخرى، أن ثورة عام ١٩٣٦ اندلعت
في كافة أنحاء فلسطين التاريخية إبان الاستعمار البريطاني وتحت يد
الفلسطينيين مؤسساتهم الاجتماعية والاقتصادية ومعظم أراضيهم،
رغم عنف الارهاب الاستعماري. . بينما جاءت الانتفاضة وقد
بلغت عملية إلحاق الاقتصاديات الفلسطينية في الضفة والقطاع
(المحدودة أصلاً) شأواً بعيداً، بحيث أصبحت عملية فك
الارتباط باقتصاديات العدو عملية شاقة. وما يؤخذ في الاعتبار،
أيضاً، أن ثورة عام ١٩٣٦ إندلعت في ظل مساع صهيونية
إسرائيلية تهدف إلى منع التعامل الاقتصادي مع الجانب العربي
الفلسطيني وتطبيق ما عرف بـ «مبدأ العمل العبري»، بمعنى أن
المؤسسات الصهيونية كانت في طور العمل على توطيد اقتصادياتها
الذاتية، مما جعل حالة المقاطعة تبدو أنها تأتي من الطرفين،

الفلسطيني في ظل العصيان، والصهيوني في ظل مبدأ العمل العبري. أما الانتفاضة فجاءت في وقت دخلت فيه الاقتصاديات الإسرائيلية طور الحاجة إلى العمالة الفلسطينية من الأرض المحتلة، بسبب التوسع الصناعي والضغط السكاني، وحاجة العمالة الفلسطينية إلى العمل داخل الكيان الصهيوني لضيق الاقتصاديات المحلية الفلسطينية وضعف قدرتها الاستيعابية.

و - الموقف العربي

تنم خبرة النضال الفلسطيني، في مختلف مراحله، عن أهمية الدور العربي في مواجهة الغزوة الصهيونية، بغض النظر عن تقويم هذا الدور في إطار سلمي أو إيجابي. وقد أصبح من المعتاد أن يشار إلى ثورة عام ١٩٣٦ وما صاحبها من تطورات سياسية، على أنها تؤرخ لبداية تصاعد الدور العربي في قضية فلسطين، أو ما يعرف لدى البعض بتعريب القضية؛ وثبتت المتابعة التاريخية أن هذا التحليل صحيح تماماً.

فعلى الصعيد الشعبي، تألفت في العواصم والمدن العربية لجان حمل معظمها اسم «لجان الدفاع عن فلسطين» وانشغلت بتوفير العون المادي والمساندة المعنوية للثورة. وكانت دمشق وعمان وبغداد والقاهرة من المصادر الأساسية لهذا العون^(٩). وفي هذا الإطار، حصلت الثورة على الأموال الضرورية والتبرعات العينية من الداخل، أي من بين أبناء الشعب الفلسطيني أنفسهم، كما حصلت على مساعدات مادية فعالة من المال

والسلاح والغذاء من العواصم العربية المذكورة. كما ساهمت هذه العواصم في استقبال جرحى الثورة ورجالها المطاردين واعتنت بهم. وقد تألفت في إطار تنظيمات الثورة جمعية خاصة كلفت بمهمة جمع المال وتوفير الدعم الشعبي، وكان من بين أعضائها السبعة عضوان من خارج فلسطين أحدهما سوري والآخر عراقي^(١٧).

وفي مضمار الدعم المعنوي الشعبي عقد رجال الفكر والسياسة والدين المسيحي والإسلامي مؤتمراً كبيراً في بلودان يوم ٨ أيلول/سبتمبر ١٩٣٧، لاستنكار مشروع التقسيم الذي أعلنت عنه لجنة التحقيق التي عرفت بلجنة بيل في تموز/يوليو ١٩٣٧، وتأييد الثورة الفلسطينية. وقد شاركت في المؤتمر وفود من مصر وسوريا ولبنان والعراق والعربية السعودية وشرق الأردن، إضافة إلى وفد فلسطين.

عقد، أيضاً، مؤتمر برلماني بمبادرة مصرية بين يومي ٧ و ١١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٨، حضره مندوبون من البلدان العربية المذكورة، ومندوبون آخرون حضروا من اليمن والهند والصين وبعض الدول الإسلامية وممثلون عن العرب في دول المهجر (الأمريكيين) وأطلق عليه «المؤتمر العالمي البرلماني للبلاد العربية والإسلامية من أجل الدفاع عن فلسطين». وكان ذلك المؤتمر من أوائل المؤتمرات التي شاركت فيها الدائرة الإسلامية إلى جانب الدائرة العربية، معلنة الاهتمام الإسلامي بالقضية الفلسطينية، منذ انعقاد مؤتمر القدس عام ١٩٣١^(١٨).

وبين الجهود الشعبية العربية لدعم الثورة قامت السيدة هدى شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي المصري بعقد «مؤتمر نساء الشرق من أجل نصره القضية الفلسطينية» بين ١٥ و١٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٨ وكان له صدى واسع في ذلك الحين^(٩٨).

على الصعيد الرسمي، انشغلت الدوائر الحاكمة في البلدان العربية بالثورة ويتطورات الأوضاع السياسية في فلسطين بصورة متزايدة. ومما يسترعي الانتباه، في هذا الجانب، حماس بعض الضباط العرب ومشاركتهم المباشرة في دعم الثورة والنضال المسلح. وبلغ الأمر أن القيادة العسكرية للثورة بين آب/أغسطس وتشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٦، وُضعت بين يدي المناضل العربي فوزي القاوقجي وعدد من الذين دخلوا معه ساحة النضال على أرض فلسطين.

على كل حال، يبرز الدور الرسمي العربي على نطاق واسع في ممارسة الوساطة بين القيادة الفلسطينية والسلطات البريطانية... وفي هذا المستوى تميز دور الأمير عبد الله حاكم شرق الأردن، ونوري السعيد وزير خارجية العراق، والملك غازي في العراق، والملك عبد العزيز في السعودية، والامام يحيى حميد الدين في اليمن، الذين رغبت بريطانيا اليهم أن يقنعوا سكان فلسطين بقيادتهم بتهدئة الأحوال، مقابل وعد غير مؤكد بأن تعيد بريطانيا النظر في سياستها تجاه فلسطين.

ودون توغل في التفاصيل، نجحت تلك الوساطة في وقف

الاضراب العام والمرحلة الأولى من الثورة عام ١٩٣٦، قبل أن تتحقق المطالب الفلسطينية. وقد تم تقويم تلك الوساطة فيما بعد وتأثيرها في إطار سلمي، لأن معظم البلدان العربية كان في طور سياسي جعله عرضة للضغوط البريطانية الاستعمارية. وعندما تجددت الثورة في خريف عام ١٩٣٧، بفعل الاعلان عن نية بريطانيا في تقسيم فلسطين مارس الموقف العربي دوره مرة أخرى، وكان سلباً أيضاً^(٩٩)، إذ انقسمت تلك القيادات بين مؤيد للتقسيم ومعارض له، الأمر الذي انعكس على الموقف الفلسطيني وأضعفه في التحليل النهائي.

لقد وقعت ثورة عام ١٩٣٦ في مرحلة تاريخية، كان الواقع العربي فيها غير مؤات بسبب هيمنة الاستعمار الغربي، وأخذت فيه حالة التجزئة تتجذر في كل قطر عربي؛ وجاءت الانتفاضة بدورها ضمن واقع عربي سيء أيضاً. ففي عامها الأول كانت الخلافات العربية على أشدها، وفي عامها الثاني بدأت عملية ترميم لهذا الواقع، ولكن حالة الاقليمية ومتابعة المصالح الذاتية ظلت تبدو أنها الوضع الطبيعي، وجاءت أيضاً في وقت بدأت فيه وحدة الشعور بالخطر الصهيوني تعاني الكثير، وتختلف فيه التصورات حول كيفية التوصل إلى تسوية مع إسرائيل بأكثر من كيفية مواجهتها، رغم عدم وجود ما يوحي بأن الأطماع الصهيونية قد وقفت عند حدود فلسطين والأرض المحتلة عام ١٩٦٧^(١٠٠).

وبصفة عامة جاءت الانتفاضة وليس ثمة ما يشير إلى أن البيئة

العربية مؤاتية على الاطلاق. والأمر الأكثر خطورة ما يمكن تسميته الجمود الذي خيم على شعور الجماهير العربية على الصعيد الشعبي، حتى ان البعض عبر عن خشيته من أن تكون قيمة المواجهة العربية مع الكيان الصهيوني، ومفهوم الصراع العربي - الإسرائيلي، قد تركا موقعيهما لمصلحة مفهومين بديلين، هما المواجهة الفلسطينية - الإسرائيلية والصراع الفلسطيني - الإسرائيلي^(١٠٠). فليس من المبالغة، إذاً، القول إن الانتفاضة كعلامة فارقة في النضال العربي الفلسطيني ضد الغزوة الصهيونية، لم يوازها فعل عربي حقيقي على صعيد المواجهة مع إسرائيل.

لقد قامت تظاهرات محدودة هنا وهناك، ومواسم لجمع التبرعات، وبعض لجان الدعم للانتفاضة، وانهقدت ثلاثة مؤتمرات قمة عربية في الجزائر (حزيران/يونيو ١٩٨٨) والدار البيضاء (أيار/مايو ١٩٨٩). وبغداد (أيار/مايو ١٩٩٠). خصصت الأولى للانتفاضة، وخصصت الثانية والثالثة جزئياً للقضية الفلسطينية. ومع ذلك، لا يمكن اعتبار هذه الظواهر كافية للقول إن الانتفاضة دُعمت عربياً بشكل مريح، بل اشتكت قيادة منظمة التحرير غير ذات مرة، من أن الدعم المقرر للانتفاضة لم يصل من بعض البلدان العربية^(١٠١).

على هذه الأرضية يمكن الزعم بأن استمرار الانتفاضة في ظل هذا الواقع العربي، يشير إلى أن المنتفضين وقيادتهم داخل الأرض المحتلة وخارجها، قد أخذوا مسبقاً الواقع العربي في الاعتبار

وعوّدوا أنفسهم على صراع النفس الطويل، اعتماداً على استخدام أقصى الطاقات المحلية. فهل نستطيع والحال كذلك القول إن الدعم العربي لكل من ثورة عام ١٩٣٦ والانتفاضة، لم يكن في المستوى المطلوب، رغم فارق الأعوام الخمسين التي تفصل بينهما لكل ما تضمنته من تطورات!!

لعل من أهم التساؤلات التي يثيرها الاقتراب المقارن المطروح يدور حول مدى تمثل مسلكيات الانتفاضة لتجربة ثورة عام ١٩٣٦. بكلمات أخرى، هل ثمة ما يشير إلى أن الانتفاضة أخذت في اعتبارها، جزئياً أو كلياً، الدروس التي يطرحها تراث ثورة عام ١٩٣٦؟

ما لا شك فيه، أن الانتفاضة بمنهجها وممارساتها قد عبّرت من جانب عن تجربة فذة، لها خصائصها الذاتية المميزة غير المسبوقة في سياق المواجهة العربية الفلسطينية للغزوة الاستعمارية الصهيونية منذ ما ينيف على القرن. غير أنها، من جانب آخر، ليست تجربة منعزلة عن التراث النضالي للشعب الفلسطيني عامة. وهناك من الدلائل ما يؤكد، بالفعل، أن تجربة عام ١٩٣٦ بخاصة، كان لها حضورها، ولو في حدود معينة أثناء تفاعلات الانتفاضة، ضمن معالجات قيادتها للمواجهة مع العدو على الصعد المحلية الفلسطينية، والعربية القومية، والدولية.

على الصعيد المحلي يبدو حضور تجربة ١٩٣٦ في التأكيد المستمر، من جانب قيادة الانتفاضة وجماهيرها داخل الأرض

المحتلة ومنظمة التحرير في الخارج، على الوحدة الوطنية وأهميتها في سبيل تحقيق الأهداف. وكذا، أهمية عناصر التنظيم والانضباط ووحدة الحركة، والتخلص من الجيوب العميلة للاحتلال، من جانب القوى المشاركة كافة، وضرورة تنحية الجدل الفكري والايديولوجي أثناء الحركة، والحيلة من الوقوع في أخطاء المنافسات الزعامية بجميع صفوفها. فلقد أصيبت ثورة عام ١٩٣٦ بضربات موجعة، خاصة منذ النصف الثاني من عام ١٩٣٧، عندما عاد الاضطراب إلى المجتمع الفلسطيني بين معسكري الحسينيين (المجلسيين) والنشاشيبيين (الدفاعيين)^(١١٣)، لما بينهما من ضغائن ممتدة، كمنّت أصولها في تناحر حرّكته عقلية قبلية ضيقة الأفق، وكانت له أصداء سيئة على السياسة الفلسطينية في عمومها. ومن ناحية أخرى، فسلوك الانتفاضة ينم عن قيامها بعمل مدروس مخطط، أساسه دراية مسبقة بخارطة القوة الفلسطينية ومنابع العطاء الجماهيري وكيفية توزيع أعباء النضال، طبقاً لهذه الخارطة، ونقاط ضعف العدو رغم قوته، بينما لم يكن الأمر على هذا النحو في ثورة عام ١٩٣٦ التي قامت بشكل عفوي.

يلاحظ، كذلك، أن ثورة عام ١٩٣٦ اندلعت في وقت افقد فيه المجتمع الفلسطيني النظرية الثورية والتنظيمات الجماهيرية الواسعة الثابتة، باستثناء الأحزاب الفلسطينية التي كان جلّها ضعيفاً وقائماً على أسس شخصية أو عشائرية ومصالحية محدودة. أما الانتفاضة فقد جاءت بعد تطور الجوانب الفكرية والنظرية

والأطر التنظيمية للشعب الفلسطيني، رغم قسوة الظروف. وهنا، يجب تبيين الجهد التنظيمي والمؤسسي لمنظمة التحرير الفلسطينية ومختلف فصائل الثورة الفلسطينية، طوال ربع القرن الماضي، حتى أن المرء تساوره الشكوك تماماً في امكانية قيام الانتفاضة على هذا النحو قبل عقدين أو عقد واحد من السنين، أو بكلمات أخرى، قبل وصول الأطر النظرية أو التنظيمية للشعب الفلسطيني داخل الأرض المحتلة وخارجها، لما هي عليه الحال في الوقت الحاضر.

من ناحية أخرى، يبدو درس عام ١٩٣٦ مثلاً على الصعبد الفلسطيني في الجانب المتعلق بأسلوب النضال الذي سلكته الانتفاضة. إذ يلاحظ تغلب أنماط النضال المدني المصحوبة بأقل القليل من النضال المسلح، بما يتناسب والدراية بطبيعة العدو وعقيدته الحاكمة وأبعاد النضال المدني وأهميته في هذه الحالة. فالصهيونية عقيدة سياسية تقوم على العنف اللامحدود، ومن المقدر أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي لم تكن لتتورع عن اللجوء إلى أقصى ردود الفعل، بما في ذلك نموذج الإبادة أو الطرد الجماعي، وإيقاع أفدح الخسائر في الأرواح بين أبناء الأرض المحتلة، في حال الشروع في الصدام المسلح المفتوح من جانبهم. إن موازين القوى مختلة تماماً لمصلحة العدو داخل فلسطين المحتلة؛ لذا من الأنسب انتهاج النضال المدني المصحوب بشيء من الجهد المسلح، طالما كانت شروط العمل المسلح الواسع ممتدة على هذه الساحة في وقت معين^(١٠٠). وبالطبع، لا يعني ذلك القول إن موازين القوى كانت أكثر اتزاناً بين التحالف الاستعماري البريطاني - الصهيوني،

حين انتهجت ثورة عام ١٩٣٦ النضال المسلح، بل يعني، ضمن معاني أخرى، أن الجانب الفلسطيني قد راعى في نموذج الانتفاضة هذا الخلل، بصورة أكبر. وفي ذلك يذكر بعض المؤرخين أن الفشل الذي منيت به الثورة الفلسطينية أواخر الثلاثينات يعود، مع أسباب أخرى، الى فقدان توازن القوى تماماً بين الفلسطينيين وأعدائهم^(١٠٠).

على الصعيد العربي القومي يلاحظ أن التدخل العربي الرسمي لإنهاء اضطراب عام ١٩٣٦، كان نقطة التحول على طريق تعريب قضية فلسطين. وفي الحقيقة، إن الحركة الوطنية الفلسطينية قد سعت، منذ مطلع الثلاثينات إلى الاحتواء بالحركة العربية التي ارتبطت بها قبل الحرب العالمية الأولى، ولكن دون وعي بأن الحركة العربية قد ضعفت تماماً، وحلت محلها حركات قطرية، تحكمها مصالح جزئية ضيقة، تسعى إلى تحقيقها، غالباً، من خلال القوى الاستعمارية، وليس في مواجهتها^(١٠١). ودون الدخول في تفاصيل، عادة ما يقوم الفلسطينيون الدور العربي الرسمي ضمن مسار ثورة عام ١٩٣٦ بصورة سلبية^(١٠٢). وعلى أي حال، جرت أحداث الثورة في إطار مناخ غير مؤات عربياً، من حيث طبيعة الخارطة السياسية (التجزئة)، والنظم الحاكمة (نظم مساومة لا مواجهة)، والسطور الحضاري عموماً (التخلف بأبعاده المختلفة). وحينما اندلعت انتفاضة عام ١٩٨٧ جاءت - وهذا موضع مفارقة واضحة - في إطار مناخ عربي غير مؤات أيضاً، سواء من حيث استمرار التجزئة (في الحقيقة تجذرهما واستفحالهما)،

وتراجع مفهوم المواجهة. . لهذا، برزت خشية، وبشكل متلصص، بين أوساط المراقبين، من أن تستخدم «الأخوة العربية» كسبيل لفض الانتفاضة قبل تحقيق أهدافها، مثلما حدث في نموذج عام ١٩٣٦، حينما تدخلت القيادات العربية الحاكمة، لوقف الاضراب الكبير، اعتماداً على مجرد «حسن نية الصديقة بريطانيا». كما تسللت مخاوف من أن تتنافر مواقف البلدان العربية، حول الأهداف التي يعلنها الطرف الفلسطيني أو تلك التي يمكن أن ترد من أطراف أخرى معنية بتطورات القضية الفلسطينية. وما يشار إليه، في هذا الصدد، الوقائع المتعلقة بغياب الاجماع العربي تجاه مشروع التقسيم الذي طرحته بريطانيا في تموز/يوليو ١٩٣٧^(١١٨)، وما تركته تلك الوقائع مع انعكاسات على السياسة الفلسطينية في تلك المرحلة. ولكن يبدو جلياً، كيف وعت القيادة الفلسطينية المعاصرة طبيعة المناخ العربي المحيط، وحدود الدور العربي المطلوب أثناء تفاعلات الانتفاضة. لذا، فمطالب هذه القيادة، حاورت في إطار هذا الوعي. فالمطلوب عربياً هو مساندة المطالب الفلسطينية، التي جاءت منسجمة مع الخطوط العامة لما هو مقبول عربياً، ودعم الانتفاضة من الناحيتين السياسية والمادية لتوطيد قوتها والحفاظ على استمراريتها، وعلى وحدة الموقف العربي من قبل ومن بعد.

وبصفة عامة، جعلت القيادة الفلسطينية الدور العربي في إطار الانتفاضة يدور في فلك شقين هما: الدعم والمساندة المعنوية والسياسية والمادية من جانب، ووحدة الموقف السياسي خلف

المطالب الفلسطينية، من جانب آخر. هذا، في حين مارس المحيط العربي دوراً مهماً أثناء ثورة عام ١٩٣٦، ابتداءً من الوساطة وانتهاءً بالضغط على الطرف الفلسطيني باتجاه موقف الثورة في مرحلتها الأولى، نزولاً عند وعود سياسية غير مؤكدة من الاستعمار البريطاني بمراعاة المطالب الفلسطينية، وهو ما لم يتحقق، إطلاقاً في التحليل الأخير.

على الصعيد الدولي تأثرت ثورة عام ١٩٣٦، في بدايتها ونهايتها، بال المناخ الدولي المواقب. وقد سبقت الإشارة إلى أن القيادة الفلسطينية رفدتها آمال في إستثمار مناخ الاستقطاب بين القوى الأوروبية المهيمنة على الساحة الدولية لمصلحتها. غير أن تلك المساعي كان محكوماً عليها بالفشل مسبقاً. فمن الصحيح أنه كان ثمة منافسة بين فرنسا وبريطانيا، استثمرتها الثورة، في إقامة قواعد قيادية لها في دمشق وبيروت، ولكن تلك المنافسة كانت محدودة بسقف لا تتخطاه القوتان الاستعماريان، وهو هيمنتها على العلاقات الدولية والتنظيم الدولي (عصبة الأمم)، وتأييدهما للأهداف الصهيونية، وتناقضهما مع حركة التحرر العربي عموماً. أما إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية فقد عاونتا، بشكل مباشر أو غير مباشر، في دعم المشروع الصهيوني في فلسطين، بخاصة في جانب تشجيع الهجرة اليهودية، وتوطيد أسس الاقتصاد الصهيوني. وهكذا، فما ان تجتمعت نذر الحرب العالمية الثانية، وتنامى التنسيق بين بريطانيا وفرنسا، حتى انحازت السلطات الفرنسية إلى الجانب البريطاني في فلسطين، فشددت رقابتها على تحركات الثوار

الفلسطينيين عبر الحدود الفلسطينية - السورية - اللبنانية، وطاردت الثوار في بيروت ودمشق، ومنعت نشر أخبار الثورة، وقيدت تحركات قياداتها معتقلة بعضاً منهم^(١١). وبصفة عامة، ساهم المناخ الدولي، قبيل الحرب العالمية الثانية، في إحباط الثورة الفلسطينية في نهاية الثلاثينات. وربما توجب على قيادة تلك الثورة أن تعي، في ذلك الحين، أن التناقضات بين القوى الاستعمارية، كانت مجرد تناقضات ثانوية سطحية، تتعلق باقتسام مناطق النفوذ والثروات، وأنه سبق لمثل هذه التناقضات أن برزت بعيد الحرب العالمية الأولى، وتم حسمها في إطار المصالح الاستعمارية المتبادلة ولغير مصلحة العرب.

ولا شك في أن هذه النقيصة، ومثلها، عادت الى عدم امتلاك القيادة، في ذلك الحين، للإطار النظري المتناسك حول طبيعة الصراعات على أرض فلسطين ومن حولها. أما في جانب الانتفاضة، فيلاحظ تردد الإشارة من قبل القيادة الفلسطينية إلى المناخ الدولي الذي أحاط بها (سواء من حيث علاقة الأطراف الدولية بالقضية الفلسطينية، أو دور هذه الأطراف تجاه تطوراتها، أو موافقها من مطالب أطراف القضية المباشرين)، وكذلك من حيث طبيعة المرحلة التي يعيشها التوازن الدولي عند مستوى القمة بين القوتين العظميين وحلفائهما، وموقفهما إزاء النزاعات أو الصراعات الإقليمية، وضمنها الصراع في «الشرق الأوسط». يفيد هذا بأن المناخ الدولي بمختلف أبعاده وانعكاساته على القضية الفلسطينية مثل أحد شواغل الخطاب السياسي الفلسطيني.

وضمن هذا الفهم، كانت الانتفاضة وأسلوبها النضالي إحدى أقوى الرسائل الموجهة إلى الساحة الدولية حول مطالب الشعب الفلسطيني وتصميمه على بلوغ الأهداف. وقد كانت المطالب الفلسطينية بما في ذلك إعلان الدولة المستقلة^(١١)، منسجمة إلى حد كبير مع ما قرره المجتمع الدولي في حدود القرارات الأممية الصادرة عن الأمم المتحدة. والمتصور، والحال كذلك، أن الانتفاضة الفلسطينية راعت تماماً جوهر مواقف الأطراف الدولية المعنية بتطورات قضية الصراع العربي - الإسرائيلي في المنطقة، ولم تحاول أن تتجاوز مطالبها في هذا الإطار، حتى لا تتيح لبعض الأطراف الدولية حجة كبيرة للحيلولة دون تحقيق هذه المطالب.

كذلك، استثمرت الانتفاضة، على الصعيد الدولي، ما أتاحتها التقنية المعاصرة من وسائل اتصال وقدرة على الحركة الإعلامية والسياسية الواسعة السريعة، بحيث أضحت العالم يتابع النضال الفلسطيني أولاً بأول، وفي أدق التفاصيل. وهذا الأمر أصاب، دون شك، الاستراتيجية الدعائية الصهيونية الإسرائيلية بضربات موجعة، وفتح الأذان والعيون ثم العقول لدى قطاعات جماهيرية واسعة على الساحة الدولية، وبخاصة داخل ساحات كانت تعتبر مغلقة على المفاهيم الصهيونية لعقود من السنين، كأوروبا الغربية والولايات المتحدة، بل داخل شطر من المجتمع الإسرائيلي ذاته.

٢ - بين الانتفاضة الكبرى والانتفاضات السابقة

في إطار متابعة موقع الانتفاضة الكبرى لعام ١٩٨٧ من سابقاتها في الضفة والقطاع منذ عام ١٩٦٧، نلاحظ كيف تتبوأ مكانة الذروة، حيث يبدو الأمر كأن الانتفاضات السابقة تمثل الإرهاصات الواجبة لها. فما كان للانتفاضة أن تأخذ مساراً صحيحاً دون الخبرات والموروثات النضالية التي تراكمت من قبل. وإذا كان الموروث النضالي لثورة عام ١٩٣٦ مثل جزءاً لا يتجزأ من الادراك الفلسطيني الثوري، فمن باب الأولوية أن يحتل التراكم النضالي لما بعد عام ١٩٦٧ أقرب مكان من هذا الادراك، وأن يكون له أثر مباشر في مسار الانتفاضة الأخيرة.

لقد كانت انتفاضات ما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٨٧، في معظمها، انتفاضات مطلبية لا قتالية، يغلب عليها طابع «الموسمية». والمقاومة المطالبة بطبيعتها لا تتسم بالاستمرارية المتصاعدة، لأنه لا يترتب عليها خبرات صدامية حقيقية تقود في اتجاه العصيان المدني، مثلاً. ومن هنا تأتي نظرية «الموجات» التي فسّر بها بعض العسكريين الإسرائيليين المقاومة الفلسطينية في الضفة والقطاع، قاصدين بذلك أن هذه المقاومة تبلغ ذروة معينة في بعض المراحل ثم تخمد لفترة غير قصيرة، قبل أن تندلع مجدداً حتى تصل إلى ذروة جديدة، وذلك في إطار يمكن السيطرة عليه، بل التعايش معه.

لهذا فقبيل اندلاع الانتفاضة الكبرى رأى بعض المراقبين أن

مستقبل المواجهة مع الاحتلال يتوقف على الخروج من هذه الحلقة، وذلك بأن تتوالى الانتفاضات حتى تبلغ ذروة تتسم بالعمق والاستمرارية، بحيث يقل الفارق الزمني بين هذه الانتفاضات إلى أقصر مدى ممكن^(١١).

لقد جاءت الانتفاضة الكبرى كتطبيق عملي لتجاوز النقد المذكور وتصحيح المسار، لأنها وطدت عنصري الشمولية المكانية والسكانية، والاستمرارية الزمنية، وجسدت شعار «موج يحمل موجة».

بين سمات الانتفاضة الكبرى، ينبغي التوقف مطولاً أمام عامل الزمن، فالانتفاضات التي تلت الاحتلال مباشرة، إما اقتربت من توقيت الهزيمة العربية عام ١٩٦٧، أو تواكبت وبعض المكاسب الجزئية التي حققتها حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، كارتفاع أسهم منظمة التحرير الفلسطينية عربياً ودولياً، أو جاءت لتأكيد الوجود الفلسطيني وعدم نهاية المقاومة بعد غزو لبنان عام ١٩٨٢. وإذا شئنا التفصيل في إحدى هذه المراحل، نلاحظ أن لهزيمة عام ١٩٦٧ أثرها حيث إن انتفاضات ما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣، بشكل خاص، جاءت على أرضية رغبة رواد المقاومة في الأرض المحتلة في تحويل حركة المقاومة الطليعية التي اضطلعوا بها، إلى حركة جماهيرية يتم تجديدها في الشارع الفلسطيني، وإشاعة روح الثقة والتحدي بين الصفوف بعد أن خيمت روح الهزيمة، ومنع المحتلين من الاطمئنان والاستقرار لفترة طويلة، وخلق سلطة

موازية لسلطته، والقضاء على وضعية الحياة الطبيعية التي يرغب في توطيدها في الأرض المحتلة^(١١). وبالطبع، لم يتم تحقيق الكثير من هذه الأهداف في ذلك الحين، بخاصة تلك المتعلقة بخلق السلطة الموازية لسلطة الاحتلال ومنع المحتلين من الاستقرار في الأرض المحتلة. وبمرور بعض الوقت، أضحت الانتفاضات التالية أقل طموحاً وجاءت، كما سبقت الإشارة، لتحقيق مطالب محدودة. ثم جاءت الانتفاضة لتطرح مطالب، وتطمح إلى تحقيق أهداف تتجاوز معظم ما سبق طرحه من قبل. تعلق أهداف هذه الانتفاضة بالتخلص النهائي من الاحتلال الإسرائيلي وإزالة كافة مظاهره، وتحقيق تقرير المصير والاستقلال الوطني للشعب الفلسطيني، في إطار دولة مستقلة أعلنت القيادة الفلسطينية قيامها بالفعل.

وفي مناخ الانتفاضة الكبرى وممارساتها يمكن الزعم بأن معظم الأهداف «الجزئية» التي أعلنتها الانتفاضات السابقة قد تحققت. فلقد تجذرت المقاومة في الشارع الفلسطيني، وتحولت حركة الرواد والطلائع إلى حركة جماهيرية كاملة تضم كل الشعب تحت الاحتلال ضد كل رموز الاحتلال، وسعت قيادة الانتفاضة ولجانها إلى إحلال سلطاتها النافذة محل سلطة الاحتلال. ولعل في استقالة كثير من الموظفين الحكوميين ورجال الشرطة من الفلسطينيين، وتحديد هذه القيادة لمواعيد العمل والانصراف وساعات الاضراب، وتأمين الشوارع، ومعاقبة المتعاونين، وحل النزاعات المحلية، إلى غير هذه المظاهر السلطوية، إشارات كافية إلى عملية

إحلال السلطة في الضفة والقطاع بقيادة محلية وطنية تحظى بمصداقية عالية بين الجماهير. كذلك، لا جدال في أن الثقة بالنفس قد تأصلت تماماً بين السكان، وفي ذلك يقول أحد الاختصاصيين في الصحة النفسية، داخل الأرض المحتلة «... إنه بالرغم من تعرض الفلسطينيين إلى عنف منهجي خلال الانتفاضة، فإنهم في وضع صحي أفضل مما كانوا عليه في العشرين عاماً الماضية. فمعنوياتهم عالية وآمالهم كبيرة والتفاؤل هو السمة الغالبة على سلوكهم وتوقعاتهم. ولديهم الرغبة في الاستمرار بالانتفاضة كظاهرة صحية في المستويات الاجتماعية والسياسية والنفسية حتى أنه يمكن القول، إن أحداً لم يعد بحاجة للمهدئات واللجوء للخرافة والشعوذة أو حتى إلى وسائل الاعلام الإسرائيلية للهروب من الواقع السيئ»^(١١٣). وفي مقابل نزع الخوف من المواطنين الفلسطينيين وتعميق الأبعاد الثورية وروح التحدي، استطاعت الانتفاضة أن تزرع الخوف وعدم التيقن المستقبلي في نفوس الصهاينة المستوطنين، رغم فارق موازين القوى. الأمر الذي يعني صحة المقولة الشهيرة عن أن الصراع هو، في التحليل النهائي، صراع إرادات لا أسلحة وعتاد فقط.

لقد فعل عنصر الزمن فعله، أيضاً، على صعيد التكوين الفكري للأجيال الفلسطينية داخل الأرض المحتلة. ودون التطرق إلى صعود عناصر شابة قيادية جديدة، يمكن ملاحظة أن الجيل الذي تصدر المواجهة في ظل الانتفاضة الكبرى هو جيل لم يخض معارك كبرى ضد موجات الغزوة الصهيونية المتتالية، ولم يحقق، من ثم، إنتصارات سابقة، ولكنه لم يخسر معارك في مواجهة هذه

الغزوة! ومن ثم، فإن قيمة الذاتية، رغم تعرضها لهجمة كبرى من قبل الاحتلال الإسرائيلي، لم تنكسر على الإطلاق^(١١٤).

إن جهود التفريغ الفكري والثقافي ومحاولاته من قبل الاحتلال، ووجهت بمحاولات مضادة لقوى الثورة الفلسطينية، من أجل تثبيت القيم الوطنية والقومية في نفوس أبناء هذا الجيل، بخاصة في ظل العمل على نشر المؤسسات الفلسطينية والاستمرار في الجهد التعبوي تحت أكثر الظروف قسوة.

وهكذا، بدا أن ما حاولت سلطات الاحتلال بناءه، خلال زمن الاحتلال، ذهب أدراج الرياح في زمن الانتفاضة. على سبيل المثال، بعد عشرين عاماً على الاحتلال، أتقن الكثيرون من العناصر الشابة في الأرض المحتلة الحديث باللغة العبرية. وبدلاً من أن تقود هذه الظاهرة إلى الالتحام بثقافة المحتل، فإنها استخدمت للتأثير في نفسية جنوده أثناء الانتفاضة. وتحت عنوان «فكر لحظة» وزع المتفضون منشوراً موجهاً إلى الجنود الإسرائيليين يستحثونهم فيه على عدم سفك الدماء والجنوح إلى صوت العقل والضمير «لأنكم لن تحولوا بيننا وبين تحقيق أهدافنا مثل بقية الشعوب!» وكثيراً ما استخدم الشباب العبرية للنقاش مع جنود الاحتلال أو «شتمهم» للتأثير في معنوياتهم إذا لزم الأمر، أو لحثهم على عدم اطاعة أوامر قيادتهم^(١١٥). إن هذا المثال يعيد إلى الذهن ما سبق أن أقدمت عليه سلطات الاحتلال في تموز/يوليو عام ١٩٧١؛ ففي ذلك الحين كان قطاع غزة يعيش حالة من المقاومة شبه

المستمرة، وفي محاولة من سلطات الاحتلال لانتهاز فرصة ما يجري من نزاع بين قوات الثورة الفلسطينية والحكم الأردني، ألقت هذه السلطات منشوراً باللغة العربية على سكان القطاع، تنصحهم فيه بالسكينة والتخلي عن فكرة الكفاح المسلح «لأنها أفلست»، وتدعو الفدائيين الى «تسليم أنفسهم»^(١١٦).

ومن خلال المعاني الكثيرة التي تجسدها صورة المنشور الإسرائيلي عام ١٩٧١، مقابل المنشور الفلسطيني عام ١٩٨٨ يبرز مدى الفشل الذي منيت به أساليب العامل النفسي الإسرائيلي ضد أبناء الأرض المحتلة، بعد أن عرف الجيل الجديد هذه الأساليب، وزاد على ذلك بأن أعاد استخدامها ضد سلطات الاحتلال ورموزه.

أعادت الانتفاضة الكبرى، أيضاً، القوى والحركات الإسلامية في فلسطين إلى واجهة الصدام مع قوى الاحتلال الإسرائيلي ومع المشروع الصهيوني من أساسه. ورغم أن الحركة الوطنية الفلسطينية أخلت دوماً دوراً لهذه القوى، فإن هذه الانتفاضة أحييت مكاناً قوة مفهوم الجهاد والاستشهاد في الخبرة الإسلامية بكل ما يحمله هذا المفهوم من روح للمقاومة.

لقد عرفت فلسطين أول التنظيمات الإسلامية بتشكيل «جمعية الشبان المسلمين» أواخر العشرينات. وتنامى أثر التيار الإسلامي باستمرار، واكتسب قوة وجماهيرية كبيرتين عندما ظهر أول تنظيم جهادي، عرف باسم «عصبة القسام» الذي تزعمه الشيخ المجاهد

عز الدين القسام، واختط منهج الجهاد المسلح لمواجهة التحالف الاستعماري البريطاني - الصهيوني. وقد مارس هذا المنهج دوراً مهماً أثناء الثورة الكبرى (١٩٣٦ - ١٩٣٩) (١١٧)، ثم أثناء حرب عام ١٩٤٨ (١١٨). إنما بفعل عوامل كثيرة، لم تسجل الانتفاضات المتتالية منذ الاحتلال الإسرائيلي للضفة والقطاع عام ١٩٦٧ وحتى الانتفاضة الكبرى، أية مشاركة، أو أي دور بارز، لتنظيمات الحركة الإسلامية (١١٩). فمنذ مطلع الثمانينات اتجهت أعداد متزايدة من الشباب إلى تبني المعتقدات الأصولية، وتحرك التيار الإسلامي تحت لافتات مختلفة مثل الجماعة الإسلامية، والتيار الإسلامي الثوري، والحركة الإسلامية المجاهدة، وحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، والطلیعة الإسلامية، وسرايا الجهاد الإسلامي. وقد تأثر هذا المد الأصولي، عموماً، بحركة المد المشابهة في إيران (بعد الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩)، ومصر وتونس والسودان، وغيرها (١٢٠).

لقد تصاعد دور هذا التيار بأجنحته المختلفة، عموماً، داخل الضفة والقطاع، حتى بلغ هذا الدور ذروته في الانتفاضة الكبرى بفعل عاملين أساسيين: أولهما عسكري، ويتصل بمجموعة من الأنشطة العسكرية والعمليات الاستشهادية (يسمى البعض خطأً «الانتحارية») قامت بها جماعات من هذا التيار؛ وثانيهما سياسي، استمد تأثيره من موقف الأجنحة الإسلامية المختلفة من قضية فلسطين والنضال الوطني الفلسطيني، وكذلك من أجواء التعاطف الشعبي مع عناصر هذه الأجنحة ومواقفهم النضالية داخل

المعتقلات وخارجها^(١٢١). هذا، بالطبع، إلى جانب ما رآه البعض من أن استمرار الغزوة الصهيونية إلى فترة ممتدة، واعتداءاتها المتكررة على المقدسات الإسلامية، والتشكيك في هوية بعض هذه المقدسات، كان أحد العناصر الدافعة إلى الصحوة الإسلامية التي تشهدها فلسطين وجهات متعددة أخرى^(١٢٢).

على أي حال، فإن صعود التيار الإسلامي الذي بدا واضحاً في الانتفاضة الكبرى، مثل متغيراً مهماً على ساحة المقاومة الفلسطينية، إذ إن مجموع أجنحة هذا التيار كوَّنت كتلة كبيرة (قد تكون في نظر البعض الثانية من حيث القوة بعد قوة فصائل منظمة التحرير الفلسطينية)^(١٢٣)، داخل الأرض المحتلة. وهو، رغم بعض التفاصيل الفرعية في التوجهات السياسية، يخطر، عموماً، في المسار العام لحركة التحرر الوطني الفلسطيني، وربما يدفع وجوده في اتجاه تصاعد المقاومة الناشئ عن إقدام عناصره على المواجهة والتضحية إيماناً بالمبدأ الإسلامي «النصر أو الشهادة»^(١٢٤).

على هذا النحو تكون الانتفاضة الكبرى قد نجحت في إيجاد حل مناسب لاشكالية العلاقة ما بين الإسلامي والوطني، بإسقاط الخلافات الثانوية في سبيل التخلص من الاحتلال، ثم يفساح مجالاً في منظمة التحرير الفلسطينية لمشاركة ممثلين عن التيار الإسلامي في إطار المجلس الوطني الفلسطيني (السلطة التشريعية

للمنظمة)، وأخيراً بإعلان معظم قوى هذا التيار بأنها جزء لا يتجزأ من الحركة الوطنية الفلسطينية^(١٢٥).

في سياق النظرة المقابلة تجدر الملاحظة، في هذا الموضع، أن الانتفاضة الكبرى أسقطت في مجراها دعوى إسرائيلية تكررت على هامش الانتفاضات السابقة في الأرض المحتلة منذ عام ١٩٦٧، وهي أن الانتفاضات إنما هي «أحداث شغب واختلال بالنظام» تتم بفعل عناصر تحريرية من الخارج، وأن الأمور تسير على وجه طيب في الداخل لو أن هذه العناصر «التخريبية» قد التزمت الهدوء أو قُضي عليها خارج الحدود! كان هذا الادعاء الإسرائيلي يقوم على تجاهل كامل لوحدة الشعب الفلسطيني ووحدة أهدافه والامتدادات التنظيمية الفلسطينية في الداخل والخارج، والاعتبارات التاريخية التي فرضت وجود «داخل» و«خارج» في نموذج المقاومة الفلسطينية، وقام هذا الادعاء، كذلك، على تجاهل لعنصر مهم هو أنه حتى لو كانت العمليات الفدائية أو الانتفاضات تتم من الخارج نحو الداخل، فإنها تظل بحاجة إلى دعم سكان الأرض المحتلة ولو في أبسط الأشكال، مثل السكوت على النشاط الفدائي وتعمية العدو عن العناصر المحرصة على الانتفاض! بعبارة أخرى، لا ينفي مجيء السمك من الخارج (عناصر المقاومة) أن البحر (الأرض المحتلة وسكانها) صالح ليعيش هذا السمك فيه. ومع هذا، فإن الانتفاضة جاءت لكي تضع حداً للدعوى الإسرائيلية (وأحياناً غير الإسرائيلية)، وأصلت لمفهوم الثورة (الانتفاضة) من الداخل في الداخل، وهو

داخل وثيق الصلة بالخارج الذي يضمن له الدعم ويجسد انتصاراته سياسياً.

٣ - بين المقاومة الفلسطينية والمقاومة اللبنانية

إذا تفحصنا العلاقة المتبادلة بالتأثير والتأثر بين المقاومة اللبنانية للاحتلال الإسرائيلي، بخاصة منذ عام ١٩٨٢، وصعود حركة المقاومة في الأرض المحتلة وصولاً إلى الانتفاضة، نلاحظ أن نجاح المقاومة في لبنان وإلزام إسرائيل على الانسحاب من بيروت وصيدا وصور، وضغط وجودها العسكري إلى أدنى حد ممكن في الجنوب اللبناني، قد خلق حالة من الثقة في نتائج المقاومة عموماً، كما أدّى إلى توهج المشاعر في الأرض المحتلة عام ١٩٦٧. وقد تعززت هذه الظواهر في ضوء العمليات الاستشهادية التي شهدتها النموذج اللبناني للمقاومة.

كان الانسحاب الإسرائيلي من لبنان مبشراً على صعيد إمكانية إلزام إسرائيل على الانسحاب من مناطق محتلة أخرى. فالوجود الإسرائيلي ليس قدراً مقدوراً، وإنما هو وجود يرتن بالقدر على التضحية والتصدي له. ويبدو أن هذا الدرس تم استيعابه جيداً في الأرض المحتلة، كسابقة لها ما بعدها في كيفية مواجهة التحدي الإسرائيلي.

لقد تأثرت الانتفاضة، إذأ، بالمناخ الذي أشاعته نتائج المقاومة في لبنان. ولكن التساؤل الذي يطرح نفسه هو: لماذا نجحت

المقاومة نسبياً في نموذجها اللبناني، وحققت نتائج سريعة بالمقابلة بالنموذج الموازي في الضفة والقطاع؟ في هذا الجانب يمكن الحديث عن العوامل الآتية:

- حرية حركة الجماهير في لبنان بسبب غياب هياكل الدولة في خضم الحرب الأهلية، وعدم وجود سلطات قمع على الحدود مع الكيان الصهيوني.

- توافر الخبرة القتالية على الحرب الغوارية في جنوب لبنان منذ انتقال المقاومة الفلسطينية إلى هناك عام ١٩٧١. ذلك في مقابل ضعف التراث القتالي المائل في الأرض المحتلة عام ١٩٦٧، بخاصة في الضفة الفلسطينية لأن قطاع غزة عرف نماذج محدودة من هذه الحرب منذ الخمسينات^(١٢٦).

- كان العنصر الطبوغرافي مساعداً، إلى حد بالغ، في النموذج اللبناني بسبب الحدود المفتوحة وحرية الحركة، الأمر الذي وفّر العناصر البشرية والتسليح، ووسّع آفاق المناورة أمام قوى المقاومة.

- تنحو الخلافات الداخلية في النموذج اللبناني لمصلحة مواجهة العدو، مقابل وجود خلافات ملموسة في النموذج الفلسطيني في الأرض المحتلة بين بعض التنظيمات، وصلت إلى حد تبني فصل فدائي لعمليات عسكرية قام بها فصل آخر في بعض الأحيان^(١٢٧).
مهما يكن من أمر، فينبغي عدم غض النظر عن تأثير النموذج

اللبناني، في التحليل الأخير، بمشاركة المقاومة الفلسطينية في دحر الوجود الإسرائيلي في لبنان، ومساعدات منظمة التحرير التسليحية والمادية في هذا الجانب. ومع ذلك، تظل المقاومة في، نموذجيها اللبناني والفلسطيني، في الأرض المحتلة، وجهين بارزين لحركة المقاومة العربية للغزوة الصهيونية.

هوامش الفصل الثالث

- (١) *Jerusalem Post*, 26/2/1986.
- (٢) انظر التفاصيل في: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام والجامعة الأردنية، مركز الدراسات الاستراتيجية، النظام الإقليمي العربي، الوضع الراهن والتحديات المستقبلية: أعمال المؤتمر الاستراتيجي العربي الأول، ١٥ - ١٧ أيلول ١٩٨٧ (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٩).
- (٣) يزيد صايغ، «تحوّل في عمليات الداحل: عط الاشتباك المباشر»، شؤون فلسطينية، العددان ١٧٦ - ١٧٧ (تشرين الثاني/نوفمبر - كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧)، ص ١٣٣ - ١٤٠.
- (٤) فلسطين الثورة (الصحيفة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية)، نقلاً عن: *Middle East Journal* (27 August 1988).
- (٥) اليوم الانتفاضة (عمّان: دار الجليل للنشر، ١٩٨٨)، ص ١٤ - ١٥.
- (٦) الأهرام، ١٩٧٩/٥/٢.
- (٧) انظر نص خطاب ياسر عرفات في «القمة العربية» في محلة. شؤون فلسطينية، العدد ٢٠٧ (حزيران/يونيو ١٩٩٠)، ص ١٤٨.
- (٨) صحيفة الحياة (لندن)، ١٩٩٠/٥/٢٧.
- (٩) يزيد صايغ، «تآكل في الموقف الإسرائيلي»، شؤون فلسطينية، العدد ٢٠٨ (تموز/يوليو ١٩٩٠)، ص ١٢٥، نقلاً عن: مكتب الاعلام الفلسطيني في القاهرة، وصحيفة الحياة، ١٩٩٠/٦/١١.
- (١٠) يزيد صايغ، «هجمات فردية جريئة»، شؤون فلسطينية، العدد ١٩٣ (نيسان/أبريل ١٩٨٩)، ص ١٣٤.
- (١١) اليوم الانتفاضة، ص ١٥.
- (١٢) عمر سعادة، الحرب على الجبهة الاقتصادية: دراسة لمردودات الحرب الفلسطينية على الاقتصاد الإسرائيلي (عمّان: دار الكرمل، ١٩٨٦)، ص ١١٢.
- (١٣) هآرتس، ١٩٩٠/٦/٤.
- (١٤) سعادة، المصدر نفسه، ص ١٤.

- (١٥) عبد الجبار عدوان، ثمن الاستقلال (القاهرة: دار الشرق الأوسط للنشر، ١٩٨٩)، ص ٣٥.
- (١٦) انظر حول هذا الفهم: وحيد عبد المجيد، «الشباب الفلسطيني يتحرر من عقدة الهزيمة»، المنار، العدد ٣٦ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧)، ص ١٠٢ - ١١٣.
- (١٧) أحمد صدقي الدجاني، الانتفاضة الفلسطينية والصحوة العربية (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٨)، ص ٩٥ - ٩٦.
- (١٨) انظر: الفصل الأول من هذا الكتاب.
- (١٩) خالد عايد، الانتفاضة الثورية في فلسطين: الأبعاد الداخلية (عمّان: دار الشروق، ١٩٨٨)، ص ٥١.
- (٢٠) حول مشاركة سكان الجليل المحتل عام ١٩٤٨ وتضامنهم مع الانتفاضة في الأرض الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ وانعكاسات ذلك على الفكر السياسي والاستراتيجي الإسرائيلي، أنظر على سبيل المثال: عبد الوهاب المسيري، الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسة في الكرامة والادراك (القاهرة: المطبعة الفنية، ١٩٨٩)، ص ٣١ - ٣٢ و ١٩٤؛ لطفي الخولي، الانتفاضة والدولة الفلسطينية (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨)، ص ١١٩ - ١٢٨، ٢٨٤ و ٢٨٧؛ محبوب عمر، الانتفاضة: تراث وحاضر ومستقبل ظافر (القاهرة: دارالبيادر، ١٩٨٩)، ص ٢٩ - ٣٠، وعايد، المصدر نفسه، ص ٧٧ - ٨٩.
- (٢١) من ذلك أنه في عام ١٩٨٦ وبعد فشل الاتفاق الأردني الفلسطيني لعام ١٩٨٥، أكدت المصادر الإسرائيلية أن «شيمون بيرس»، رئيس الوزراء الاسرائيلي، قد وافق على مشروع يهدف إلى تنفيذ مشروع الحكم الذاتي في قطاع غزة أولاً (تحت الإدارة المصرية) في إطار مشروع أشمل يهدف إلى إعادة الضمة الفلسطينية فيما بعد للأردن. أنظر: ربيعي المدهون، «البحث عن قيادة بديلة»، شؤون فلسطينية، العددان ١٦٠ - ١٦١ (تموز/يوليو - آب/أغسطس ١٩٨٦)، ص ١٥٨.
- (٢٢) انظر: عدوان، ثمن الاستقلال، ص ٣٤.
- (٢٣) عايد، الانتفاضة الثورية في فلسطين: الأبعاد الداخلية، ص ٥١.
- (٢٤) عدوان، المصدر نفسه، ص ١٨.
- (٢٥) اليوم الانتفاضة، ص ١٥.

- (٢٦) عبد الحبار عدوان، أنياب الحروف، الانتفاضة على طريق الاستقلال الفلسطيني؛ ١ (القاهرة: دار الشرق الأوسط للنشر، ١٩٨٩)، ص ١٥ - ١٦.
- (٢٧) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٨، المشرف ورئيس التحرير السيد يسين (القاهرة: المركز، ١٩٨٩)، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.
- (٢٨) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٩، المشرف ورئيس التحرير السيد يسين (القاهرة: المركز، ١٩٩٠)، ص ٣١٤.
- (٢٩) المصدر نفسه، ص ٣١٥.
- (٣٠) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٨، ص ٣٥٤.
- (٣١) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٩، ص ٣١٧.
- (٣٢) المصدر نفسه، ص ٣١٨.
- (٣٣) انظر: هآرتس، ١٩٩٠/٦/٢٢؛ دافار، ١٩٩٠/٦/٢٢، وعال همشيار، ١٩٩٠/٦/٢٤.
- (٣٤) لعل من أبرز الأمثلة ما قامت به قوات الاحتلال في معسكر البريج في قطاع غزة في أيلول/سبتمبر ١٩٩٠، حين هدمت بتوجيه مباشر من وزير الدفاع وإقراة الجهات القضائية الاسرائيلية، عشرات المنازل والمتاجر. وذلك على إثر مصرع أحد الجنود حرقاً على أيدي مواطنين من المخيم. انظر: الأهرام، ١٩٩٠/٩/٢٥ - ٢١.
- (٣٥) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٨، ص ٣٥٥.
- (٣٦) المصدر نفسه، ص ٣٥٦.
- (٣٧) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٩، ص ٣٢١.
- (٣٨) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.
- (٣٩) انظر: ידיעות أحر ونوت، ١٩٨٨/٥/٢٩.

(٤٠) للمزيد من هذه الاستطلاعات ونتائجها، أنظر: عمر سعادة، «الانتفاضة والقوى السياسية في إسرائيل»، شؤون فلسطينية، العدد ٢٠٣ (شباط/فبراير ١٩٩٠)، ص ٢٢ - ٢٤.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٤٢) أنظر: هآرتس، ١٩٨٨/١٠/٢٨، وداغار، ١٩٨٩/٢/٩.

(٤٣) هآرتس، ١٩٨٩/٣/٢٩.

(٤٤) سعادة، «الانتفاضة والقوى السياسية في إسرائيل»، ص ٢٩.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٤٦) هآرتس، ١٩٩٠/٥/٨.

(٤٧) سمير صراص، «الانتفاضة بعد عامين: تقويمات إسرائيلية»، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٢ (ربيع ١٩٩٠)، ص ٢٥ - ٢٧.

(٤٨) أنظر التفاصيل في: عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ط ٩ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥)، ص ٢٠٢ - ٢٠٩.

(٤٩) أسامة الغزالي حرب، الاستراتيجية الإسرائيلية والمقاومة في الأرض المحتلة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام؛ ١٨ (القاهرة: المركز، ١٩٧٧)، ص ١١٦.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٥١) المصدر نفسه، ص ١١٨.

(٥٢) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٥، المشرف ورئيس التحرير السيد يسين (القاهرة: المركز، ١٩٨٦)، ص ٣٠٨.

(٥٣) صبري جريس، تاريخ الصهيونية، ج ٢: الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ١٩١٨ - ١٩٣٩ (نيقوسيا: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٦)، ص ٣٢٦.

(٥٤) وردت إشارات لهذه الظواهر في مختلف الشهادات العربية أمام لجنة التحقيق الملكية لعام ١٩٣٧، المعروفة بلجنة «بيل». انظر: الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين، جمعها محمد توفيق جانا (دمشق: [د.ن.]، ١٩٣٧).

- (٥٥) الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٦٠.
- (٥٦) جريس، تاريخ الصهيونية، ج ٢: الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ١٩١٨ - ١٩٣٩، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.
- (٥٧) انظر تقرير اللجنة الملكية لفلسطين في: ملف وثائق فلسطين. مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، [د.ت.])، ج ٣، ص ٢٧٨.
- (٥٨) يوسف رجب الرضيي، ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ في فلسطين: دراسة عسكرية (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٢)، ص ٤٥ - ٤٦.
- (٥٩) ناجي علوش، المقاومة العربية في فلسطين، ١٩١٧ - ١٩٤٨، سلسلة كتب فلسطينية؛ ٦ (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٧)، ص ١١٦.
- (٦٠) الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٦٩.
- (٦١) حسين صبري الخولي، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠ - ١٩٧٣)، ص ٥١٦.
- (٦٢) صالح مسعود بويسير، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، ط ٣ (القاهرة: دار البيادر، ١٩٨٧)، ص ٢١٢ - ٢١٦.
- (٦٣) محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام، [د.ت.])، ج ١، ص ١٢٨.
- (٦٤) الخولي، الانتفاضة والدولة الفلسطينية، ص ٢٧.
- (٦٥) انظر: عايد، الانتفاضة الثورية في فلسطين: الأبعاد الداخلية، ص ٥١ - ٥٢.
- (٦٦) وحيد عبد المجيد، «الشمولية الاجتماعية للانتفاضة: قراءة أولية»، شؤون فلسطينية، العدد ١٩٣ (نيسان/أبريل ١٩٨٩). وانظر نداءات القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة في: عدوان، ثمن الاستقلال، ص ١٠٩ - ٢٢٠؛ حداثشوت، *Jerusalem Post*, 7/10/1988 و ١٩٨٩/٦/٢٨، ١٩٨٩/٦/٢٣.

- (٦٧) أكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية، ١٩٣٥ - ١٩٣٩، سلسلة الدراسات؛ ٥٥ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠)، ص ٦١.
- (٦٨) المصدر نفسه، ص ٧٦.
- (٦٩) للمزيد من أعمال هذه اللجان، انظر: بيان نوبت الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧ - ١٩٤٧ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٣٣٧ - ٣٤١.
- (٧٠) الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٧٣.
- (٧١) جريس، تاريخ الصهيونية، ج ٢: الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ١٩١٨ - ١٩٣٩، ص ٣٣٤.
- (٧٢) الكيالي، المصدر نفسه، ص ٣١٢ - ٣١٥، ودورة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات، ص ٢١٨.
- (٧٣) أصدرت السلطات أوامر بالقض على أعضاء اللجنة العربية العليا في ١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٧، وأعلنت عدم شرعية اللجان القومية. انظر: زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية، ١٩٣٥ - ١٩٣٩، ص ٣٣١.
- (٧٤) علوش، المقاومة العربية في فلسطين، ١٩١٧ - ١٩٤٨، ص ١٢٧.
- (٧٥) للمزيد من التفاصيل، أنظر: فوزي الأسمر، «الانتفاضة على أرض الواقع: رؤية شاهد»، شؤون عربية، العدد ٥٧ (آذار/مارس ١٩٨٩)، ص ١١٨، وعدوان، ثمن الاستقلال، ص ٦٣ - ١٠٢.
- (٧٦) علي الجرباوي، الانتفاضة والقيادات السياسية في الضفة الغربية وقطاع غزة. بحث في النخبة السياسية (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٩)، ص ١٣١.
- (٧٧) المصدر نفسه، ص ٤٣، وزياد أبو عمرو، الحركة الإسلامية في الضفة الغربية وقطاع غزة (عكا: دار الأسوار، ١٩٨٩).
- (٧٨) أبو عمرو، المصدر نفسه، ص ٨٨.
- (٧٩) المصدر نفسه، ص ٨٧ - ١٠٥.
- (٨٠) المصدر نفسه، ص ٩١.
- (٨١) عايد، الانتفاضة الثورية في فلسطين: الأبعاد الداخلية، ص ٧٢.
- (٨٢) الجرباوي، الانتفاضة والقيادات السياسية في الضفة الغربية وقطاع غزة:

- بحث في النخبة السياسية، ص ١٣٠، وأبو عمرو، المصدر نفسه، ص ١٦٨ .
- (٨٣) ربي المدهون، «خطة إسرائيلية لإضعاف الانتفاضة» هامش مرونة لحركة «حماس»، شؤون فلسطينية، العدد ١٨٧ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٨)، ص ١٣١ - ١٣٦، وفايز سارة، «الحركة الإسلامية في فلسطين: وحدة الايديولوجيا وانقسامات السياسة»، المستقبل العربي، السنة ١٢، العدد ١٢٤ (حزيران/يونيو ١٩٨٩)، ص ٦١ - ٦٤.
- (٨٤) الخولي، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، ص ٥٨٨ .
- (٨٥) المصدر نفسه، ص ٥٩٠؛ الرضيي، ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ في فلسطين: دراسة عسكرية، والحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧ - ١٩٤٧، ص ٣٥٠.
- (٨٦) الرضيي، المصدر نفسه، ص ٥٤ - ٥٥.
- (٨٧) دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات، ص ٢٢٣ - ٢٣٥.
- (٨٨) غسان كنفاني، «ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩... خلفيات وتفاصيل وتحليل»، شؤون فلسطينية، العدد ٦ (كانون الثاني/يناير ١٩٧٢)، ص ٦٨.
- (٨٩) حول الفهم ذاته، انظر: «ندوة المستقبل العربي. تطورات القضية الفلسطينية»، شارك في الندوة أحمد صدقي الدجاني [وآخرون]؛ أدار الندوة أحمد صدقي الدجاني؛ أعد ورقة العمل وحيد عبد المجيد؛ أعد تقرير الندوة محسن عوض، المستقبل العربي، السنة ١٢، العدد ١٢٣ (أيار/مايو ١٩٨٩)، ص ١٢٤.
- (٩٠) هارتس، ١٩٨٨/٢/٥.
- (٩١) ربي المدهون، «سته شهور في الاتجاه الصحيح»، شؤون فلسطينية، العدد ١٨٤ (تموز/يوليو ١٩٨٨)، ص ٤، وعمر، الانتفاضة تراث وحاضر ومستقبل ظافر، ص ٢٧.
- (٩٢) هيثم كيلاني، «الانتفاضة في اطارها الاستراتيجي»، شؤون فلسطينية، العدد ١٩٤ (أيار/مايو ١٩٨٩)، ص ١١.
- (٩٣) انظر: الأهرام، ٩ - ٢٥/١٠/١٩٩٠.

(٩٤) العصيان المدني، والذي يطلق عليه في الأدبيات الغربية أحياناً «المقاومة السلبية»، مفهوم يشير من الناحية الوصفية، إلى «أي فعل أو إجراء جماهيري يتم بقصد تحدّي قوانين أو سياسات أو حالة قائمة (كالاحتلال الأجنبي)، يتم فرضها بواسطة سلطة حاكمة أو قوة قاهرة». والعصيان قد يكون إيجابياً أو سلبياً. فعندما يتم القيام بأعمال لا ترغبها السلطة يكون إيجابياً، وعندما يتم الامتناع عن إتيان أعمال ترغب السلطة فيها يكون سلبياً. غير أنه في مختلف الحالات، يعدّ العصيان من وجهة نظر السلطة عملاً غير قانوني، كما أن القائمين به يتصرفون وفي اعتبارهم أن سلوكهم يتناقض وتطلعات السلطة المفروضة عليهم، ويمثل نضالاً مشروعاً. أما المقاطعة فيقصد بها «الإمتناع عن التعامل اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً - أو على جميع هذه الصعد - مع جماعة أو سلطة لإبراز السخط وعدم الرضا وتحقيق مطالب معينة»، ويشار إليها أحياناً بـ «عدم التعاون». للمزيد من التفاصيل، انظر:

David Sills, ed., *International Encyclopaedia of the Social Sciences*, 17 vols. (London: Collier - Macmillan Publishers, 1972), vol 1, pp. 473 - 478, and

أحمد عطية الله، القاموس السياسي (القاهرة: دار النهضة العربية ، ١٩٨٠)، ص ١٥٠١ - ١٥٠٢

(٩٥) أكرم زعتر، القضية الفلسطينية، ط ٣ (عُمان: دار الجليل للنشر، ١٩٨٦)، ص ١٢٩

(٩٦) الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧-١٩٤٧، ص ٢٤١ و٣٨٠، والرضيحي، ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ في فلسطين: دراسة عسكرية، ص ٤٩ (٩٧) دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات، ص ١٨٣ - ١٨٥، والحوالي، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، ص ٧٢٢ - ٧٣٥.

(٩٨) للتوسع حول أعمال المؤتمر المذكور، أنظر. المؤتمر النسائي الشرقي للدفاع عن قضية فلسطين (القاهرة. [د.ن.، ١٩٣٨)

(٩٩) حريس، تاريخ الصهيونية، ج ٢: الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ١٩١٨ - ١٩٣٩، ص ٥٠.

(١٠٠) عمن عوض، الاستراتيجية الاسرائيلية لتطبيع العلاقات مع البلاد العربية، سلسلة الثقافة القومية، ١٦ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨).

(١٠١) انظر على سبيل المثال: حس نافعة، «العلاقات الاسرائيلية الامريكية»، في: عبد المنعم المشاط [وآخرون]، الأبعاد الإقليمية والدولية للقضية الفلسطينية في الوقت الراهن (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٣)، ص ٥٨، وبرهان عليون، «فشل الخيار السلمي»، قضايا فكرية، العدد ٧ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٨)، ص ٢٠٣.

(١٠٢) انظر: «خطاب رئيس دولة فلسطين في القمة العربية الإستثنائية بالدار البيضاء»، شؤون فلسطينية، العدد ١٩٥ (حزيران/يونيو ١٩٨٩)، ص ١٥٢ - ١٥٧، وخطابه في قمة بغداد، شؤون فلسطينية، العدد ٢٠٧ (حزيران/يونيو ١٩٩٠)، ص ١٤٤ - ١٤٩.

(١٠٣) عن هذين العسكريين في تاريخ السياسة الفلسطينية، أسطر: علي مسعود عطية، الحزب العربي في فلسطين وحزب الدفاع الوطني، ١٩٣٤ - ١٩٣٧ (القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٥). وحول أثر التناحر بينها على مسار ثورة ١٩٣٦، أنظر: جريس، تاريخ الصهيونية، ج ٢: الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ١٩١٨ - ١٩٣٩، ص ٣٤٨.

(١٠٤) كيلاني، «الانتفاضة في اطارها الاستراتيجي»، ص ١٤.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٣١٣؛ الخوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧ - ١٩٤٧، ص ٤٠٨، ودروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات، ص ٤٢٨.

(١٠٦) وحيد عبد المجيد، «انتفاضة الضفة والقطاع». وتطور الحركة الوطنية الفلسطينية، السياسة الدولية، السنة ٢٤، العدد ٩٢ (نيسان/ابريل ١٩٨٨)، ص ١٣.

(١٠٧) انظر على سبيل المثال: علوش، المقاومة العربية في فلسطين، ١٩١٧ - ١٩٤٨، ص ١٥٤ - ١٥٨، وكنفاني، «ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩». خلفيات وتفاصيل وتحليل، ص ٧٠ - ٧١.

- (١٠٨) جريس، تاريخ الصهيونية، ج ٢: الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ١٩١٨ - ١٩٣٩، ص ٣٤٨.
- (١٠٩) دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.
- (١١٠) المجلس الوطني الفلسطيني، وثائق دورة المجلس، ١٩، الخزانة، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨.
- (١١١) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٧، المشرف ورئيس التحرير السيد يسين (القاهرة: المركز، ١٩٨٨)، ص ٢٦٢.
- (١١٢) انظر: محمد خاليد الأزعر، المقاومة في قطاع غزة، ١٩٦٧ - ١٩٨٥ (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، ص ٢٣.
- (١١٣) يوسف أبو سمرة، «العنف الاستيطاني وآثاره النفسية والاجتماعية والثقافية في الأراضي المحتلة»، السياسة الدولية، السنة ٢٣، العدد ٩٠ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٧)، ص ١٥٠.
- (١١٤) عبد المجيد، «الشباب الفلسطيني يتحرر من عقدة الهزيمة»، ص ١٠٢ وما بعدها.
- (١١٥) انظر: *Jerusalem Post*, 4/4/1988, and 6/4/1988.
- (١١٦) انظر نص أحد المشورات، في: عبد الحفيظ محارب، «المناطق المحتلة»، شؤون فلسطينية، العدد ٥ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧١)، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.
- (١١٧) سارة، «الحركة الإسلامية في فلسطين: وحدة الايديولوجيات وانقسامات السياسة»، ص ٤٨ - ٤٩.
- (١١٨) انظر: كامل الشريف ومصطفى السباعي، الاخوان المسلمون في حرب فلسطين، ط ٢ (القاهرة: دار النشر الإسلامية، ١٩٨٤)، زياد أسو عمرو، أصول الحركات السياسية في قطاع غزة، ١٩٤٨ - ١٩٦٧ (عكا: دار الأسوار، ١٩٨٧)، ص ٦١ - ٨٤، وزياد أبو غنيم، الحركة الإسلامية وقضية فلسطين (عُمان: دار الفرقان، ١٩٨٥).
- (١١٩) سارة، المصدر نفسه، ص ٦١.

(١٢٠) للمزيد من التفاصيل، انظر: أبو عمرو، المصدر نفسه، ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٧، ص ٢٧٨.

(١٢١) سارة، المصدر نفسه، ص ٦٢، وهالة مصطفى، «التيار الإسلامي في الأرض المحتلة»، المستقبل العربي، السنة ١١، العدد ١١٣ (تموز/يوليو ١٩٨٨)، ص ٧٥ - ٩٠.

(١٢٢) أحمد صدقي الدجاني، نظرات في قضايا معاصرة (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، ص ٨٥.

(١٢٣) أحمد يوسف أحمد، «الانتفاضة الفلسطينية: الميلاد، الانجاز، المستقبل»، المستقبل العربي، السنة ١٢، العدد ١٢٦ (آب/أغسطس ١٩٨٩)، ص ١٠.

(١٢٤) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٧، ص ٢٧٨.

(١٢٥) الخولي، الانتفاضة والدولة الفلسطينية، ص ٥٤ - ٥٥، وأحمد، المصدر نفسه، ص ٢١.

(١٢٦) للمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة، انظر: يونس الكتري، حلقة مفقودة من كفاح الشعب الفلسطيني: الكتيبة ١٤١ فدائيون (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، والأزرع، المقاومة في قطاع غزة، ١٩٦٧ - ١٩٨٥.

(١٢٧) انظر إشارات عن النموذج اللناني للمقاومة وأثره على المقاومة في الضفة والقطاع، في: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٧، ص ٣١٠ - ٣١٣؛ موثي ماعوز، «يوميات المقاومة اللبنانية، ١٩٨٥/٢/١٧»، في: صامدون (كتاب غير دوري)، (القاهرة، أيار/مايو ١٩٨٥، ص ١٥٠؛ أحمد صدقي الدجاني، مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، ص ١٠١ - ١١٤؛ «ندوة الانتفاضة الفلسطينية: قراءة جديدة للانتفاضة»، الوحدة، العددان ٤٦ - ٤٧ (تموز/يوليو - آب/أغسطس ١٩٨٨)، ص ٢٩٩، ويديعوت أحرونوت، ١٩٨٨/٩/٩.

الفصل الرابع

من قضايا المقاومة . . رؤية مستقبلية

عندما غزت القوات الإسرائيلية لبنان عام ١٩٨٢، كانت تهدف ضمن أهداف أخرى، إلى تقرير مصير الضفة الفلسطينية وقطاع غزة في إطار المفاهيم الصهيونية. وصحيح أن هذا الهدف لم يتحقق في ذلك الحين، إلا أن السياسة الفلسطينية ووجهت بمزيد من علامات الاستفهام التي كان بعضها موضع حوار واسع من قبل. إذ ما العمل؟ وكيف يمكن تصحيح مسار المقاومة في الأرض المحتلة، وهل تستطيع السياسة الفلسطينية تفعيل خطابها السياسي، ناهيك عن تحقيق أهدافها، دون الارتقاء بفاعلية المقاومة؟ . . وقد تبارت قوى كثيرة داخل الساحة الفلسطينية وخارجها لتقديم المقترحات والحلول وعرض وجهات النظر.

وبحلول منتصف الثمانينات، كانت المقاومة تشق طريقها داخل الأرض المحتلة على جميع الصعد (ثقافياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً . . .) في خط متعرج لكنه يتجه نحو الصعود.

ثم جاءت الانتفاضة الكبرى في النصف الثاني من الثمانينات، فأجابت من ناحية عن كثير من التساؤلات، لكنها من ناحية ثانية أثارت تساؤلات أخرى، انشغل بها المتابعون وأصحاب الشأن وقد تظل موضع انشغالهم لفترة لاحقة. من هذه التساؤلات: هل كان إندلاع الانتفاضة أمراً عفوياً أم مخططاً؟. . ويتضمن هذا التساؤل في ثناياه تساؤلاً آخر عن علاقة منظمة التحرير الفلسطينية بالمقاومة في الأرض المحتلة. وما أثر كون الانتفاضة قد جرت بشكل عفوي أو مخطط على مسار المقاومة في الأرض المحتلة مستقبلاً؟ وأي النهجين المدني العنيف أو اللاعنيف أم العسكري المسلح العنيف أنجح لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي؟ وما هي فرص كل منها لتحقيق الأهداف الفلسطينية؟ وفي ضوء التجربة النضالية الفلسطينية الممتدة بعامة وطور الانتفاضة الكبرى بخاصة، ما هي العناصر الحاكمة لمسار المقاومة الفلسطينية في الأرض المحتلة عام ١٩٦٧؟

إن هذه التساؤلات وما شاكلها، تعبر عن بعض قضايا المقاومة في الأرض المحتلة. وفي حقيقة الأمر، فإنه من غير المتوقع أن تتوقف التساؤلات أو تنتهي القضايا المشارة، طالما بقي الصراع مستمراً على أرض فلسطين ومن حولها بعامة، وطالما لم تتحقق أهداف الحركة الفلسطينية بخاصة. وعلى ذلك فإن محاولة الإجابة عن التساؤلات المذكورة، لا تعني سوى محاولة الاقتراب من بعض القضايا المتعلقة بمسار المقاومة الفلسطينية في عهده الحاضر والمستقبل، إستناداً إلى الخبرة المتراكمة، وليس الإحاطة بكل ما

تثيره تجربة المقاومة الفلسطينية - قبل عام ١٩٨٢ أو بعده - من قضايا وتساؤلات.

أولاً: العفوية والتخطيط

ما ان بدأت الانتفاضة الكبرى، حتى احتدم الجدل بين وجهتي نظر؛ قالت الأولى إن الانتفاضة قد جاءت بشكل عفوي، لا عن سابق تدبر قامت به إحدى الجهات وبخاصة من خارج الأرض المحتلة. وقالت الثانية إن الانتفاضة انفجرت في توقيت محدد بفعل تخطيط مسبق لقوى منظمة التحرير الفلسطينية.

في التحليل النهائي، يبدو أن بعضاً من فريق القائلين بالعفوية قد أشاعوا مقولتهم بغرض الفصم بين قوى الثورة الفلسطينية وربما بين أبناء الشعب الفلسطيني بأكمله داخل الأرض المحتلة وخارجها، وعزل منظمة التحرير الفلسطينية عن دائرة الضوء التي أشعتها الانتفاضة. وهو الأمر المتوقع من الجانب الصهيوني الإسرائيلي وحلفائه. بينما انطلق نفر آخر من هذا الفريق في مقولتهم قاصدين الإعلام عن قوة الشعب الفلسطيني وحسن أدائه تحت الاحتلال رغم وطأة السياسة الاستعمارية الإسرائيلية، أو قاصدين النقد البناء لممارسات قوى الثورة الفلسطينية في الخارج ولفت نظرها إلى مزيد من الفعل بالداخل في ضوء الضغوط التي تواجهها في الخارج. وبين هؤلاء من انطلق عن رغبة في تبرير عدم

المشاركة في أنشطة المقاومة من قريب أو بعيد سواء قبل وقوع الانتفاضة أو بعد ذلك^(١).

طبقاً لهذا الفريق، فقد انفجرت الانتفاضة الكبرى بشكل عفوي، واستمرت كذلك حتى أواخر الشهر الأول من عمرها تقريباً. وبذلك فإنها فاجأت الجميع سواء من حيث توقيتها أو جديتها في المواجهة أو سعة رقعتها. وتعود أسباب الطابع العفوي في هذا السياق إلى:

١ - غياب القيادات المحلية أو القيادات المركزية داخل الأرض المحتلة، وغياب الأطر التنظيمية القادرة على استيعاب زخم الانتفاضة. أما القيادات والأطر القائمة فكانت بحاجة إلى عملية تحول ترقى بها إلى المستوى النضالي المتقدم الجديد.

٢ - حدوث جزء كبير من نشاطات الانتفاضة كرد فعل على أعمال القمع والاستفزاز التي كانت تقوم بها سلطات الاحتلال، ثم كسر حاجز الخوف بعد ذلك.

٣ - إن الانتفاضة جاءت نتيجة «الأس والإحباط» اللذين هيمنا على أبناء الأرض المحتلة نتيجة مرور عشرين عاماً على الاحتلال دون بارقة أمل في تحرك خارجي عربي أو دولي مبشر لتسوية قضيتهم.

٤ - إن الانتفاضة جاءت في أحسن الفروض بفعل حركة التيار الإسلامي داخل الأرض المحتلة.

ويلاحظ هذا الفريق أن القيادة الوطنية الموحدة التي ألفتها فصائل منظمة التحرير الرئيسية قد تكونت، كإطار قومي قيادي للانتفاضة، في وقت لاحق، وبدأت بإصدار بياناتها بعد نحو شهر من انطلاق الانتفاضة^(٣).

يستدرك نفر من هؤلاء بالقول إن عفوية الانتفاضة لا تتقص من عظمتها، بل إن افتراض العفوية يعكس المخزون النضالي المتراكم لمختلف التنظيمات الفلسطينية وأهميته في تخمير الواقع الموضوعي للانتفاضة وإنضاجه^(٤).

في جانب آخر، وقف الفريق القائل إن الانتفاضة قد اندلعت بفعل تخطيط مسبق، قامت به فصائل منظمة التحرير الفلسطينية. وفي هذا الصدد يشير هؤلاء إلى الرسالة المفتوحة التي وجهها ياسر عرفات، رئيس المنظمة إلى أبناء الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة بتاريخ ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٧. وتحدث فيها عن تفجير «انتفاضة شعبية»^(٥). وذلك كدليل على وقوف المنظمة خلف الانتفاضة والتخطيط لها. كذلك يشيرون إلى «انضمام التيار الإسلامي إلى قوى المنظمة في دورة المجلس الوطني السابقة المنعقدة في الجزائر عام ١٩٨٧ (قبيل الانتفاضة)، الأمر الذي حمل في طياته معني التحضير للخطوة الكبرى المقبلة؛ وإلى أن القيادة الفلسطينية تعمل منذ سنوات على ملء الفراغ التنظيمي على الساحة الفلسطينية، ومع أن عملية البناء هذه جاءت في وقت مبكر عقب الاحتلال، إلا أنها تضاعفت عشرات المرات قبيل اندلاع الانتفاضة. كذلك فإن كل المؤسسات التي أفرزتها حركة الجماهير أثناء الانتفاضة، والتي ربما لا يحمل بعضها إسماً، قد أعلنت انتهاءها للمنظمة»^(٦).

يدعم هذا الفريق وجهة نظره، بما تم على أرض الواقع نفسه، سواء بإعلان معظم الهيئات والمؤسسات انضوائها تحت لواء المنظمة، أو من خلال استمرار الانتفاضة نفسها لفترة ممتدة، مما يؤكد وجود إعداد مسبق.

تبني هذا الرأي زعماء التنظيمات الفلسطينية التقليدية ومنهم جورج حبش زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الذي رأى «أنه لا يمكن لعامل أن يفسر استمرار الانتفاضة، إلا بوجود قيادة منظمة تقودها. وقد تكون الانتفاضة قد فاقت توقعات من خطط لها، ولكن من يعرف تفاصيل ما يجري في الأرض المحتلة، يعرف أن الانتفاضة جرى التخطيط لها من قبل الفصائل الأساسية في منظمة التحرير»^(٣).

ومن المرجح أن الحديث عن عفوية الانتفاضة التي سارت بكفاءة «غير عفوية» هو حديث غير علمي. فمن السذاجة بمكان أن يتصور أحد أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت غائبة عن التفاعلات التي تجري في الأرض المحتلة.

لقد أولت المنظمة أهمية قصوى عقب عام ١٩٨٢ لتكثيف وجودها التقليدي سياسياً وتنظيماً داخل الأرض المحتلة، كما سعت لأن لا يبقى مواطن واحد خارج خيمة الثورة بقدر أو آخر^(٤). كذلك لا يعد حديث العفوية (بشكل مطلق على الأقل) علمياً، عندما يفترض أن اليأس والإحباط وسوء الأوضاع الاقتصادية هي الدوافع الأساسية للانتفاضة. فهذا التفسير تتبناه العقلانيات ذات التركيبة المادية البحتة التي لا تدرك الواقع

الفلسطيني المركب^(٨). إذ إن القضية في جوهرها ليست قضية اقتصاد فحسب، فقد سعت سلطات الاحتلال إلى «تأمين الأحوال المعيشية لسكان الأرض المحتلة»، وانتشر في منتصف الثمانينات هذا المفهوم بين الأوساط الأمريكية والأوروبية إلى جانب الأوساط الإسرائيلية^(٩)، ولم يحل ذلك دون اندلاع الانتفاضة. ويستدعي هذا الأمر إلى الأذهان، أن تفسير انتفاضات الأرض المحتلة والموقف الثوري فيها، على النحو المذكور، لم يحمل جديداً، فإبان انتفاضة قطاع غزة عقب الاحتلال مباشرة، أحال بعض القياديين الإسرائيليين الوضع الثوري في القطاع إلى احتدام مشكلة اللاجئين وسوء أوضاعهم الاقتصادية هناك^(١٠).

ومع ذلك، فقد ذهب بعضهم إلى القول إن الانتفاضة مخطط لها بعيداً، وذلك حين رأوا أن إنكار دور منظمة التحرير الفلسطينية ووجودها في تفجير الانتفاضة ينتهي بإنكار وجود فلسطين كلها^(١١). فرغم أن حديث العفوية هو حديث ضعيف الإسناد، بحكم الحقائق التي أفرزها الواقع كاستمرار الانتفاضة وشمولها وإحكام تنظيمها وما أعلنه المتفضون أنفسهم، فإن الأمر ليس على نحو ما يذكره هذا البعض. ففلسطين وقضيتها مسألتان مستقلتان في التحليل الأخير عن وجود المنظمة ذاته. إن فلسطين وقضيتها كانتا دوماً موجودتين قبل اندلاع الانتفاضة أو المقاومة برمتها، وبالطبع قبل نشأة المنظمة.

إن ترجيح الرأي القائل إن الانتفاضة قد سبقها تخطيط واع لا

يعد مسألة نظرية محضة، لكنه يعني أن البيت الفلسطيني قد أحكم ترتيبه من الداخل وتم تقدير فعاليته وإمكاناته الحقيقية، وأن بناء هذا البيت وأصحابه قد بلغوا طوراً من النضج، وذلك له ما بعده فيما يخص قضية المقاومة ومسارها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي. فالانتفاضة الكبرى هي أحد أطوار المقاومة في مرحلة النضج هذه، وقد جاءت كثمرة لها. ومن هنا، فإن افتراض توقفها، لسبب أو لآخر، لا يعني نهاية المطاف. بل يعني استعداد المقاومة الفلسطينية لاستحداث آليات أخرى تستلهم تجربتها التي أضافت الكثير للمسار العام لحركة الشعب الفلسطيني في سبيل تحقيق أهدافه.

من ناحية أخرى، فإنه حتى لو صح جدلاً أن الانتفاضة لم تتم عن سابق تخطيط، فإن هذا لا ينقص من قوة المقاومة، بل يحسب إلى جانبها أيضاً. وذلك إما بحكم أن الانتفاضة هي شكل متطور للنضال الفلسطيني، وإما بحكم كون قدرة القوى الفلسطينية على استغلال الحدث وحسن البلاء في توجيهه لفترة ممتدة سبب إرهاباً حقيقياً لخصوم القضية الفلسطينية، وإما بحكم ما ستركه الانتفاضة من عوائد إيجابية نتيجة للخبرة المتراكمة على إثرها. والانتفاضة في هذه الحالة، تعيد إلى الذهن، ما سبقت الإشارة إليه، من أنها استحلّت - على سبيل المثال - خبرة الثورة الكبرى بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩، فلا شك في أن ما يليها من أطوار للمقاومة - في حال عدم تسوية القضية الفلسطينية - سوف يأخذ خبرتها في الاعتبار.

ثانياً: المقاومة المدنية والمقاومة المسلحة

إن المتابع لمسار حركة التحرير الفلسطينية، يتوقف كثيراً عند الأساليب والوسائل الكفاحية التي سلكتها هذه الحركة عبر تاريخها، فالسمة الثابتة للنضال الفلسطيني هي رفض الركون إلى الدعة، ومقارعة الاستعمار على مختلف العباءات التي تدثر بها منذ ما ينيف على مائة عام كما سبقت الإشارة. ولأن الظروف والمتغيرات المحيطة بالحركة الفلسطينية لم تكن مؤاتية في كل الأحوال، فقد انطبعت هذه الحركة بسمة أخرى، هي القدرة على إعادة التكوين واستخدام كل الوسائل المتاحة والممكنة للتعبير عن إرادة الاستقلال.

في هذا السياق، سلكت المقاومة الفلسطينية دروباً سبق لحركات تحرر أخرى أن سلكتها، وتمكنت بطول المراس من إبداع وسائلها الكفاحية الخاصة بها. كانت المقاومة المسلحة ولفترة طويلة، وبخاصة بدءاً من مطلع عام ١٩٦٥، الوجه الأكثر بروزاً للنضال الفلسطيني، وكان من الطبيعي أن يتمتع هذا النمط بالخطوة لدى المراقبين والدارسين. ذلك أن الحركة الفلسطينية تبنت العنف المسلح واعتبرته الأسلوب الوحيد لتحقيق الأهداف في مواجهة الاستعمار الصهيوني الاستيطاني في فلسطين. ومن السهل أن يعثر المرء على ما يؤكد هذه الحقيقة؛ إذ إن معظم الوثائق السياسية الخاصة بالتنظيمات الفلسطينية تبرز أهمية العنف الثوري المسلح بين طرائقها على نهج التحرير. فضلاً عما يتضمنه

الميثاق الوطني الفلسطيني - الذي يشبه الدستور في الظروف المعتادة - والذي تتبناه منظمة التحرير الفلسطينية، بهذا الخصوص^(١٧).

في مثل هذه الأجواء استحوذت المفاهيم المرتبطة بالكفاح المسلح والعنف المسلح، كحرب التحرير الشعبية والعنف الثوري وحرب العصابات، على الاهتمام على صعيدي الفكر والحركة. وفي الوقت نفسه لم تحظ المفاهيم المرتبطة بالمقاومة المدنية (عنيفة كانت أو غير عنيفة) سوى بالقليل من العناية إن كان ثمة انشغال بها عملياً على الإطلاق. وغني عن الإشارة في هذا الموضع، إلى أن ارتباط المشروع الصهيوني، ونتائجه، منذ البداية بالعنف كمنهج وأسلوب حياة، لم يتح الفرصة للمنشغلين فلسطينياً وعربياً للتفكير في غير العنف كسبيل لردّ التحدي الصهيوني. فالحركة الصهيونية هي التي عززت مفاهيم العنف في فلسطين ومن حولها.

لكل هذا، كان البعض محقاً حين رأى أن المقاومة الفلسطينية قد أهملت نسبياً تكيف الشخصية الفلسطينية، اجتماعياً واقتصادياً، في مسعاها إلى تعبئة المجتمع الفلسطيني عسكرياً وتركيزها على العنف المسلح بخاصة في سنواتها الأولى^(١٨). ولم يكن العنف الفلسطيني مجرد أداة لمواجهة جانب القوة في التحدي الصهيوني، وإنما كان أيضاً، علاجاً لكثير من مظاهر العقم النفسي والإبداعي في الشخصية الفلسطينية، وأداة لتعزيز الكرامة الوطنية الفلسطينية، وربما قاد في إحدى المراحل، كما حدث بعد هزيمة

حزيران/يونيو ١٩٦٧ مباشرة، إلى إعادة الثقة وتعزيزها بين أبناء الأمة العربية.

إن إهمال الاهتمام الفكري بأنماط الكفاح المدني لفترة طويلة، لم يكن يعني انقطاع اللجوء إلى هذه الأنماط فعلياً، وقد أشرنا في موضع سابق إلى أن لجوء الانتفاضة إلى هذه الأنماط، يشكل امتداداً لتقاليد مارسستها حركة التحرر الفلسطينية منذ فترة مبكرة، لكن الحديد هو اتساع نطاق الممارسة طبقاً لتخطيط واع وعن تدبير، ومتابعة ضمن استراتيجية لها معالمها المحددة سلفاً في السنوات الأخيرة.

والمقاومة المدنية من الناحية الإجرائية تمثل أسلوباً نضالياً يجمع خليطاً من التصرفات والسلوكيات الجماعية (الجاهيرية) للتخلص من واقع جائر قائم، بما في ذلك حالة الاحتلال الأجنبي. وتندرج تحت هذا المفهوم تصرفات احتجاجية يتسم بعضها بالطابع العنيف، كالتظاهرات المصحوبة بقدر من العنف؛ ويتسم بعضها باللاعنف كالسيرات الصامتة ورفع الأعلام والشعارات... ومن أبرز المفاهيم اللاعنافية التي ترتبط بها المقاومة، اللاتعاون والعصيان المدني. وللمقاومة المدنية خصائصها وشروطها ومنظورها ومؤيدوها، كما لها معارضوها. وثمة تجارب تاريخية للمقاومة المدنية على صعيد التغيير الداخلي في نظم الحكم (لعل آخرها تحرك جماهير دول شرق أوروبا لقلب أنظمة الحكم)، وتجارب تاريخية أخرى لها في حدود حركات التحرر والنضال الوطني لأجل

الاستقلال (وأشهرها تجربة المهاتما غاندي في الهند)^(١٤). وبالنظر لتقاطع المفاهيم المرتبطة بالنضال المدني في مواضيع كثيرة، وذلك إلى درجة الخلط أحياناً بين هذه المفاهيم (كمفهوم العصيان المدني والمقاومة المدنية)، قد قسم البعض أساليب المقاومة المدنية إلى مجموعتين فرعيتين: تضم المجموعة الأولى «الأنماط الدنيا» للمقاومة المدنية ومنها رفض قرارات وأوامر سلطة الاحتلال، ورفع العرائض والشكاوى، واللجوء إلى القضاء وتعليق الأعلام، ورفع الشعارات وتوزيع المنشورات، والتعبير بالفنون المكتوبة والمسموعة والمرئية وإعلان الاحتجاجات. وتضم المجموعة الثانية «الأنماط العليا» للمقاومة المدنية ويندرج تحتها الإضرابات الاقتصادية والسياسية والتظاهر والاعتصامات ونحو ذلك من التعبيرات الجماهيرية^(١٥).

هذا التصنيف يناسب غالباً التحليل الدراسي، والمتصور أن الواقع العملي لحركة المقاومة المدنية يشهد توابك هذه الأنماط والأشكال جميعاً. بيد أن الفارق يظهر بوضوح، نظرياً وفعلياً، عندما يتم التصنيف بين أنماط المقاومة المدنية أو عند انتقال إحدى تجارب المقاومة (كالتجربة الفلسطينية) من نمط إلى آخر. وهكذا يمكن الحكم على الانتفاضة الفلسطينية الكبرى بأنها أقرب إلى نموذج المقاومة المدنية (العنيفة واللاعنفية)، بينما يمكن القول إن المقاومة الفلسطينية قبل الانتفاضة كانت أميل إلى نمط المقاومة المسلحة (العنيفة).

وما تجدر الإشارة إليه، أن تداخل أو تقاطع المفاهيم بالمقاومة

المدنية لا تنفي ضرورة التمييز الواضح بين أنماط المقاومة المدنية المختلفة من جانب وغط المقاومة المدنية اللاعنيفة تماماً من جانب آخر. فالعصيان المدني، على سبيل المثال، لا ينفي اللجوء إلى قدر أو آخر من العنف، وقد يتزامن والعنف المسلح ويتواكب معه، بيد أن المقاومة باللاعنف تنفي أن يصاحبها أي قدر من العنف^(١٧). والواقع أن هناك تجارب للمقاومة ترافق فيها العصيان المدني مع قدر كبير من الكفاح المسلح العنيف مثل ثورة فلسطين الكبرى (١٩٣٦ - ١٩٣٩)، ونموذج المقاومة النرويجية للاحتلال النازي أثناء الحرب العالمية الثانية^(١٨). هذا في حين كان غاندي (الأب الروحي للمذهب اللاعنفي في القرن العشرين) حريصاً على ألا تشوب حركته شائبة عنف^(١٩).

يمكن القول والحال كذلك، إن الانتفاضة قد انتهجت خط المقاومة المدنية بأشكالها المختلفة إلى حد بعيد، لكنها لم تسلك نمط اللاعنفي بمعناه المثالي، لذلك فإنها أقرب إلى «المقاومة المدنية العنيفة» منها إلى المقاومة المسلحة العنيفة أو اللاعنفي المطلق. والواقع أن هذا السلوك النضالي قد فتح الباب أمام نوع من الجدل بين القائلين بجدواه لتحقيق أهداف حركة النضال الفلسطيني والمعارضين لهم والداعين إلى التوفيق بين أنماط المقاومة المسلحة والمدنية على حد سواء. وهو جدل لا يتوقع له التوقف، طالما لم تتحقق أهداف هذه الحركة، كما أنه جدل له فوائده في تصحيح مسار الحركة طالما ظل محكوماً بالرغبة في تلمس أفضل السبل لتحقيق هذه الأهداف والارتقاء بالمقاومة الفلسطينية العربية

في مواجهة الغزوة الصهيونية العنصرية.

إن متابعة الخطوط العريضة لهذا الجدل تقوم على عدم التشكيك كلياً في جدوى المقاومة المدنية التي سلكتها الانتفاضة، ولكنها تستند إلى أن العنف المسلح يعد أكثر فاعلية وتعجلاً في تحقيق النتائج^(١٩). كما أن أنماط المقاومة المدنية لا تلائم وحدها مواجهة التحدي الصهيوني الذي يقوم على الإرهاب والقوة، كما أشرنا في موضع سابق. لقد احتلت إسرائيل الأرض الفلسطينية بالقوة المكثفة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الإبقاء على هذا الاحتلال من خلال استخدام القوة، وليس هناك أي احتمال لأن تستجيب إسرائيل لمطالب الشعب الفلسطيني عبر الوسائل التي يمارسها هذا الشعب كما أفصحت عنه الانتفاضة. وفي السياق نفسه، سيق تقويم الأسلوب النضالي الأمثل لتحقيق الأهداف الفلسطينية، ومسار الانتفاضة بوجه خاص، يمكن التذكير بأن أنماط المقاومة المدنية تسعى، بين مساعيها الأخرى، إلى استحضاث الرأي العام في كل مكان، بما في ذلك على ساحة الخصم، لأجل التعاطف مع أهدافها. وفيما يتعلق بنموذج الاستعمار الصهيوني، ليس ثمة ما يشير إلى إذعان القيادة الصهيونية الإسرائيلية الحاكمة لضغوط المجتمع الدولي والرأي العام وما شابه، فهي قيادة تشبعت بمفاهيم القوة ولا تستجيب إلا لحقائقها.

وفي إطار هذا الفهم تناول البعض فكرة «العصيان المدني» وهو من أرقى أشكال المقاومة المدنية، ورأوا أن العصيان يمكن أن

يكون شكلاً نضالياً مهماً في حال تكامله مع أشكال النضال الأخرى، وخصوصاً الكفاح المسلح، وفي حال توافرت المقومات المادية الضرورية لنجاحه، التنظيمية والاقتصادية أو التعبوية. ويميز هؤلاء بين تحويل الانتفاضة نفسها إلى انتفاضة مسلحة (الأمر الذي قد يكون مرفوضاً وبعيد المنال)، والعمل على أن يرافق الانتفاضة عمل مسلح متصاعد^(٣٠). وواضح أن مثل هذه الرؤية يشوبها الغموض، إذ أنها تفترض أن الضربات التي سوف تكيهها سلطة الاحتلال سوف تفرق بين عمل مسلح وعمل غير مسلح داخل الأرض المحتلة أثناء تفاعل الانتفاضة وهذا افتراض يصعب تصوره. ومع ذلك فإن الدعوة إلى أن تترافق أشكال النضال المدني والمسلح جنباً إلى جنب لا تفقد جاذبيتها، غير أن الأمر يحتاج إلى وعي بالغ للآثار الجانبية والاحتمالات المختلفة التي قد تنجم عن التوسع في العمليات المسلحة. وقد يكون من المجدي أن تترافق الأشكال النضالية التي سلكتها الانتفاضة مع أعمال مسلحة من الخارج نحو الداخل. . وهو ما يحتاج بدوره إلى تدبر وتخطيط يستطيع المعنيون تحديد زمانه ومكانه وحجمه بعد الحيلة لانعكاساته على مسار القضية الفلسطينية برمتها.

إن الدعوة إلى تصعيد المقاومة المسلحة بقصد إيلاء المحتل الصهيوني تنتمي إلى المقولات التي يصعب، إن لم يستحل، رفضها نظرياً. إنها دعوة تحاصر خصومها، إن كان لها خصوم في الجانب الفلسطيني - العربي، في زاوية ضيقة. ولذلك، فإنها إن لم تقدم برنامجاً تفصيلياً للكيفية التي يمكن بها تصعيد هذه المقاومة،

سوف تظل تحاور في الإطار النظري الذي يوسّع دائرة الحرج ولكنه لا يطرح البديل. كذا، فإنه ينبغي على دعاة الكفاح المسلح واسع النطاق تقديم رؤية مفصلة لأبعاد هذه الدعوة، آخذين بعين الاعتبار المتغيرات المحيطة فلسطينياً وعربياً وإسرائيلياً ودولياً بدعوتهم.

وحتى يتم طرح البديل الكفاحي، ينبغي أن تتضاعف المساعي الراقية إلى دعم الانتفاضة وتقوية ساعدها.

لعل أهم ما يقتضيه دعم الأشكال النضالية التي برع فيها أبناء الأرض المحتلة، وهي أشكال المقاومة المدنية العنيفة، العمل على مساعدة مجتمع الانتفاضة المدني. فالمقاومة المدنية بحاجة إلى المجتمع المدني المتناسك الصلب المؤطر في مؤسسات وجماعات وأبنية، المدعوم اقتصادياً وسياسياً وإعلامياً، والذي يمكنه العمل باستمرار بمعزل عن سلطة الاحتلال لأطول مدة ممكنة. يقول جين شارب، وهو من أبرز منظري المقاومة المدنية، «إنه رغم أن كثيراً من الأبنية يكون راسخاً في المجتمع (المقاوم)، إلا أن بعضها قد ينشأ في غمار تطور عملية المقاومة. ومن الأهمية بمكان في هذا الشأن، ملاحظة مستوى القوة التنظيمية للأبنية ومستوى تماسكها الداخلي ودرجة انتشارها في المجتمع»^(٢١).

ويبدو أن مجتمع الأرض المحتلة قد حقق درجة طيبة على هذا الصعيد، وقد أمكن لبعض المصادر إحصاء أكثر من مئتي مؤسسة وجمعية خيرية ورابطة ونقابة وتعاونية تغطي كل أنحاء الأرض المحتلة^(٢٢). فإذا أضيف إليها المدارس والجامعات والبلديات،

يلاحظ كيف أن حركة المجتمع الفلسطيني أثناء الانتفاضة تسير بشكل يسعى لعزل سلطة الاحتلال وإفراغها من محتواها. وليست هذه السلطة في حالة غفلة عن مغزى هذه الظاهرة، فقد كانت المؤسسات من أئمن أهدافها منذ بداية الانتفاضة، إذ أنها أغلقت مكاتب النقابات والتعاونيات والجمعيات الخيرية، فضلاً عن الجامعات والمدارس، وكان النقبائون أول من أودع المعتقلات الادارية وتمّ ترحيل بعضهم. وفي هذا الإطار، تمّ ترحيل مبارك عوض (الذي لقب بـ غاندي فلسطين) بدعوى التحريض. لقد أنشأ عوض، كما أشرنا في موضع سابق، مركز دراسات اللاعنف في القدس، وتبنى الدعوة إلى العصيان المدني في الأرض المحتلة في كانون الثاني/يناير ١٩٨٨؛ ولحرص سلطات الاحتلال على كتم دعوته - التي ما عادت مكتومة بفعل الانتفاضة - لم تأبه بجنسيته الأمريكية وانشغلت بأصله الفلسطيني وحركته وسط مجتمع الأرض المحتلة، مما يفصح عن تحسبها لخطورة النضال المدني. والواقع أن تدبر أمر المقاومة المدنية، والسعي لإنجاحها فلسطينياً عبر مسلكيات الانتفاضة يتضح تماماً في مضمون الورقة المسماة «ورقة عمل مطروحة أمام القوى الوطنية» التي تم إعدادها في مطلع ربيع عام ١٩٨٨، بواسطة لجنة طوارئ ضمت أعلى مستويات المسؤولية في منظمة التحرير الفلسطينية وبالتنسيق مع القيادة الموحدة للانتفاضة. وجاء فيها «ضرورة الارتقاء بالانتفاضة من مرحلة الإضرابات والمظاهرات والمواجهات مع سلطات الاحتلال إلى مرحلة جديدة من الانقسام شبه الكلي عن نظام الاحتلال»، وقد حرصت الورقة على

توصيف علاقة سلطات الاحتلال بالمجتمع الفلسطيني في الأرض المحتلة توصيفاً دقيقاً. ويبرز هذا التوصيف الحرص على التدرج في الحركة والتحسب لردود الفعل من جانب سلطات الاحتلال، وعدم توريط المجتمع الفلسطيني في أنماط للمقاومة قد لا يتمكن هذا المجتمع من خوضها دون أضرار شديدة. ومن ذلك مثلاً أن الورقة لم تر الارتقاء الفجائي نحو العصيان المدني الشامل العاجل بما في ذلك عدم دفع فواتير المياه والكهرباء والتليفونات، تحسباً لما قد ينجم عن قطع هذه الخدمات على المجتمع الفلسطيني^(٧٣). مع كل ذلك، وعلى الرغم منه، هناك ما يلح على الذهن، فيما يتعلق بمسار المقاومة المدنية فلسطينياً، إذ لا خلاف على أن المجتمع الفلسطيني يلج النضال المدني الواسع النطاق وهو مدفوع بإرادة غير محدودة للاستقلال وطرد المستعمر الصهيوني. لكن التساؤل يظل مشروعاً حول حدود قدرة هذا المجتمع على الاستمرار في أنماط النضال التي أفرزتها الانتفاضة. فالبعض يتحدث عن الإعاقة الاجتماعية والصحية والاقتصادية والعلمية التي يسببها العنف الإسرائيلي في مواجهة الانتفاضة، وما يمكن أن ينجم عنها من تخطيط لبنية المجتمع الفلسطيني في الأرض المحتلة على المديين المنظور والبعيد. والذي يمكن أن يقال في هذا الجانب كثير. إن سلطات الاحتلال تسعى حثيثاً إلى هذا الهدف، والأمثلة على محاربتها للمجتمع المدني الفلسطيني لا تحصى، حتى أن جنود الاحتلال يرمون القنابل في أعشاش الدواجن وحظائر الحيوانات لقتلها وتدمير فكرة الاقتصاد الشعبي^(٧٤). ناهيك عن الحديث عن

القتلى والجرحى والمعتقلين والمشوَّهين، وإغلاق المدارس والجامعات ونسف البيوت... إلخ. ورغم أن المنتفضين هم الأقدر على تحديد قدراتهم، التي يبدو أنها مطمئنة تماماً، إلا أن هذه الظاهرة تستدعي من جهة التفكير في الآليات المناسبة لدعم الانتفاضة عربياً وبشكل جدي بصفتها الجبهة العربية الساخنة الوحيدة في مواجهة الغزوة الصهيونية، وتستدعي من جهة أخرى وضع المجتمع الدولي كله وعلى أعلى المستويات أمام جرائم الاستعمار الصهيوني في الأرض المحتلة، في وقت يتنادى الجميع ويتحركون على إيقاع نغمة شاملة تسمى حقوق الإنسان والحرية.

ثالثاً: العناصر الحاكمة لمسار المقاومة

المقاومة في الأرض المحتلة لا تنفصل عمّا يدور حولها في الدوائر الفلسطينية والإسرائيلية والعربية والدولية. يتأكد هذا الفهم بمتابعة المرحلة التي تناولتها هذه الدراسة، بمثل ما يتأكد من متابعة مسار المقاومة منذ عام ١٩٦٧. فلقد تزامن صعود المقاومة أو هبوطها دوماً وما اعترى الدوائر المذكورة من تطورات؛ والمتصور أن تحتفظ هذه الدوائر بتأثيرها في مسار المقاومة في المستقبل.

١ - المقاومة والدائرة الفلسطينية

تقول الخبرة التاريخية إن الاستراتيجية الصحيحة للمقاومة هي نقطة الارتكاز الرئيسية لأية حركة تحرر. وتدل هذه الخبرة على أن

استراتيجية المقاومة الفلسطينية منذ عام ١٩٦٧ وحتى مطلع الثمانينات قد تأثرت بمنايع نظرية حول العنف الثوري، في مواجهة الاستعمار، كأفكار فرانز خانسون، والأفكار الماركسية، فضلاً عن الاستفادة من تجارب حركات التحرر الناجحة في الصين وفيتنام والجزائر، وقد وصف البعض الاستراتيجية الفلسطينية المستمدة من هذه الخبرات بالقصور لأسباب عديدة^(٢٥).

ومنذ مطلع الثمانينات وصولاً إلى الانتفاضة الكبرى تزايد وزن الخبرة الإسلامية في الجهاد في الوقت الذي بدأت فيه فصائل المقاومة تراجع مجمل تجربتها السابقة في رغبة عارمة لتصحيح المسار، كما تزايد اثر فلسطيني ١٩٤٨ وترددت المناادة بدورهم في المقاومة. ومن المتوقع كذلك أن تضيف خبرة الانتفاضة الكثير إلى استراتيجية المقاومة. وفي هذا الإطار، فإن هناك عدداً من الحقائق التي يمكن أن تثرى الأفكار المتعلقة بهذه الاستراتيجية:

فمن ناحية أولى، يجب الاهتمام بضرورة التقدير الصحيح لأوضاع الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة. فقبيل الانتفاضة رأت بعض الأصوات أن الأوضاع السيئة لهذا الشعب تحت الاحتلال - إلى جانب الأوضاع غير المؤاتية في الخارج - تبرر القبول بما هو مطروح على طريق التسوية، وإن كان لا يلبي كل المطالب والحقوق الفلسطينية. وقد جاءت الانتفاضة لكي تدحض القول إن أبناء الأرض المحتلة يقبلون بالأمر الواقع بسبب شدة معاناتهم^(٢٦)، إذ أكد هؤلاء قولاً وعملاً أنهم لا يقبلون إلا باستعادة

حقوقهم، وأنهم على استعداد للتضحية من أجل ذلك.

ومن نافلة القول إن التقدير الصحيح لأوضاع الأرض المحتلة يتضمن معرفة خارطة القوة الفلسطينية في الداخل، بما في ذلك ما يدور على ساحة فلسطين ١٩٤٨، منابعها وحدودها، واتباع الحكمة البالغة في التعامل. ومن ناحية ثانية، رأى البعض - وهم محقون تماماً - أن أمام المقاومة الفلسطينية، وبخاصة في ضوء نموذج الانتفاضة الكبرى، تحديين رئيسيين ينبغي التعامل معهما بأقصى صنوف الحكمة والتدبر، وهما تحدي ضمان الاستمرار وتحدي سلامة المسار^(٣٧).

فيما يتعلق بضمن الاستمرار، فإنه يدور حول أهمية عنصر الزمن. فلا توجد حركة تحرر وطني حققت نتائجها في فترة وجيزة. لذا فإن عنصر الاستمرار عبر فترة زمنية ممتدة (نسبياً)، يمثل إحدى المهام المطروحة مستقبلاً أمام قوى المقاومة الفلسطينية. وفي تقدير للمدى الزمني الذي يقوم على استقراء التجارب التحررية السابقة، فإن الفترة الزمنية المفترضة قد تقصر وقد تطول بسبب ما يرد من متغيرات، فقد تختصر في حال حدوث مد عربي عارم يدعم المقاومة بلا حدود، وقد تزيد في حال ممارسة النظام العربي دوراً تخريبياً أمامها.

كذلك يتطلب النجاح في ضمان الاستمرار ضرورة الحفاظ، قبل أي شيء، على الوحدة الوطنية الفلسطينية. لأن النيل من هذه الوحدة يبقى من أئمن أهداف خصوم حركة التحرر

الفلسطينية. كما يحتاج الاستمرار إلى الدعم العربي، لأن الخبرة تثبت أهمية الدعم الخارجي في التعجيل ببلوغ حركات التحرر لأهدافها. هذا إلى جانب الحاجة إلى استقطاب الدعم للمقاومة من البيئة الدولية قدر المستطاع.

أما تحدي سلامة المسار، فهو شرط رديف لعملية الاستمرار، بحيث ينبغي عدم ضياع الرؤية السليمة. وفي هذا السياق يجب ألا يغيب عن حركة المقاومة الفلسطينية عموماً، التصدي المناسب لمعضلة العلاقة بين الاستراتيجية والتكتيكية، وذلك من خلال حوار ديمقراطي بشأن البدائل والتبصر بالفرص المتاحة والمخاطر المتضمنة. وقد أبرزت القيادة الفلسطينية تعاملاً ناضجاً مع هذه المعضلة في حالات كثيرة. غير أنه يلفت الانتباه إلى أن السياسة الفلسطينية قد تَوَاجَه بمعضلات فرعية جزئية (قد تكون يومية) تطرح فيها خيارات دبلوماسية على الجانب الفلسطيني أن يتعامل معها. كذلك قد تبرز العلاقة بين النضال المدني والعسكري على النحو الذي فصلناه في موضع سابق، والتي ينبغي التعامل معها على ضوء تتبُّع مراحل المقاومة وطبيعة مواقف القوى السياسية الإسرائيلية، ومدى النتائج المتوقعة بعد كل تحرك، والتوقيت المناسب له.

٢ - تأثير السياسات الإسرائيلية

تراوحت السياسات الإسرائيلية الهادفة إلى حلّ المقاومة في

الأرض المحتلة بين إجراءات الردع، وإجراءات رد الفعل، وإجراءات الاحتواء السياسي والاقتصادي، وتحطيم البنية الثقافية والنفسية، وصولاً إلى نيات ومحاولات استئصال العنصر الفلسطيني داخل الأرض المحتلة وخارجها، وأحياناً التجاهل وادعاء عدم الاكتراث. وقد تم تفصيل هذه السياسات في مواضع مختلفة في الأدبيات التي تناولت القضية الفلسطينية^(٣٨).

ومع أن المقاومة قد تأثرت في بعض المراحل بهذه الإجراءات، إلا أنها لم تنحدر نهائياً، بل استطاعت تجاوز الصعوبات وإعادة الإحياء مرة تلو الأخرى. وخلال المرحلة الأخيرة، مرحلة الانتفاضة، أضحت مستقبل الأرض المحتلة أهم القضايا التي قادت إلى مزيد من الاستقطاب بين القوى السياسية داخل المجتمع الإسرائيلي. وهو استقطاب يعود في واقع الأمر إلى عام الاحتلال بعامة وعام ١٩٧٧ بخاصة^(٣٩). ورغم ما أحدثته الانتفاضة من هزات داخل المجتمع الإسرائيلي، إلا أن الاقتراب من برامج انتخاب الكنيست الثاني عشر في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٨٨، التي كانت بمثابة استفتاء على مستقبل الأرض المحتلة، يبين جنوح الاتجاهات السياسية الإسرائيلية نحو استمرار السياسة الصهيونية التقليدية، وضعف مناصري القوى التي تؤيد الحقوق الفلسطينية^(٤٠). وفي الواقع، فإن كافة الأجهزة والمؤسسات الحاكمة في الكيان الصهيوني تميل نحو العنف وتمارسه في الأرض المحتلة، وتنادي بإسرائيل الكبرى، وتتحدث عن مشاريع لسحق الفلسطينيين. وفي هذا الإطار، لا تسمع أصوات تحذر من أ

منطلق التطور التاريخي لا يسير في مصلحة إسرائيل^(٣١). لكن ثمة مؤثرات كثيرة على المقاومة الفلسطينية قد فعلت فعلها، هذا الجنوح الإسرائيلي نحو الإرهاب ينبغي ألا يفاجأ به أحد، وقد يشهد المستقبل المزيد منه. فهذه ظاهرة عرفتها الكيانات الاستعمارية الاستيطانية من قبل^(٣٢).

يظل مطلوباً على صعيد المقاومة الفلسطينية، إلى جانب الاستمرار والتطوير الكيفي والكمي بحسب الظروف، والحفاظ على المسار الصحيح، رصد التطورات والتفاعلات التي تعتمل داخل المشروع الاستيطاني الصهيوني وتلمس نقاط ضعفه والضغط عليها بشدة، مع شحذ الإرادة في مواجهته. ولعل من أهم التطورات التي سيشهدها المستقبل المنظور، والتي بدأت إرهاصاتها القوية مع مطلع التسعينات، استقبال الكيان الصهيوني لدفعة بشرية تتمثل في اليهود السوفيات الذين بدأت عملية هجرتهم (أو تهجيرهم سيان في الأثر!) إلى هذا الكيان. وهو أمر سوف يحيي الآمال والمطامع التاريخية للحركة الصهيونية، ويؤدي إلى تأجيج الصراع على أرض فلسطين ومن حولها. هنا، يصبح للمقاومة اليد العليا في تحديد مستقبل هذه الهجرة. فالمقاومة متعددة الأشكال من شأنها توجيه أقوى الرسائل للمعنيين، وعلى رأسهم المهاجرون أنفسهم، بأن لأرض فلسطين أصحاباً سوف يدافعون عنها، وأنهم ليسوا بآمن في هذا المكان الذي لا يمتون إليه بصلة.

وإلى جانب التأثيرات الإيجابية في المستوى البشري والعلمي

الذي سوف تسببه الكتلة البشرية القادمة للاستيطان في فلسطين من أواسط آسيا وشرق أوروبا بالنسبة إلى إسرائيل، فمن المتوقع أن ثمة تأثيرات سلبية أيضاً، ينبغي رصدها في المستقبل المنظور، من بينها ازدياد كتلة الاستكناز داخل المجتمع الإسرائيلي، وما قد يستتبع ذلك على التناقض الموجود أصلاً مع كتلة الشفارد. ولا شك في أن تطوير آليات للتعامل مع هذا التناقض الذي سيتفاقم مستقبلاً، من الجانب الفلسطيني العربي، يُعدُّ حاجة ملحة.

٣ - المقاومة والموقف العربي

إن صلة الحركة الفلسطينية بمحيطها العربي صلة عضوية، فهي جزء من هذا المحيط تتأثر به وتؤثر فيه بنسب متفاوتة. غير أنه بفعل ظروف ومتغيرات كثيرة، كان النمط العام للعلاقات العربية الفلسطينية صراعياً في معظمه، وبخاصة في إطار ما يعرف بدول الطُّوق^(٣٣). وثبتت التجربة أن المقاومة في الأرض المحتلة قد تأثرت سلباً أو إيجاباً بمسار هذه العلاقات. كما تأثرت بصلابة النظام العربي أو سيولته. على سبيل المثال، فإنه في عام ١٩٧١، وبفعل الأزمة الأردنية - الفلسطينية المعروفة بـ «أحداث أيلول»، ووقف إطلاق النار على الجبهة المصرية - الإسرائيلية على قناة السويس، ضعفت المقاومة في الأرض المحتلة^(٣٤). كما أن إغلاق معظم الحدود العربية في وجه حركة المقاومة باتجاه الأرض المحتلة في مراحل تالية، يعد من أهم العناصر المحددة لهذه الحركة. هذا في حين يلاحظ أن فترة اللقاء الأردني الفلسطيني بين عامي ١٩٨٣

و١٩٨٦ قد اقترنت بصعود المقاومة في الأرض المحتلة .

يذكر في هذا الإطار أيضاً، أنه عادة ما كُلف الخلاف العربي - الفلسطيني السياسة الفلسطينية (وفصائل المقاومة تحديداً) وقتاً وجهداً استنفد للإبقاء على حرية الحركة الفلسطينية بقدر أو آخر ضمن الأجواء العربية المتغيرة .

لقد أثبتت تجارب الكفاح الوطني أهمية المساندة الخارجية، فقد كان لها دور بارز في تشكيل الظروف التي مهّدت لنجاح حركات الكفاح في الجزائر وفيتنام والمستعمرات البرتغالية السابقة في أفريقيا. وحركة التحرر الفلسطيني ليست استثناء من هذه القاعدة العامة، خصوصاً وأن كثيراً من مقومات الانتصار النهائي في مستوى الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني ترتبط بمسار مستوى الصراع العربي - الإسرائيلي . على أي حال، فإن مسار المقاومة الفلسطينية في الأرض المحتلة يظل بحاجة للدعم العربي، وهذا يتطلب الحفاظ على قومية الثورة الفلسطينية كشرط لتحقيق الأهداف^(٣٥) .

وإذا كان وصول المقاومة إلى غاياتها بحاجة الى موقف عربي داعم فإن المقاومة بدورها تعتبر أحد العوامل المؤثرة في الإبقاء على قيمة المواجهة مع الغزوة الصهيونية بحكم أنها تجعل من الأرض المحتلة إحدى الجبهات الساخنة باستمرار، إن لم تكن الجبهة الساخنة الوحيدة في بعض المراحل .

مهما يكن من أمر، فإنه إن لم تتمكن السياسة الفلسطينية في

بعض المراحل من استقطاب المساندة العربية في شكلها العسكري، فليس أقل من أن تسعى للإفادة من هذه المساندة على الصعيد السياسي والإعلامية والمادية، والحيلولة دون تحول العنصر العربي الى مؤثر سلبي يعيق تحركها أو يمارس عليها الضغوط.

إن النظام العربي يعيش في السنوات الأخيرة مرحلة انتقالية لم تتضح معالمها ومن ثم انعكاساتها على مسار الصراع الإسرائيلي - العربي والقضية الفلسطينية. ومن معالم النظام قيام التجمعات الجهوية (مجلس التعاون الخليجي، الاتحاد المغاربي، مجلس التعاون العربي...) . هذه المتغيرات قد لا تكون بالضرورة سلبية أو ايجابية على مسار القضية الفلسطينية أو المقاومة في الأرض المحتلة، ولكن يبقى على صانعي السياسة الفلسطينية أن يراقبوا عن كثب مع التحسب لتتائجها المقبلة على قضايا النضال الفلسطيني بشكل خاص^(٣). وربما تكون الوقائع التي صاحبت الانتفاضة وبخاصة ضعف مستوى المساندة العربية مناسبة للحذر من تجذر بعض الظواهر السلبية في مسار النضال الفلسطيني. ومن أبرز هذه الظواهر، المخاوف التي يمكن أن تثار بشأن بروز تحول جوهري في الفهم العربي للصراع على أرض فلسطين والقضية الفلسطينية؛ فالقضية تكاد تتحول من «المشكلة الفلسطينية» إلى «مشكلة الفلسطينيين»، الأمر الذي يحقق انفراد الخصوم بالطرف الفلسطيني... يجب الحرص والحال كذلك على الحفاظ على قيمة الصراع مع الغزوة الاستعمارية الصهيونية الاستيطانية في المستوى الأعظم (العربي - الصهيوني). طبقاً لهذه القيمة، تظل فلسطين

جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي لم يتحرر بعد، خاضعاً لنوع فريد من الاستعمار يستهدف إخضاع الأمة العربية واستباحة أرضها وتعرض حضارتها وعمقها الجغرافي والاقتصادي للخطر، بسبب الطبيعة التوسعية الكامنة في إسرائيل^(٣٧).

والواقع ان الإيمان بهذه القيمة، أو إعادة إنتاجها أو الإبقاء عليها، مهمة تقع على القوى الشعبية العربية بصفة أساسية. وكخطوة قوية على الطريق، يمكن لأكثر من مئتي منظمة شعبية عربية موجودة على الساحة، أن تساهم في الإبقاء على جذوة المقاومة في الأرض المحتلة (حدود الممكن في الوقت الراهن والمستقبل المنظور). وذلك كحد أدنى بجمع الأموال اللازمة لتعويض الخسائر في بعدها المالي الاقتصادي للمتضررين في الأرض المحتلة مما يقوّي عزيمتهم على طريق العصيان المدني الشامل. وكمثال نستقيه من تجربة الخصوم، نلاحظ أن «منظمة النداء الموحد اليهودي» في الولايات المتحدة، أعلنت في شباط/فبراير عام ١٩٩٠ عن عزمها على جمع مبلغ أربعمائة مليون دولار خلال عام واحد، لدعم برامج تهجير وتوطين اليهود السوفيات داخل الكيان الصهيوني. ويفترض طبقاً لذلك، أن تتنادى القوى العربية - على المستوى الشعبي - لجمع مثل هذا المبلغ لدعم صمود أبناء فلسطين على أرضهم!! . وغني عن الإشارة، في هذا السياق، أن تقوية الكيان الصهيوني بشرياً بعنصر اليهود السوفيات، لن يطال بخطر ما تبقى بحوزة الفلسطينيين العرب من أرض ووجود، لكنه سوف يمتد بخطرته إلى المحيط العربي،

بحكم غلبة خاصية التوسع لدى الكيان الصهيوني في المرحلة المقبلة .

إن سبيل دعم الانتفاضة عربياً أكثر من أن يتم حصرها، غير أن هذا الدعم يتطلب إرادة الدعم في البداية، والتشخيص الصحيح لطبيعة الصراع قبل كل شيء .

٤ - المقاومة والإطار الدولي

تعد قضية فلسطين ضمن الصراع الصهيوني - العربي في مقدمة القضايا الإقليمية التي تأثرت في كل مراحلها بالعامل الدولي، لقد نشأت هذه القضية في ملفات وأروقة ومساومات القوى الدولية الكبرى منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، قبل أن تشق طريقها على أرض الواقع في المنطقة العربية. وبمرور الوقت تعقدت أبعادها وتعددت أطرافها والمنشغلون بمسارها، دون أن يقلل ذلك من أهمية الإطار الدولي على هذا المسار.

ومثلما تظل المقاومة بحاجة إلى الدعم العربي وتأثر به، فإنها تظل بحاجة إلى المساندة الدولية .

اتسمت الفترة ما بين ١٩٨٢ و ١٩٨٨ بمرور مناخ العلاقات بين الدولتين العظميين (أهم المؤثرين دولياً) بمرحلتين فرعيتين؛ فتعد المرحلة بين ١٩٨٢ و ١٩٨٥ استمراراً لمناخ الاستقطاب والحرب الباردة التي سادت منذ مطلع الثمانينات. بينما تعد المرحلة التالية بخاصة منذ صعود غورباتشيف إلى سدة الحكم في موسكو، أميل

إلى سيادة مناخ التهدة والانفراج . وقد كان الأثر الصافي للسياسة الأمريكية في كلا المرحلتين، تجاه القضية الفلسطينية، سلبياً تماماً . حيث تصاعد خلالها السلوك العدواني الإسرائيلي داخل الأرض المحتلة وخارجها، دون أن تحرك واشنطن ساكناً؛ وترافق ذلك مع تعميق تحالف الولايات المتحدة مع إسرائيل .

أما في الجانب الآخر، فإنه وإن لم يحدث تغيير جوهري في الموقف السوفياتي من القضية، وهو موقف التأييد التقليدي للمقاومة الفلسطينية، فإنه مع وصول غورباتشيف وسياساته، ظهرت مبررات للقلق العربي من السياسة السوفياتية الجديدة . من هذه المبررات ما يعود إلى الطرح السوفياتي الواضح لفكرة «توازن المصالح» لا توازن القوى في تسوية الصراعات، والانعكاسات المحتملة لهذه الفكرة على السلوك السوفياتي الخاص بإمداد العرب بالسلاح، ومنها ما يعود إلى الاحتمالات الخاصة بانعكاس السياسة السوفياتية الجديدة على هجرة اليهود السوفيات إلى إسرائيل، ومنها ما يعود إلى ما تردد عن ازدهار التأثير اليهودي في دوائر السياسة السوفياتية في عهدها الجديد اتساقاً مع القاعدة العامة عن بروز قوة العنصر اليهودي السوفياتي في اللحظات الليبرالية^(٣٨) .

مع ذلك، ما انفك الاتحاد السوفياتي يعلن أنه لم يغير موقفه من قضية فلسطين، وينادي بالاعتراف المتبادل بين الفلسطينيين والإسرائيليين^(٣٩) . لكن هذا لا ينفي أن لكل مرحلة سياساتها، مما يحتم على الجانب الفلسطيني العربي استمرار المتابعة والتحسب

لكل النتائج المحتملة. وفي هذا الإطار تبقى المقاومة الفلسطينية المستمرة، أحد مداخل التأثير في المواقف الدولية، ويذكر في ذلك، أن فتح الحوار الأمريكي - الفلسطيني (كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٨٨) بعد عام كامل من استمرار الانتفاضة الكبرى والذي لم يقدر له الاستمرار، كان إحدى النتائج التي أفرزتها الانتفاضة، كما أن تطور المواقف الأوروبية الغربية تجاه القضية الفلسطينية يعد إحدى النتائج التي تمخضت عن الفعل الفلسطيني المقاوم عبر السنوات العشرين التالية لعام ١٩٦٧^(١٠).

يفترض على هذا النحو أن التأثيرات التي تطرحها هذه الدوائر المختلفة (الفلسطينية والإسرائيلية والعربية والدولية) على مسار المقاومة قد تباينت في مختلف المراحل. غير أن المقاومة داخل الأرض المحتلة قد تصبح في أفضل حالاتها حينما تمارس هذه المؤثرات دوراً إيجابياً. فالوحدة الوطنية الفلسطينية في إطار استراتيجية واضحة المعالم، إلى جانب الارتباك على الجانب الإسرائيلي، والدعم العربي اللامحدود، في إطار بيئة دولية مناسبة تدعم المطالب الفلسطينية؛ هذا المناخ العام، لا شك في أنه يوفر للمقاومة بيئة ملائمة وقد يجعلها في أقرب نقطة من تحقيق أهدافها العامة. ومع هذا، فإن القصور الذي قد يعتري أحد هذه المؤثرات لا شك في أنه يمارس دوراً سلبياً على مسار المقاومة. لكنه لا يشلها تماماً، فالعناصر الحاكمة أو المحددة للحركة الفلسطينية، مثلها مثل أي عناصر حاكمة لأية ظاهرة، قد تمارس دوراً إيجابياً أو سلبياً، لكنها لا تمنع الحركة بشكل مطلق.

هوامش الفصل الرابع

- (١) جورج حبش، «الانتفاضة شاملة ومنظمة»، (حوار)، اليوم السابع (باريس)، (٢٨ شاط/فراير ١٩٨٨)، ص ١٥.
- (٢) خالد عايد، الانتفاضة الثورية في فلسطين: الأبعاد الداخلية (عَمَّان: دار الشروق، ١٩٨٨)، ص ٣٧.
- (٣) المصدر نفسه، ص ١٢٣.
- (٤) محجوب عمر، الانتفاضة: تراث وحاضر ومستقبل ظافر (القاهرة: دار الينادر، ١٩٨٩)، ص ٢٢، ولطفي الخولي، الانتفاضة والدولة الفلسطينية (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨)، ص ٥٨.
- (٥) عمر، المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (٦) حبش، «الانتفاضة شاملة ومنظمة»، ص ١٥.
- (٧) أحمد يوسف أحمد، «الانتفاضة الفلسطينية: الميلاد، الإنحاز، المستقبل»، المستقبل العربي، السنة ١٢، العدد ١٢٦ (آب/أغسطس ١٩٨٩)، ص ١٠ - ١١.
- (٨) انظر. عبد الوهاب المسيري، «الانتفاضة العربية في فلسطين المحتلة»، صحيفة الشعب (القاهرة)، ١٩٨٨/٤/٢٦.
- (٩) حول المفهوم الأمريكي لشعار تحسين الأحوال المعيشية لسكان الضفة والقطاع، انظر: أحمد صدقي الدجاني، مدرسة عربية في علم السياسة (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٨)، ص ١٦٩ - ١٧٢. وحول المفهوم الأوروبي للشعار، أنظر: محمد خالد الأزعر، «موقف الجماعة الأوروبية تجاه القضية الفلسطينية»، (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٨٩)، ص ٣٠١ - ٣٠٣.
- (١٠) محمد خالد الأزعر، المقاومة في قطاع غزة، ١٩٦٧ - ١٩٨٥ (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، ص ٢٠.
- (١١) عمر، الانتفاضة: تراث وحاضر ومستقبل ظافر، ص ٢٣.
- (١٢) للمزيد من التفاصيل، انظر: غازي خورشيد، دليل حركة المقاومة الفلسطينية، سلسلة كتب فلسطينية، ٣٢ (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز

الأبحاث، ١٩٧١)، وفيصل حوراني، الفكر السياسي الفلسطيني، ١٩٦٤ - ١٩٧٤ : دراسة للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٤).

(١٣) عواد طاهر الأسطل، «المقاومة الفلسطينية وعملية التعبئة السياسية لمواطني الضفة والقطاع»، شؤون فلسطينية، العدد ١٨٣ (حبران/يونيو ١٩٨٨)، ص ٥.
(١٤) حول مفهوم المقاومة المدنية والمفاهيم التي ترتبط به، انظر: أحمد عطية الله، القاموس السياسي (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٠)، ص ١٥٠١ - ١٥٠٢.
انظر أيضاً.

David Sills, ed., *International Encyclopaedia of the Social Sciences*, 17 vols. (London: Collier - Macmillan Publishers, 1972); «Biblical Literature», in: *The New Encyclopaedia Britannica*, 15th ed., 30 vols. (Chicago, Ill.: The Encyclopaedia, 1978), vol. 2, pp. 955-958, and *The International Every Man's Encyclopaedia* (New York: Encyclopaedia Enterprises Inc., 1967), vol. 4, p. 5317.

وحول التجربة المدنية للآعيف، انظر. حياة المهاتما غاندي وآراؤه كما رواها، إعداد كريشنا كريبالدي، ترجمة يونس شاهين (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٩).

(١٥) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٧، المشرف ورئيس التحرير السيد يسين (القاهرة: المركز، ١٩٨٨)، ص ٢٥٨

Sills, ed , Ibid , p. 481.

(١٦)

(١٧) المصدر نفسه، ص ٤٨٢.

(١٨) حياة المهاتما غاندي وآراؤه كما رواها.

(١٩) عايد، الانتفاضة الثورية في فلسطين: الأبعاد الداخلية، ص ١٢٤ - ١٢٧، وعبد الجبار عدوان، أتياب الحروف، الانتفاضة على طريق الاستقلال الفلسطيني؛ ١ (القاهرة: دار الشرق الأوسط للنشر، ١٩٨٩)، ص ٦٠ - ٦٢.
(٢٠) عايد، المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٢١) جين شارب، «دور القوة في الكفاح الآعيف»، في: المقاومة المدنية في

النضال السياسي، تحرير سعد الدين إبراهيم (عُمان: منتدى الفكر العربي، ١٩٨٨)، ص ٩ - ٢٣. وللتوسع في أفكار شارب، انظر:

Gene Sharp, *The Politics of Nonviolent Action*, 3 vols. (Boston: Porter Seregent, 1973).

(٢٢) انظر قائمة بذلك في: عبد الجبار عدوان، ثمن الاستقلال (القاهرة: دار الشرق الأوسط للنشر، ١٩٨٩)، ص ٤٢٣ - ٤٥٠.

(٢٣) انظر نص الورقة في: الخولي، الانتفاضة والدولة الفلسطينية، ص ٣١١ - ٣١٦.

(٢٤) عدوان، المصدر نفسه، ص ٢١

(٢٥) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٧، ص ٢٧٣.

(٢٦) انظر: أحمد صدقي الدجاني، الانتفاضة الفلسطينية والصهوة العربية (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٨)، ص ٩ - ١٠.

(٢٧) أحمد، «الانتفاضة الفلسطينية: الميلاد، الإنجاز، المستقبل»، ص ٣٤ - ٣٦.

(٢٨) انظر على سبيل المثال لا الحصر: أسامة الغزالي حرب، الاستراتيجية الإسرائيلية والمقاومة في الأرض المحتلة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام؛ ١٨ (القاهرة: المركز، ١٩٧٧)؛ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٧، ص ٢٦٦ - ٢٧٣، والأزعر، المقاومة في قطاع غزة، ١٩٦٧ - ١٩٨٥، ص ١٠٦ - ١١٧.

(٢٩) «الشرق الأوسط: عشر سنوات بعد كامب ديفيد»، تحرير وليم كوندت؛ مراجعة هويدا عدلي رومان، المستقبل العربي، السنة ١٢، العدد ١٢٤ (حزيران/يونيو ١٩٨٩)، ص ١٣١ وما بعدها.

(٣٠) حسنين توفيق إبراهيم، «المشكلة الفلسطينية في انتخابات الكنيست الثاني عشر»، ورقة قُدمت إلى: جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، مركز الدراسات السياسية، ندوة تحليل نتائج الانتخابات الإسرائيلية، ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٩.

(٣١) الدجاني، الانتفاضة الفلسطينية والصحوه العربية، ص ١٣ .
(٣٢) أحمد، «الانتفاضة الفلسطينية . الميلاد، الإنجاز، المستقبل»، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣٣) انظر التفاصيل في :

Bahgat Korany and Ali Eddin Hillal Dessouki, eds., *The Foreign Policies of Arab States* (Boulder, Colo.: Westview Press; Cairo. American University in Cairo Press, 1984), pp. 220-224.

(٣٤) الأزعر، المقاومة في قطاع غزة، ١٩٦٧ - ١٩٨٥، ص ٨٨ .
(٣٥) مصطفى كامل السيد، «الإمكانات الشعبية العربية ومناصرة الانتفاضة الفلسطينية»، المستقبل العربي، السنة ١٢، العدد ١٢٨ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩)، ص ٦ - ٢٣ .

(٣٦) لم تثبت تطورات السياسة العربية، وبخاصة منذ اسدلاع ما سمي بأزمة الخليج في ٢ آب/اغسطس ١٩٩٠، أنه كان لهذه التجمعات انعكاسات إيجابية على النظام العربي الاقليمي. انظر: «ملف الغزو العراقي للكويت.. الأبعاد والتناجج»، السياسة الدولية، السنة ٢٦، العدد ١٠٢ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠)
(٣٧) مدر غنيتاوي، «الانتفاضة إلى أين؟ وكيف؟ الإحتلالات والخيارات»، ورقة قدمت إلى: القضية الفلسطينية في أربعين عاماً بين ضراوة الواقع... وطموحات المستقبل: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها جمعية الخريجين في الكويت (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩)، ص ٤٥٨ .

(٣٨) أحمد، «الانتفاضة الفلسطينية . الميلاد، الانجاز، المستقبل»، ص ٢٠ .
(٣٩) فيتالي ناوومكين، «تطور العلاقات السوفيتية الأمريكية وتأثيرها على حل الصراعات الإقليمية مع التركيز على القضية الفلسطينية»، محاضرة ألقاها في جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، مركز الدراسات السياسية، ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩ .

(٤٠) حول تطور السياسة الأوروبية الفلسطينية في المرحلة المذكورة، أنظر بالتفصيل: الأزعر، «موقف الجباة الأوروبية تجاه القضية الفلسطينية» .

هذا الكتاب

تقدّم تجربة المقاومة الفلسطينية في إطار المواجهة العربية للغزوة الصهيونية مجالاً واسعاً للدرس والتفكير واستخلاص العبر. فقد بدأت هذه المقاومة منذ ما ينيف على المائة عام. وفي ذلك مبرر كاف لوصف حركة التحرر الفلسطينية بأنها الأطول عمراً بين حركات التحرر العالمية.

انطلاقاً من هذا الفهم، فإن هذا الكتاب يتناول من خلال فصوله، الأربعة، المقاومة في فلسطين من الفترة ما بين غزو لبنان عام ١٩٨٢ والانتفاضة الكبرى المتفاعلة منذ أواخر ١٩٨٧.

لقد عُني الكتاب، بعد عرض وقائع الانتفاضات الكبرى، بتتبع الخطوط العريضة للمقاومة المدنية والسّليحة ضد قوى الاحتلال الإسرائيلي في الضفة وقطاع غزة. كما تضمن رؤية مقارنة للمقاومة في نموذجها الفلسطيني في مقابل نموذج المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي بعد عام ١٩٨٢.

ومن ثم، يناقش الكتاب بعض التساؤلات والقضايا التي أثارها مسار المقاومة في المرحلة موضوع البحث، والوقوف عند العناصر الحاكمة لهذا المسار من منظور مستقبلي.

مركز دراسات الوحدة العربية

ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان

تلفون: ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧ - ٨٦٩١٦٤

بريقاً: «معرّبي»

تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

التمويل من دولارات
أو ما يعادلها